

المجلس الأعلى للثقافة

ترجمة  
د. سامية أحمد السعد

# ناحية بيدستوان

تأليف  
مارسيل بروس

المجلس الأعلى للثقافة

لجنة الترجمة

# ناحية بيترجس

تأليف

مارسيل بروست

ترجمة

د. سامية أحمد السعد

الطبعة  
التي صدرت في المطبعات

١٩٨٦

كنت لفترة طويلة أذهب إلى فراشي مبكراً ، وكنت أحياناً أغضض عيني بسرعة  
حالماً أطفئ شمعي ، بحيث لا أجد متسعاً من الوقت لكي أقول لنفسى : « ساعدي » .  
وبعد ذلك بنصف ساعة ، كان يوقظني تفكيرى فى أن وقت البحث عن النوم قد  
حان . كنت أريد أن أضع الكتاب الذى ظننته بين يدي ، وأن أطفئ نور شمعي .  
كنت وأنا نعلان لا أكف عن التفكير فيما قرأته نوا ، لكن هذه الأفكار كانت قد  
أثقلت شكلاً خاصاً إلى حد ما . كنت أتخيل أني ، أنا نفسى ، ما يتحدث عنه  
الكتاب : كنيسة ، أو رباعى ، أو تنافس فرانسوا الأول وشارل الخامس . وكان هذا  
الإعتماد يبنى بضع ثوان بعد استيقاظي ، ولا يصدم عقلي ، لكنه ينقل كالقشور على عيني  
وعينهما من أن تدركا أن الشمدان الصغير لم يعد مشتغلاً ، ثم أصبح غامضاً بالنسبة  
لى ، مثله مثل الأفكار الخاصة بالحياة السابقة ، بعد تناسخ الأرواح . كلن موضوع  
الكتاب ينفصل عني ، وكنت حراً فى الاهتمام به أولاً . وكنت أمتد في الخيال القدرة  
على الإبصار ، وأدهش كثيراً عندما أجد مجرتي مظلمة هادئة مريحة لعيني ، وربما  
كانت مريحة أكثر لفكري الذى كانت تبدو له وكأنها شئ بلا سبب ، غير مفهوم ،  
شئ غامض حقاً . كنت أَسْأَلُ : كم الساعة الآن ؟ وأسمع صفير القطارات البعيد  
أو القريب ، كأنه غناء الطير فى الغابة ، يحصى الساعات . ويصفى لى مدى الحقل  
الخالية ، حيث يسرع للمسافر متجهاً إلى المحطة القادمة . سيطيع الطريق الضيق الذى  
يسلكه فى ذاكرته ، ستطبعه الإثارة التى يدين بها للأماكن الجديدة والأفعال اللامعتة  
والأحاديث الأخيرة ، ولحظات الوداع تحت المصباح الغريب الذى لا يزال  
يقضى أثره فى صمت الليل ، وحلاوة العود القريب .

سندت وجنتي فى حنان على وجنتي الوسادة الجميلتين ، الملتئمتين ، النصرتين  
التان تشبهان وجنات طفولتنا . وأشعلت عوداً من اللقاب لأنظر إلى ساعتي .  
سيستصف الليل بعد قليل . إنها اللحظة التى ايقظت فيها الأرملة المريض الذى اضطر  
إلى السفر والنوم فى فندق مجهول ، اللحظة التى فرح فيها عندما لمح شريطاً من النور  
تحت الباب . يا للمساعدة ! إنه الصباح : سيستيقظ الخدم بعد لحظة ، سيستطيع أن يلق  
الجرس ، وستأتى إليه النجدة . والأمل فى الراحة يعطيه الشجاعة التى تمنحه على الألم  
خيال إليه بالذات أنه سمع وقع خطوات تقترب ، ثم تبعد . وأخفى شريط النور الذى  
كان تحت بابيه . إنه منتصف الليل . أطفئ للمصباح نوا ، وذهب أكثر خادماً ، ولا بد  
من قضاء الليل كله مع الأم ، بلا دواء .

عاودت النوم . أحياناً : كنت لا أستيقظ إلا لفترات قصيرة لا تتجاوز اللحظة التي تكفي لكي اسمع صرير خشب الجدران العنقوى ، وأفتح العينين ، وأنبههما على مشاكل الظلام ، ولكي أتذوق ، بفضل ومضة مؤقنة من الوعي : النوم الذي استغرق فيه قطع الأثاث ، والغرفة ، واستغرق فيه كل شيء ، ولم أكن سوى جزءاً صغيراً منه ، وسرعان ما كنت أعود إلى الاتحاد ذاتياً مع عدم إحساسه . وأحياناً ، كنت التي بلا جهد ، وأنا نائم ، بشئ مضى إلى الأبد من حياتي الأولى ، وأعثر ثانية على مخاوف طفولي ، كخوف من أن يشلني عمى الأكبر من خصلات شعري ، وتبدد هذا الخوف — كان ذلك اليوم بداية عهد جديد بالنسبة لي — يوم أن قصوا لي شعري . كنت قد نسيت هذا الحادث أثناء نومي ، لكنني وجدت ذكراه مرة أخرى ، حالما توصلت إلى اللحظة لكي أفلت من يدى عمى الأكبر . وعلى سبيل الاحتياط ، كنت أعني رأسى تماماً تحت الوسادة قبل أن أعود إلى عالم الأحلام .

وكذا ولدت حواء من ضلع آدم ، كانت تولد امرأة أحياناً ، أثناء نومي ، نتيجة لوضع خاطئ لفخذى . ولأنها كانت مكونة من اللذة التي أوشك أن أتذوقها ، كنت أغفل أنها هي التي تمتع لي تلك اللذة . كان جسدى الذى بشر بدفته هو في جسدها يريد أن يلتقي به . وعندما كنت أستيقظ ، كان باقى البشر يسو لي بعيداً جداً وأنا بجوار هذه المرأة التي فارقها من لحظات فقط . كانت وجعني لا تزال تحمل دفئ قبلتها ، وكان جسدى لا يزال مائلاً تحت ثقل قامها . وإذا اتخذت ، كما كان يحدث أحياناً ، ملامح امرأة عرقها في الحياة ، وهيت نفسي كلية لهدف لقائها ، كؤلئك الذين يسافرون ليروا بأعينهم مدينة منشودة ، ويتخيلون أن المرء يستطيع أن يتذوق بحر الحلم ، في عالم الواقع . لكن ذكرى تلك المرأة كانت تتلاشى شيئاً فشيئاً ، وكنت أنسى فتاة أحلامي .

يحيط بالإنسان النائم كل من دائرة الساعات ، وترتيب السنين والعوامل . وهو ينظر إليهما غريزياً عندما يستيقظ ، ويجد فهما في لحظة المكان الذى يشغله من الأرض والوقت الذى انقضى حتى استيقاظه ، إلا أن صفوها قد تختلط أو تفرق . وإذا فاجأه النعاس وهو يقرأ ، في الصباح تقريباً ، بعد شئ من الأرق ، وهو في وضع مختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى ينام فيه عادة — يكنى أن يرفع ذراعه لكي يوقف الشمس ويعملها على التراجع — أدرك في اللحظة الأولى من يقظته أنه لا يعرف الوقت وأنه لم يم إلا منذ قليل . وإذا غلبه النعاس وهو في وضع أكثر اختلافاً أو

أخرجوا عن المألوف ، كأن يكون جالساً في فوتيل بعد العشاء ، أصبح الاضطراب تاماً في العوالم التي فقدت محورها وجعله الفوتيل السحري يسافر بأقصى سرعة في الزمان والمكان ، وظن في اللحظة التي يفتح فيها عينيه أنه نام قبل ذلك ببضعة شهور في بلد آخر. لكن ، كان يكنى أن أنام نوماً عميقاً في سريري . وأن يرتاح ذهني تماماً لكي يطلق هذا الأخير سراح المكان الذي نعت فيه. وعندما كنت أستيقظ في وسط الليل ، كنت لا أعرف لأول وهلة من أنا ، لأنني أجهل أين أنا . كل ما هنالك أنني كنت أشعر شعوراً بسيطاً بالوجود . كذلك الذي ينبض في أعماق الحيوان . كنت أكثر قرراً من أهل الكهف . عتذرت . كانت الذكرى — لا ذكرى المكان الذي أوجد فيه ، وإنما ذكرى بعض الأماكن التي سكنت فيها ، يمكن أن أوجد فيها — تأتي إلى كالنجدة القادمة من أعلى لتخرجني من العدم ، وما كان يمكن أن أخرج منه بمفردي . كنت أمر في لحظة فوق قرون من الحضارة وكانت الصور العالمة التي ألحها ، صور مصابيح الغاز ، والقمصان ذات الياقات المقلوبة ، تعيد تدريجياً سمات ذاتي المتكررة .

ربما كان ثبات الأشياء حولنا مفروضاً عليها لتأكلنا من أنها هي، ولا أشياء أخرى ، ولتثبت تفكيرنا أمامها . أيا كان الأمر ، عندما كنت أستيقظ على هذا النحو ويسعي ذهني إلى معرفة المكان الذي أوجد فيه ولا ينتج في سمعاه ، كنت أرى أن كل شيء يدور حولي في الظلام ، الأشياء ، والبلاد ، والسين . كان جسدي المخدر بحيث لا يستطيع الحركة ، يبحث ، حسب نوع تعب ، عن وضع أطرافه ، ليستريح منه إتجاه الحائط ، ومكان الأثاث ، ويبقى من جديد المسكن الذي يوجد فيه ويسميه . وكانت ذاكرة جسدي ، ذاكرة ضلوعه ، وركبته ، وكتفيه ، تقدم له على التوالي عديداً من الغرف التي نام فيها ، بينما تغير الجدران التي لا ترى مكانها حسب شكل الغرفة للتخيلة ، وترسم دوامات في الظلام . وقبل أن يصرف فكري للتردد عند عتبة الأزمنة والأشكال على المسكن ، بتقريبه بين الظروف ، كان جسدي يتذكر ، فيها يتعلق بكل مسكن ، نوع السرير ، ومكان الأبواب ، وضوء النوافذ ، ووجود أحد الممرات ، مع الفكرة التي خطرت لي وأنا نائم فيه ووجدتها عندما استيقظت . كان جنبي المخدر يبحث عن اتجاهه ، ويتخيل نفسه ، مثلاً ، ممدداً أمام الحائط في سرير كبير ذي قبة ، وكنت أقول لنفسى توما : ماذا؟ لقد نمت في نهاية الأمر ، مع أن أبي لم تحضر لي تقول لي «مساء الخير» . كنت في الريف عند جدتي الذي مات من سنين ،

وكان جسدنى والجنب الذى أرقد عليه حارسين أمينين لماض يجب ألا ينساه ذهنى أبداً ، ويذكرانى بشعلة المصباح المنصوع من زجاج بوهيميا ، وهو على شكل جرة معلقة فى السقف بسلاسل صغيرة - والمدفأة المصنوعة من مرمر سين فى غرفة نوى فى كومبريه ، عند جدنى وجدتى ، يذكرانى بأيام بعيدة أخلها حالية فى هذه اللحظة بدون أن أحدد شكلها بالضبط . ولسوف أرادنا بعين أفضل بعد قليل ، عندما استيقظ تماماً .

ثم كانت تبعث ذكرى وضع جديد وكان الحائط يولى فى اتجاه آخر : كنت فى غرفى عند مدام دى سان لو ، فى الريف . ياللى ! الساعة الآن العاشرة على الأقل ، ولا بد أنهم إتهوا من تناول العشاء : لا شك أننى أطلت فترة الراحة التى أنهم بها كل مساء ، بعد عودتى من الترحمة مع مدام دى سان لو ، قبل أن أرتدى بدلتى . مضت أيام طويلة على أيام كومبريه حيث كنت أرى على زجاج نافذتى إنعكاسات الغروب الحمراء ، عندما كنا نعود متأخرين . والحياة فى تونسوقيل ، عند مدام دى سان لو ، حياة من نوع آخر يجد فيها المرء نوعاً آخر من المتعة ، متعة الخروج فى الليل فقط ، والسير على ضوء القمر فى الطرقات التى كنت ألعب فيها فى الشمس فيما مضى . وألعب من بعيد الغرفة التى نمت فيها بلداً من أن أرتدى ملابسى للعشاء ، ألحها عبر نيران المصباح عندما نعود ، وهى القنار الوحيد فى الليل .

كانت هذه الذكريات الدوارة المبهمة لا تلوم إلا بضع ثوان . وكثيراً ما كان شكى لفترة قصيرة فى المكان الذى أوجد فيه لا يفرق بين مختلف الإقراضات المكونة له ، كما لا يفرق ، عندما نرى جواداً يعلو ، بين الأوضاع للتالية التى يقدمها لنا الكيتسكوب . لكنى رأيت تارة هذه الغرفة التى سكنتها فى حياى ، وتارة تلك ، وكنت فى النهاية أتذكر كل الغرف فى الأحلام الطويلة التى تلى يقظتى : غرف شتوية يمس المرء فيها ، عندما ينام ، رأسه فى عشب ينسجه من أكثر الأشياء تنافراً ، ركن من الوسادة ، أو الجزء العلوى من الأغشية ، أو طرف الشال ، أو حافة السرير أو عدد من جريدة « لى ديبا روز » ويلصق المرء بعض هذه الأشياء ببعضها الآخر وفقاً لتكنيك الطيور ، ويستند إليها إلى مالا نهاية ، غرف يتذوق المرء فيها ، فى أيام الصقيع ، متعة الإحساس بالانفصال عن الخارج (مثل خطاف البحر الذى يبنى عشه فى أعماق الأرض الدافئة) ، وتبقى النار مشتعلة فيها ، فى المدفأة ، طول الليل ، مما يجعل المرء

ينام في معطف كبير من الهواء الحار المدخن ، تمر من خلاله ومضات الحمر المشتعلة كأنه مخدع غير محسوس ، أو مغارة داخلة محفورة داخل الغرفة ذاتها ، أو منطقة جارة متحركة داخل حدودها الحرارية . هواؤها أنفاس تنعش وجوها وتأتى من الزوايا أو الأجزاء المجاورة للنافذة ، أو البعيدة عن المدفأة التي عادت إليها البرودة — غرف صيفية يحب للمرء أن يتحد فيها مع الليل الدافئ ، ويلقى فيها ضوء القمر المستند إلى « الشيش » المنفرج يسلمه المسحور حتى أسفل السرير ، وينام المرء فيها في الهواء الطلق تقريبا ، كأنه قريبا تأرجحه النسمة في طرف شعاع ، وأحيانا غرفة ترجع إلى عصر أوديس السادس عشر ، مرحلة المظهر بحيث لم أشعر فيها بالشقاء كثيرا ، في الليلة الأولى ، وكانت الأعمدة الصغيرة التي تسد السقف قليلا تنفرج في بحر ودلال لتشير إلى مكان السرير وتمجزه له — وأحيانا ، على عكس ذلك ، غرفة صغيرة عالية السقف محفورة على شكل هرم في إرتفاع طابقين ، يكسوها خشب الأكاجو جزئيا ، وختمتني فيها معنويا ، من أول لحظة ، رائحة النجيل الهندى المجهولة ، واقتنمت فيها بعداء السائر النفسجية ووقاحة الساعة التي لا تبالى ، وتثرثر بصوت عال ، وكأننى غير موجود ، وكانت امرأة غريبة لا ترحم ذات أرجل رباعية الزوايا تقطع بميل لإحدى زوايا الغرفة وتحفر لنفسها في إمتلاء حقلى البصرى المعتاد مكانا لم أتوقعه . كان فكرى الذى حاول على مدى ساعات عدة أن يتحطل ، ويمط نفسه إلى أعلى لكي يتخذ شكل الغرفة بالضبط ويتوصل إلى ملئ قمعها العملاق إلى أعلاه ، قد تألم كثيرا في اللبالي القاسية ، بينما كنت ممددا على سريري ، مرفوع العينين ، قلق الأذن ، جامع الأنف ، مضطرب القلب إلى أن غيرت العادة لون الستائر ، وأسكت الساعة ، وعلمت المرأة المائلة القاسية الرحمة ، وأخفت ، إن لم تكن قد طردت تماما رائحة النجيل الهندى ، وقللت من إرتفاع السقف الظاهرى بالذات . العادة : العادة منظملة ماهرة ، لكنها بطيئة للغاية . فهمى في البداية لدع فكرنا يتألم أسابيع طويلة في مكان مؤقت نسعد بالعثور عليه رغم كل شيء ، لأن الفكر ، إذا لم تصحبه العادة واقتصر على وسائله الخاصة وحدها ، قد يعجز عن إقتناعنا بالسكن في أى مكان .

طبعاً ، كنت مستيقظا تماما الآن ، كان جسمى قد غير إنجازه مرة أخيرة ، وكان ملاك البقين قد أوقف كل شيء حولى ، ومددنى تحت أعطينى في غرفتى ، ووضع صوائى ، ومكتبى ، ومدفأتى ، والنافذة المطلة على الشارع والبابين في مكانهم بالتقريب في الظلمة . كانت ذاكرتى قد تحركت ، رغم أننى أعلم أننى لست في المساكن التي أعطاني جهل بها ، عندما إستيقظت في لحظة ، صورة واضحة عنها ، أو أقتنى على

الأقل باحتمال وجودها . كنت لا أحاول عادة أن أعاود النوم في الحال ، بل أقضى الجزء الأكبر من الليل في ذكر حياتنا الماضية في كومبريه ، عند عمى الكبرى ، وفي بليك ، وباريس ، ودونسير ، وفينيسيا ، وأماكن أخرى أيضا ، كنت أذكر الأماكن والأشخاص الذين عرفتهم فيها ، وما بدر منهم ، وما قيل لي عنهم .

في كومبريه ، كانت غرفة نومي تصبح مرة أخرى محور قلبي الثابت الأليم ، كل يوم ، في آخر فترة بعد الظهر ، قبل أن تحين اللحظة التي يجب أن آوى فيها إلى فراشي بكثير ، وأبتعد فيها عن أي وجلدي . وكانوا قد اخترعوا لتسليقي في الليالي التي يرون فيها أنني في غاية الشقاء ، فكرة إعطائي فانوس يحرق يوضع فوق مصباحي ، في إنتظار ساعة العشاء . وعلى غرار المعارين الأوائل وأساتذة رسم الزجاجيات في العصر العوطي ، كان الفانوس يستبدل ظل الجدران الكثيف بألوان غير محسوسة من ألوان قوس قزح ، وروى غريبة متعددة الألوان ، تصور أساطير مصورة على زجاجية موقفة مترنحة . لكن هذا كان يزيد من خوفي ، لأن مجرد تغيير الإضاءة كان يقضى على تعودي على غرفتي التي أصبحت محتملة في نظري بفضل هذه الإضاءة ، هذا فيما عدا عذاب النوم طبعاً . والآن ، أصبحت لا أعرفها وأشعر فيها بالقلق ، وكأنني في غرفة فندق أو شاليه وصلت إليه لأول مرة ، بعد نزولي من القطار .

خرج جولو ، وسار على وقع خطى جواده المسرعة ، ساعيا إلى غاية بغنيضة خرج من الغابة الثلاثة الصغيرة التي تكسو منحدر التل بلون أخضر قاتم . وتقدم وهو يتنفض نحو قصر جنيفيف دي برايون للمسكينة . وكان يقطع هذا القصر خط مائل لم يكن سوى حد قطعة زجاج بيضاوية في الإطار من تلك القطع التي تمر بين مزاليج المصباح . لم يكن القصر سوى قطعة من القصر ، وكان أمامه أرض براح تحلم فيها جنيفيف وحول خصرها حزام أزرق . كان القصر والأرض البراح صفراوين ، ولم أذكر رويتهما لأتينا لونهما ، لأن رنة اسم برايون الذهبية كانت قد أوضحت لي ، قبل أن يوضح لي زجاج الإطار . توقفت جولو لحظة ليستمع في حزن إلى الكلام المنمق الذي تقروءه عمى الكبرى بصوت عال ، وفهمه جيدا فيما يبدو ، وكيف موقفه مع إرشادات النص ، بطاعة لا تخلو من شيء من الحلال . ما من شيء كان يمكن أن يوقف ركض جواده البطيء . إذا تحرك المصباح ، رأيت جواد جولو يواصل تقدمه على سائر النافذة ، وينفخ ثناياها ، ويهبط إلى فتحاتها . وكان جسد جولو ذاته من مادة خارقة



للطبيعة كالجواريح الذى يمتلئ صوته، كان يتخطى أى عقبة مادية أو أى شيء يعوق سبيله بالتخاذد إياه هيكلا وجعله شيئا داخليا بالنسبة له ، حتى لو كان ذلك الشيء مقبض الباب الذى يتكيف معه فى الحال ، ويسبح فوقه ثوبه الأحمر أو وجهه الشاحب الذى يحفظ دائما بذنبه وحزنه ، ولا يبدو أى اضطراب إزاء تحلل الظلال على هذا النحو .

كانت هذه العروض البراقة المنبثقة من ماضي ميروفتجيانى ، فيما يبدو ، تسحرنى بطبيعة الحال ، وتسير حولى إنعكاسات تاريخ قديم للغاية . لكننى لا أستطيع أن أقول أى ضيق كان يسببه لى دخول الغموض والحمال بهذه الطريقة المفاجئة إلى غرفة إنيت إلى ملها بدائق ، للدرجة أننى لم أعد ألتفت إليها أو إلى ذاتى . وبعد أن توقفت تأثير العادة المخدر ، كنت أخذ فى التفكير والإحساس ، وهى أمور محزنة للغاية . مقبض باب حجرى هذا ، المختلف فى نظرى عن كل مقابض أبواب العالم ، لأنه كان يفتح تلقائيا فيما يبدو بدون أن أحتاج إلى الضغط عليه ، لأن إمسأكى به كان قد أصبح لا شعوريا ، قد أصبح جسما نجما لجولو ، وحالما كان يدق جرس المشاء ، كنت أتجمل اللهاب إلى غرفة الطعام ، حيث لا يعرف للمصباح الكبير المعلق جولو وذى اللحية الزرقاء ، بل يعرف والذى وطبق اللحم ، ويشيع نوره ككل مساء ، وأتمجل الارتقاء بين ذراعى أمى ، التى تضاعف مآسى جنيفيف دى برابون من حبي لها ، بينما تحملنى جرائم جولو على محاسبة نفسى بمزيد من الشدة .

للأسف، كنت أضطر إلى الإفتراق عن والدتى بعد تناول المشاء مباشرة ، وتواصل هى حديثها مع الآخرين ، فى الحديقة إذا كان الجو جميلا ، أو فى الصالون الصغير الذى يلجأ إليه الجميع إذا كانت الحالة الجوية سيئة ، فيما عدا جدتى التى كانت ترى أن « بقاء المرء فى الداخل ، إذا كان فى الريف ، أمر يدعو إلى الإشتاق » ، ولا تكف عن مناقشة أبى ، فى الأيام التى يسقط فيها المطر بغزارة ، لأنه كان يطلب منى أن أذهب وأقرأ فى غرفى بدلا من البقاء فى الخارج . كانت تقول له فى أمسى : « لن نجعل من هذا الصغير إنسانا نشطا وقويا ، باتباعك هذا الأسلوب ، خاصة أنه فى حاجة ماسة لمزيد من القوة والإرادة » وكان أبى يهز كتفيه ، ويفحص البارومتر ، لأنه يحب الأرصاد الجوية ، بينما تحاول أمى ألا تحدث صوتا كى لا تضايقه ، وتنتظر إليه باحترام حنون ، ولا تكثر من تثبيت نظراتها عليه كى لا تحاول أن تفهم سر تفوقه . لكن جدتى كانت ترى فى كافة الأحوال ، وحتى عندما كان المطر ينهمر وكانت فرانسواز تدخل بسرعة مقاعد الخيزران الثمينة حتى لا تبتل ، وهى تسير فى الحديقة الخالية التى

يضر بها السيل بسياطه ، وترفع خصللات شعرها الرمادية للبعثرة ليتشبع بجيئها أكثر بالرياح والمطر الصحي ، كانت تقول : تنفسنا أخيراً ، وتجنّب المرات المبتلة — كان البستاني الجديد الذي يفتقر إلى الإحساس بالطبيعة قد رسم خطوطها بطريقة متساوية حسب هواء ، وكان أبي قدسأله منذ الصباح عما إذا كان البحر سيتحسن — بخطواتها الصغيرة التحمسة المتلاحقة التي تنظمها الحركات المختلفة التي تثيرها في نفسها نشوى العاصفة ، وقوة الصحة ، وحفاة تربيته ، ورسومات الحديقة المتساوية ، أكثر مما تنظمها رغبة لا تعرفها في حماية تنويرها البرقوقية من بقع الطين التي كانت تختفي تحتها حتى إرتفاع كان دائماً مشكلة ومدعاة ليأس وصيفتها .

كان هناك شيء واحد يستطيع إعادة جدي إلى داخل المنزل ، أثناء قيامها بجولاتها هذه بعد العشاء : هو أن تقول لها عمي الكبرى — في إحدى اللحظات التي تعيدها فيها نزهتها بطريقة دورية ، كما لو كانت حشرة ، أمام أضواء الصالون الصغير الذي تقدم فيه المشروبات على مائدة اللعب — : « ماتيلدا ! تعالى وامني زوجك من شرب الكونياك ! » وبالفعل ، كانت عمي الكبرى ، لكي تداعبها ( كانت جدي قد آثت إلى أسرة والدي بروح مختلفة للدرجة أن الجميع كانوا يمزحون معها ويداعبونها ) تقدم لجدي بقع قطرات من الخمر ، لأنه كان ممنوعاً من شربه . كانت جدي المسكينة تلتخل ، وتتمسك إلى زوجها بجمرة ألا يلدق الكونياك ، وكان يغضب ، ويرشف مع ذلك رشفة ، بينما تعود جدي ادراجها ، حزينة ، يائسة ، ومبتهمة مع ذلك ، لأنها كانت من الرقة والتواضع بحيث يتصالح حبها للآخرين مع عدم إكترائها بشخصها هي وآلامها هي ، يته الخان في ابتسامته خلّت من السخرية ، اللهم إلا السخرية بنفسها ، على عكس ما نرى في وجه كبير من البشر ؛ وكانت ابتسامتها هذه أشبه بقيلة توجهها لنا جميعاً بعينها الماثان لاستطيعان رؤية من نجيم بدون أن تداعبهم بوله . كان هذا العذاب الذي يفرضه عمي الكبرى على جدي ، ومرأى توصلات جدي العابثة وضغطها ، جدي للمهزومة سلفاً التي تحاول بلا جدوى أن تأخذ كأس للشراب من جدي ، من الأشياء التي اعتاد المرء رؤيتها فيما بعد إلى حد النظر إليها وهو يضحك ، والتحيز المضطهد بحزم ومرح بحيث يقنع نفسه بأن الأمر لا يتعلق بالاضطهاد قط : إلا أن هذا كان يولد في قدأ من الكراهية يجعلني أتمنى أن أضرب عمي الكبرى . لكن ، حالما كنت أسمع عارة : « ماتيلدا ! تعالى وامني زوجك من شرب الكونياك ! » — وكنت قد أصبحت رجلاً من حيث الحب — كنت أفعل ما فعله جميعاً عندما نصبر كباراً ، ونجد أماننا ألاماً وظلماً :

كنت أرفض أن أراهم ، وأصعد لأنتحب في أعلى المتزل ، بجوار قاعة الاستدكار ، تحت السطح ، في غرفة صغيرة تفوح منها رائحة السوسن وتطررها رائحة كشمشة بوية نبت في الخارج بين أحجار الحائط ، وتمرر فرعاً من فروعها المشملة بالزهور حبر النافذة المنفرجة . كانت هذه الغرفة مخصصة لاستقبال عادي خاص ، وترى منها أثناء النهار مسافة تبصل إلى روسانفيل إلى بان ، وكثيراً ما جلست منها ملجأ لي ، لأنها كانت بلا شك الغرفة الوحيدة التي يسمح لي بغلقها بالمفتاح ، أثناء انشغالي بما يتطلب عزلة لا يذنب انتهاكها : القراءة والحلم ، والبكاء ، واللذة . لكن ، وأساءه ! ! لم أكن أعرف أن انتقاري إلى الإرادة ، وضعف صحتي ، والشك فيما يعد من مشروعات مستقبلية ، كانوا يشغلون بال جلدي أكثر مما يشغله عدم إتيان زوجها للرجيم ، أثناء نزهتها المستمرة بعد الظهر وفي المساء . كان وجهها الجميل ذو الوجنتين السماوين ذات الأخاديد اللتان أصبحتا ينفسجتين كالأراضي المحروقة في الحريف مع مرور سنّي العمر ، يمر ويعاود المرور في خط مائل وهو مرفوع إلى السماء . وكان يغطي وجنتيها ، إذا خرجت ، خمار خفيف مرفوع إلى منتصفه ، وترى عليهما دائماً دمة لارادية تحيف ، أتى بها البرد أو أنت بها فكرة حزينة .

كان عزائي الوحيد ، عندما أصعد للنوم ، مجيء أي لتقبيلي عندما آوي إلى فراشي . لكن قبلة المساء هذه كانت من القصر ، وكان نزول أي من السرعة بحيث كانت اللحظة التي أسمع فيها صمودها ، ثم صوت ثوبها في الممر ذى الباب المزدوج ، ثوبها الخفيف المصنوع من كلوسيلن الأزرق الذي كانت ترتديه في الحديقة ، ويتدل منه شريط صغير من القش المجدول ، لحظة أليمة بالنسبة لي . كانت هذه اللحظة تعلن عن التي ستلها ، وتركني فيها أي وتبسط الدرج . لذا ، كنت أتمنى أن تأتي قبلة المساء هذه التي أحبا كثيراً في لحظة متأخرة ما أمكن ، وأن تمتد فترة الإنتظار التي تسبق مجيء أي . وأحياناً ، عندما كانت أي تفتح بابي لكي تلعب ، بعد تقبيلي ، كنت أود أن أنادىها وأقول لها : « قيلي مرة أخرى » . لكنني كنت أعلم أن وجهها سيفضض فوراً ، لأن تساعها متى إزاء - زنى واضطرابي ، وصمودها لتقبيلي ، وإتيانها بقبلة السلام هذه ، كانت أموراً تضايق والذي الذي يرى فيها طقوساً سخيفة ، كان يودها أن تحاول إقناعي عادة حاجتي إليها ، بدلا من أن تعودني على أن أطلب منها قبلة أخرى ، بعد أن تكون قد وصلت إلى عتبة الباب . وكانت روثي فلما وهي غاضبة تهلم المكينة التي أت بها إلى قبل ذلك بالحقة ، عندما مالت بوجهها الحبيب على فراشي ، ومدته لي كقربان سلام تستمد منه شغلتاي حف وروها الحقيق والقدرة على النوم . لكن هذه الأمسيات التي كانت أي تبقى خلالها فترة قصيرة في

غرفتي ، كانت أمسيات حلوة بالقياس إلى تلك التي يدعى فيها بعض الضيوف إلى تناول العشاء عندنا ، وكان هذا بمنها من الصعود لتقبلي قبلة المساء. كان هؤلاء الضيوف يقتصرون عادة على مسيو سوان ، الذي كان ، فياعداً بعض الغرباء هابري السبيل ، الشخص الوحيد تقريباً الذي يزورنا أحياناً في كوميته لتناول العشاء ، بوصفه جارك لنا (كان حضوره قد أصبح نادراً منذ أن عقد هذه الزيجة للشينة ، لأن والدتي كانا لا يريدان استقبال زوجته ) ، أو يزورنا أحياناً بعد العشاء بلا سابق انذار . وفي الأمسيات التي كنا نجلس فيها أمام البيت ، تحت شجرة الكستناء الكبيرة ، حول اللائلة الحديدية ، كنا نسمع في طرف الحديقة ، لا إلى الحديقة الصاخبة التي تغمر أي شخص في البيت ينهرها بدخوله بدون « أن يدق الجرس » ، وتصييه بالدوار عند مرور صوتها الحديدى البارد الذي لا ينضب معينه ، وإنما نسمع الرنة الذهبية البيضاء للحجولة التي تنبعث من الجرس الصغير الخاص بالأغراب . عندئذ ، كان الجميع يتساءلون توأ : « زيارة ؟ من عساه يكون ؟ » لكن الجميع كانوا يعلمون علم اليقين أن القادم ليس سوى مسيو سوان . كانت عمى الكبرى تتكلم بصوت عال ، لكي تكون مثلاً محتذى ، وبلهجة تحاول أن تجعلها طبيعية ، تقول إنه يجب ألا تبتمس على هذا النحو ، وإن مامن شيء يسيء إلى الشخص القادم من الخارج كاعتقاده أن الآخرين يقولون أشياء لا يريدون أن يسموها . كانت جدتي نرسل للاستطلاع ، وكانت تسعد دائماً إذا ما وجدت حجة لتقوم بجولة أخرى في الحديقة ، وتنهز الفرصة لتندزع خلصة . وهي مارة ، بعضاً من دعاءات شجر الورد لكي تعيد إليها شيئاً من طبيعتها ، وكانها تمرر يدها على شعر ابنها الذي بالغ الحلاق في تصفيفه حتى بانفش .

كنا ننتظر اختيار العدو التي ستاتي بها جدتي بعد قليل ، وكأنه يمكن الردد بين عدد كبير من المهاجمين . وسرعان ما كان يقول جدتي : « عرفت صوت سوان . كان سوان لا يعرف بالفعل إلا من صوته ، كان المرء لا يحسن تمييز وجهه ذ الأنف المعقوف ، والعينين الخضراوين ، تحت جبين عال يحيط به شعر أشقر يكاد يكون أحمرأ مصفف على طريقة بريسون ، لأننا كنا نفضي الحديقة أقل مما يمكن لكي لا تجلب الباعرض . وكنت أذهب ، بدون أن يبدو على ذلك ، لأقتل الأمر بالحضار الشراب . وكانت جدتي تحرص كثيراً على ألا يبدو الشراب كشئ يقدم بصفة إستثنائية ، ولزوار فقط ، كان مسيو سوان على علاقة وثيقة بجدتي ، رغم أنه أصغر منه بكثير ، فلقد كان جدتي أقرب أصدقائه والده ، وكان هذا الأخير رجلاً ممتازاً ، لكنه غريب الأطوار . أحياناً ، كان يكتفى شئ لا يذكر ، فيها يبدو ،

لإيقاف انطلاقات قلبه وتغيير مجرى أفكاره . وسمعت جدى يروى عدة مرات في السنة ، أثناء تناولنا الطعام ، نكاتاً لا تتغير عن الموقف الذى اتخذه مسيو سوان الأب عندما ماتت زوجته التى سهر إلى جوارها ليل نهار . كان جدى الذى لم يره من مدة طويلة قد ذهب مسرعاً إلى الضيعة التى يملكها آل سوان فى ضواحي كومبريه ليكون إلى جواره ، وتوصل إلى إبعاده لحظة عن غرفة الميتة ، وهو غارق فى البكاء ، لئلا يشهد وضمها فى التابوت. وخطا الإثنين بضع خطوات فى الحديقة ، حيث كان قليل من الشمس . وفجأة ، صاح مسيو سوان وهو يمسك بلنراع جدى : « آه ، يا صديق العزيز يا بهاء من سعادة أن تنزه معاً فى هذا الجو الجميل ، ألا ترى أن هذا شئٌ جميل ؟ كل هذه الأشجار ، وهذا الزعرور ، وعجرتى التى لم نمتدحها أبداً ؟ إنك تبدو مكتئباً ! ألا تشعر بهذه النسمة الرقيقة ؟ آه ، باعزى أُميدبه ! الحياة حلوة ، مهما قيل عنها ! » وفجأة ، عادت إليه ذكرى زوجته المتوفاة . ولا شك أنه وجد أن البحث عن السبب الذى جعله يسلم نفسه للفرح فى لحظة كهذه أمر معقد للغاية ، لما كنتى بتمرير يده على جنبه ، وفرك عينيه ، ومسح زجاج نظارته ، بحركة مألوفة تصدر عنه فى كل مرة يعن فيها لفكره موضوع صعب . لم يستطع مع ذلك أن يتغذى لرفاة زوجته ، وكان يقول لجدى خلال العامين اللذين عاشهما بعدها ، « إنه لأمر غريب ! كثيراً ما أفكر فى زوجتى المسكينة ، لكنى فى الوقت نفسه لا أستطيع أن أفكر فيها كثيراً . » وكانت عبارة « كثيراً ، على حد قول سوان الأب للمسكين ، قد أصبحت من العبارات المفضلة عند جدى التى يذكرها إذا تحدث عن أشياء متباينة للغاية . كان يمكن أن أرى فى سوان الأب وحشاً ، لولا أن جدى صاح قائلاً : « كيف ؟ لقد كان له قلب من ذهب » ، وكنت اعتبر جدى أفضل حكم ، وكانت أحكامه مبرجة كثيراً ما استخدمته فيما بعد لفقران أخطاء كنت ميالاً إلى إدانتها .

ظل سوان الإبن يأتى إلى كومبريه ، لسنوات عديدة ، لاسيا قبل زواجه ، لزيارة حتى الكبرى وجدى وجدتى . ولم يخطر على بال هؤلاء أنه لم يعد يعيش فى المجتمع الذى اخططت به أسرته ، وأنهم يستقبلون فى دارهم تحت هذا الاسم للستار ، «سوان» ، الذى اتخذه عندنا ، — براءة أصحاب الفنادق الشرفاء الذى يوجد عندهم قاطع طريق شهيراً ، ولا يدرون عن أمره شيئاً — واحداً من أكثر أعضاء الجوى — كلوب ثاقباً ، وصديقاً أثيراً لدى الكونت دى باريس وأمير ويلز ، وأحد أفراد المجتمع الرقيق للبلبلين فى سان جيرمان .

كان جهلنا بهذه الحياة الإجتماعية البراقة التى يحياها سوان يرجع جزئياً ،

بطبيعة الحال ، إلى تحفظه وميله الطبيعي إلى التكميم ، ويرجع أيضا إلى أن البورجوازيين كانوا آنذاك قد كونوا فكرة « هندوسية » بعض الشيء عن المجتمع ، وكانوا يعتبرونه مكوناً من طبقات مغلقة ويوضع فيها كل فرد ، منذ ميلاده ، في الطبقة التي وضع فيها والده ، ولا يمكن أن يخرج منها شيء ويدخله في طبقة أعلى ، إلا إذا هيأت له الصلقة حياة فريدة من نوعها أو زواجاً لم يتوقه . كان مسيو سوان الأب ممسكاً في الأوراق المالية ، ووجد سوان الابن نفسه لدى الحياة في طبقة تتراوح فيها الثروات وكأنها فئة من الممولين ، بين هذا العائد وذلك . كنا نعرف أسماء من خالطهم والده ونعرف بالتالي أسماء من خالطهم هو ، والأشخاص الذي يمكن أن يصادقهم بحكم « موقعه » . وإذا عرف أناساً غيرهم ، فهم أناس كان على علاقة بهم وهو شاب ، ويظهر أصدقاء أسرته القدامى ، من أمثال والدي ، بعدم معرفتهم عن طيب خاطر ، خاصة أنه ظل يأتي مخلصاً لزيارتنا بعد أن أصبح يتيم . لكن ، من المؤكد أن هؤلاء الناس الذين لا نعرفهم وكان يراهم هو كانوا من أولئك الذين لا يجرؤ على تحييم إذا التقي بهم وهو معنا . وإذا أردنا أن نطبق على سوان بأي ثمن معاملة اجتماعية شخصياً ، ينسحب على أبناء السامرة الآخرين الذي يتساوى وضعهم مع وضع والديه ، لكان هذا المعامل أقل بالنسبة له ، لأنه كان يسكن الآن فندقاً قديماً يكلس فيه مجموعاته ، نظراً لسلوكه البسيط للغاية ، « ولعله » الدائم بالآتياء القديمة والرسم وكانت جلتى تعلم بزيارته ، لولا أن الفندق كان يقع في حي دورليون ، وهو حي ترى عمى الكبرى أن السكن فيه أمر مشين . وكانت عمى الكبرى تقول له : « هل أنت خبير في هذا المجال ؟ أسألك عن هذا المصلحتك ، لأن الباعة يلتمسون لك لوحات رديئة بلا شك » . بالفعل ، لم تكن نفترض أنه كف بأى حال من الأحوال ، ولا تقدر كثيراً ، من اللاتحية الثقافية ، رجلاً يتجنب الموضوعات الجادة في الحديث ، ويبدى دقة عادية للغاية ، لا فقط عندما يعطينا صفات للطهى ويدخل في أدق التفاصيل ، وإنما أيضاً عندما نتحدث أشتى جلتى عن بعض الموضوعات الفنية . وعندما كن يثرنه ليبدى رأيه ويحبر عن إعجابه بأحدى اللوحات ، كان يلزم صمتاً يكاد يكون فيه شيء من الجفاء ، ويتدارك الأمر ، على عكس ذلك ، إذا استطاع أن يقدم معلومة <sup>مهمة</sup> مادية عن المتحف الذي توجد فيه اللوحة سالفة الذكر ، والتاريخ الذي رسمت فيه . وكان يكفى عادةً بتسليتنا ، ويروى لنا في كل مرة قصة جديدة عاشها لثوه مع أناس اختارهم من بين الأشخاص الذين نعرفهم ، صيلبي كومبريه ، أو طلاهيتنا ، أو الخوذى الذي يعمل عندنا ، على سبيل المثال . كانت هذه الروايات تضحك عمى الكبرى بطبيعة الحال ، لكن يدون أن تتبين جيداً ما إذا كانت تضحك لأن سوان

اعطى لنفسه دوراً سخيفاً في هذه القصص ، أم لأنه يرونها بطريقة طريفة : « إنك شخصية رائعة حقاً ، يامسيو سوان » وبما أنها كانت للشخص الوحيد المبتدل إلى حد ما في أسرنا ، كانت تحرص على أن يلاحظ الغرباء ، إذا جرى الحديث عن مسيو سوان ، أنه يستطيع أن يسكن في بولفار هوسبان أو شارع الأوبرا ، إذا شاء ، وأنه ورث عن أبيه ، بلا شك ، ، أربعة أو خمسة ملايين من الفرنكات ، لولا نزوته. وكانت ترى أن هذه النزوة قد تسلي الآخرين ، لذا كان لا يفوتها أن تقول لمسيو سوان ، إذا كان عندنا ضيوف ، عندما يحضر لما في أول يناير كيس للمارون جلالته من باريس : « هيه يامسيو سوان ، أما زلت تسكن بجوار مخزن التيلد ، لكي تضمن ألا يفوتك القطار عندما تذهب إلى ليون ؟ » ، كانت تقول له ذلك وهي تنظر إلى بقية الضيوف بطرف حينها ، من فوق نظارتها .

ولو أن أحداً قال لعمى الكبرى إن سوان هذا ، بوصفه ابناً لسوان ، كان « جديراً » بأن تستقبله « البورجوازية العليا » وبأن يستقبله أيضاً كتاب الملل والمأمون المرموقون في باريس ، لكانت محيا في الخفاء حياة مختلفة تماماً ، وإنه يدور على عقبيه حلماً يصل إلى ناصية الشارع ، بعد أن يخرج من بيتنا في باريس ويقول لنا إنه عائد إلى بيته لينام ، ويلعب إلى صالون لم تأمله ألباين وكيل أو مساعد وكيل ، لو أن أحداً قال ذلك لعمى الكبرى لرأت فيه امرأة غريباً ، غريباً فككرة ارتباط امرأة متفوقة عليها ثقافياً بأرستيه شخصياً ، بعد أن تكون قد فهمت من حديثها معه أنه سيفوص في ممالك تيتيس ، في امراطورية بعيدة عن عيون البشر الزائلين ، حيث يصور فيرجيل ترحيب الناس به ، أو اكتفت بصورة مجتمعة كثيراً أن تخطر على بالها ، لأنها رأته مرسومة على أطباق « البقي فوره » في بيتنا في كومبريه ، وتخلت أنها دعت حل بابا إلى تناول العشاء ، وأنه سيدخل المغارة الزاخرة بالكنوز الثمينة التي لم يتوقع العثور عليها ، عندما ينفرد بنفسه .

وذات يوم ، جاء سوان لزيارتنا في باريس ، بعد العشاء ، وأعلن لارتداله بلذة رسمية . وبعد رحيله ، قالت فرانسواز إنها عرفت من الحوض أنه تناول العشاء عند إحدى « الأميرات » . فقالت عمى بسخرية هادئة وهي تهز كتفها : « نعم ، عند اميرة من العانيات » ، ولم ترض حينها من فوق التريكو اللبي يلبسها .

لذا ، كانت عمى الكبرى تعامله معاملة خالية من الإحترام . وبما أنها كانت

تعتقد أنه يجب أن يفترض بدعوتنا له ، كانت نجد من الطبيعي جداً ألا يأتي لزيارتنا في الصيف إلا إذا كانت في يده سلة خوخ أو فراولة برية من حديقته ، وأن يحضر في بعض الأعمال الفنية الرائعة ، في كل مرة يلعب فيها في رحلة إلى إيطاليا .

كنا لا نتخرج ونرسل في طلبه إذا احتجنا إلى وصفة صلصة أو سلطة أناناس لحفلات العشاء الكبرى التي لا يدعى إليها لأنه يفترض إلى الحديقة التي تكفي لتقديمه إلى الغرباء الذين يأتون إلى دارنا لأول مرة . كانت عمى الكبرى تقول له ، إذا دار الحديث حول امراء البيت للملكي الفرنسي : « إنهم أناس لن نعرفهم أبداً ، لا أنا ولا أنت ، ونحن في غنى عن معرفتهم ، أليس كذلك ؟ » ، وربما كان في جيبه آنذاك خطاب من توبكهام . وكانت تطلب منه أن يدفع البيانو ، أو يقلب الصحف ، في الأمسيات التي تغنى فيها أختي جلتي ، أي أنها كانت تعامل هذا الإنسان المطلوب المرغوب في أماكن أخرى معاملة خشنة ساذجة تشبه الطريقة التي يلعب بها طفل بقطعة من مجموعة فنية كما لو كانت شيئاً رخيص الثمن . ولا شك أن سوان الذي عرفه كثير من أعضاء النوادي في نفس الفترة كان مختلفاً كل الاختلاف عن سوان الذي كانت تحببه عمى الكبرى ، عندما يلقي الحرس دقتين صغيرتين متردتين في حديقة كومبريه الصغيرة ، في المساء ، وعندما تبعث الحياة ، بكل ما تعرفه عن أسرة سوان ، في الشخص المتروك للمعمور الذي كان يبرز أمام جلتي ، على خلفية مظلمة ، وكان يعرف من صوته . لكننا لسنا كلا مكوناً مادياً ، حتى فيما يتعلق بأثفه شئون الحياة ، لسنا كلا واحداً بالنسبة للجميع ، يكفي أن يلعب كل شخص للاطلاع عليه وكأنه يطلع على قائمة من الشروط أو وصية . ففكر الآخرين هو الذي يخلق شخصيتنا الاجتماعية . حتى الفعل البسيط الذي نسميه « زيارة شخص نعرفه » فعل ذهني إلى حد ما ، فنحن نمثل المظهر الخارجي للشخص الذي نراه بكافة الأفكار التي كوناه عنه ، ولا شك أن هذه الأفكار نصيب الأسد في تخيلنا لشكله العام ، فهي تنهى إلى نفخ الوجنتين ، ومتابعة خط الأنف بدقة تلتصق به ، وتعني بتغيير رنة الصوت ، وكان هذا الصوت مجرد غلاف شفاف ، لدرجة أننا نمر ثانية على هذه الأفكار ونستمع إليها ، في كل مرة نرى فيها هذا الوجه ونسمع فيها هذا الصوت . ولا شك أن والذي كانا قد نسيا عن جهل أن يدخلنا في سوان الذي كوننا فكرة عنه حشداً من خصائص حياته الإيجابية التي كانت تجعل الآخرين يرون الأناقة تسود وجهه ، اعتدنا



يكون حاضراً ، وتترقب عند أنفه للمعوق وكأنه حد طبيعي لما ، لكنهما كانا قد تمكنا أيضاً من أن يكسلا في هذا الوجه الخالي الواسع الذي فقد هيئته ، وفي أعماق هاتين العينين الذي قل شأنهما ، البقايا المهمة الحلوة - نصفها ذكريات ، ونصفها الآخر نسيان - المتخلفة من ساعات الفراغ التي قضوها معاً بعد العشاء الأسبوعي ، حول مائدة اللعب أو في الحديقة ، عندما كانوا يعيشون في الريف ، كأناس يربط بينهم حسن الحوار . وكان الخلاف الجسماني لصديقنا سوان قد امتلأ بهذه الأفكار ، وبعض الذكريات الخاصة بوالديه ، بحيث أصبح إنساناً كاملاً حياً ، وبحيث كنت أشعر أنني أفارق شخصاً وإنه إلى آخر مختلف عنه ، عندما كانت ذاكرتي تنقل من سوان الذي عرفته معرفة دقيقة فيما بعد إلى سوان الأول هذا - كنت أجد في سوان الأول أخطاء شائبة للساحرة ، وكان لا يشبه سوان الآخر قدر ما يشبه الأشخاص الذين عرفتهم في نفس الفترة ، وكأن حياتنا متحف تتشابه فيه وتتناغم كل الصور التي تنتمي إلى فترة زمنية واحدة - الملىء بوقت الفراغ ، المعطر برائحة شجرة الكستناء الكبيرة ، ووسائل القراولة البرية ، وشيء من الخردل .

ذات يوم ، ذهبت جنتي لطلب خدمة من سيدة كانت قد عرفتني في السريكيير (وقطعت علاقتها بها ، بالرغم من ميل كل منهما إلى الأخرى ، بسبب مفهومنا للطبقات ) هي الماركيزة دي فليارييس التي تنتمي إلى عائلة بويون الشهيرة . فقالت لما هله الأخيرة : «أعتقد أنك تعرفين مسيو سوان حق المعرفة ، إنه صديق حميم لآل دي لوم أبناء أخي » وعادت جنتي من زيارتها وهي متحمسة للبيت الذي يطل على الحدائق ونصحتها مدام دي فليارييس باستئجاره ، وللحائك وابنته اللذان يملكان محلاً يطل على فناء ذلك المنزل ، وكانت قد دخلت عندهما لإصلاح شأن تنورتها التي مزقتها في السلم . رأيت جنتي أن هؤلاء الناس على درجة كبيرة من الكمال ، وصرحت بأن الإبننة درة ، وبأن والدها الحائك من أرق وأفضل الرجال الذين رأتهم قاطبة ، لأن الرقي كان ، في نظرها ، شيئاً مستقلاً تماماً عن الطبقة الإجتماعية . وكانت جنتي قد أعجبت بجملة قالها الحائك ، فقالت لأخي : «لم تكن مدام دي سيقنييه لتقول أفضل منها .» بيتاً قالت عن أحد أبناء أخي مدام دي فليارييس الذي التقت به عند هذه الأخيرة :

«آه يا ابنتي : يالها من إنسان عاى .»

لم يرفع ما قيل عن سوان من شأنه في نظر عمي الكبير بل قلل من شأن مدام دي فليارييس في نظرها. فلقد كان الإحترام الذي تكنه لمدام دي فليارييس بناء

على ثقة جلتى بها يلزمها ، فبا يبدو ، ألا تفعل شيئاً يجعلها غير جذيرة به . وكانت قد أخطت بهذا الإلزام عندما علمت بوجود سوان ، وسمحت لأقاربها بمخالطةه . وماذا ؟ تعرف سوان ، فيما كانت تدعى أنها قريبة للارشال ملك - ماهون ١٩ بعد ذلك ، تأكد رأى أقاربي في علاقات سوان ، فبا يبدو ، عندما تزوج امرأة من أسوأ الطبقات الاجتماعية ، تكاد تكون عاهرة ، لم يحاول أن يقيدها لم أبداً . وظل يزورها منفردة ، وإن كانت زيارته قد قلت ، واعتقد أقاربي أنهم يستطيعون من خلال زيجته هذه أن يحكموا - إذا افترضنا أنه اختار زوجته من هذا الوسط - على الوسط التي تخالط عادة ، مع أنهم لا يعرفونه .

وكانت مرة ، قرأ جلتى في إحدى الحرائك أن شيو سوان واحد من أولئك الذين اعتادوا تناول القلياء بانتظام عند دوق كذا ، يوم الأحد ، وكان والد هذا الدوق وعنه من رجال الدولة البارزين في عهد لوى - فليب . وأراد جلى أن يعرف الإحداً الصغرة التي قد تساعده على اللحول بفكره في الحياة الخاصة لأناس مثل موليه ، والدوق باسكيه ، والدوق دي بروجلي ، ومسر للغاية عندما عرف أن سوان تخالط الناس حقاً

هؤلاء القوم ، في حين فبرت عني الكرى هذا النبا فتمسراً يسى إلى سوان . إذا اختر الزم الأخصاص الذين مخالطهم خارج الطبقة التي ولد فيها ، أى خارج طبقة الاجتماعية ، سقط في نظرها سقوطاً موفياً . كانت تعتقد أنه يتنازل بذلك فجاء من مرة كل العلاقات الطبية التي أقامها من الناصرين ، وهم علاقات تبق عليها الأمر بعدة النظير وعجزت من أجل أنباء ( بل أن عني الكرى كانت قد كتبت عن مخالطة ابن صديق لها ) ، وهو كان عليل ، لأنه تزوج من صاحبة سوء ، وبالتالي ، سقط في نظرها من مستوى لمن كانت عليل عجزت إلى مستوى واحد من أولئك الفاسدين الذين كانوا عظماء في البيوت والأساطيل ، ويقال إن الملكات كن يستطعن أحياناً . ولأن جلى لا يني أن يبذل سوان عن مصداقته أولئك الذين اكتشفناهم في الليلة القادمة ، حيث أنه سيحضر لتناول العشاء عندما من ناحية أخرى له صحت أصغر جلى ، وكانت عجزت عانستن أختنا جبا طبعها التيل ولي تأخذها عبا زوجها ، بأنها لإقحامان المنة التي جعلها زوج أخصاً في الحديث عن هذه الترهات . وكانت لما تطلعت نبيلة ، لذا ، كانتا عاجزتين عن الإهام بما يسمى أقاويل ، حتى لو كانت هذه الأقاويل أهمية تاريخية ، وكانت عاجزتين عابرة عن الإهام بأي شيء لا يتعلق مباشرة بكل ما هو جميل وفاضل ، بل على علم الإهام فكرها بكل ما تمت إلى الحياة



« يمكن أن تقول له كلمة واحدة فقط ، أن تسأله عن حالها . فلاشك أن هذا للوضع قاس جداً بالنسبة له . » لكن أي كان يغضب ويقول : « يا لغرابه أفكارك ! لن أفعل ، ولو أني فعلت ، لكان ذلك بخفاً » .

كنت الشخص الوحيد الذي أثار مجيئ سوان قلقاً أليماً في نفسه ، لأن أي كانت لا تصعد إلى غرفة نومي في الأمسيات التي يزورنا فيها بعض الغرباء أو مسيو سوان فقط . كنت في تلك الأمسيات أتناول العشاء قبل الجميع ، ثم آتي لأجلس أمام المائدة حتى الثامنة . وكان من المتخفى عليه أن أصعد إلى غرفتي في تلك الساعة وكان على أن أقفل من غرفة الطعام إلى غرفتي القبلية الخفية الرقيقة التي اعتادت أي أن تفتحها لي قبل النوم ، وأنا في فراشي ، وأن أحفظ بها طوال الفترة التي أدخل فيها ملابسني ، بدون أن أحلم رقبها ، أو ينتشر أو يتبخرمقموها . في تلك الأمسيات بالذات كنت في حاجة إلى تلقيها بمزيد من الحرس ، وكان على أن أدخلها ، أو أسرقها فجأة ، وعلناً ، بدون أن يكون لدى الوقت الكافي أو الحرية اللازمة للإتيان إلى ما أفعله ، شأني في ذلك شأن أولئك اللذين يحاولون ألا يفكروا في شيء آخر وهم يفلتون باباً مثلاً ، ليذكروا اللحظة التي أغلقوه فيها ، إذا ما عاودهم الشك للرؤى في الأمر .

كنا جميعاً في الحقيقة عندما دق الحرس دقيته المترددين . كنا نعرف أنه سوان . ومع ذلك ، نظر الجميع إلى بعضهم بعضاً متساءلين ، وذهبت جدي لا استطاع الأمر ، وقال جدي لأختي زوجته : « فكروا في شكره بطريقة ذكية على النبيل الذي أرسله . فأننا نعلم أنه لذيذ وأن الصنوبر كان ضخماً » فقالت عمي الكبرى : « لا تبادلوا إلى الهمس . ياله من أمر سار أن يصل المرء إلى منزل يتحدث فيه الجميع بصوت خافت » . وقال أبي : « ها هو ذا مسيو سوان . سنسأله عما إذا كان يعتقد أن الجو سيكون جميلاً غداً » كانت أي تعتقد أن كلمة واحدة منها ستحو كل الألم الذي ميته عائلتنا لمسيو سوان منذ زواجه وتوصلت إلى اصطحابه بعيداً عنا قليلاً ، لكني تبعها . كنت لا أقدر على الابتعاد عنها خطوة واحدة وأنا أعلم أنني سأضطر إلى فراقها بعد قليل ، وأنها ستبقى في غرفة المائدة ، بينما أصعد أنا إلى غرفتي ، بدون أن يعزيني مجيئها لتقبلي كما كانت تفعل في الأمسيات الأخرى . فقالت لمسيو سوان : « حدثني قليلاً عن إبتك . أنا متأكدة أنها بدأت تنلوق الأعمال الجميلة مثل أبيها » . والتفت جدي منهما وقال : « تعالوا واجلسوا معانحت الشرقة » . اضطرت أي عندئذ أن تقطع حديثها ، لكنها استخلصت من هذا الإيجاز ذاته فكرة أخرى رقيقة ، كما يفعل الشعراء المبدعون اللذين يجبرهم طغيان القافية على الخروج على أجمل الإسمات ، فقالت ، لسوان بصوت

خافت : «ستحدث عنها مرة أخرى، عندما نكون وحدنا الأم وحدها هي الحديرة بفهمك وأنا متأكدة من أن رأى أمها سيكون مثل رأى». جلسنا جميعاً حول المائدة الحديدية. كنت أود ألا أفكر في ساعات القلق التي سأقضيها وحيداً في غرفتي ، هذا المساء ، بدون أن أتمكن من النوم. كنت أحاول أن أقنع نفسي بأنها غير ذات أهمية . مادمت سأسأها صباح غد، وأتعمق بأفكار مستقبلية يجب أن تقودني إلى شيء أشبه بالحسر وراء الحوة القادمة التي تخيفني . لكن يستعصى على أي إحساس غريب النفاذ إلى ذهني المتوتر ، نتيجة لهذا القلق الذي أصبح محبداً كالنظرة التي أصوبها إلى أي. كانت الخواطر تدخل فيه، لكن بشرط أن تترك خارجه أي عنصر جبال أو فكاها يمكن أن يؤثر في أوليها. وكما يشهد المريض بفضل التخدير العملية التي تجري له وهو في كامل وعيه ولا يشعر بشيء، كنت أستطيع أن أردد آياتاً أحياناً أو ألاحظ الجهد الذي يبذله جدي ليحدث سوان عن الدوق ودويفريه - باسكييه، وكانت الآيات لا تثير في أي أنفعال ، ولا يثر جهد جدي في أي مرح . لم تسفر هذه الجهود عن شيء ولم يكده جدي يوجه إلى سوان سؤالاً خاصاً بهذا الخطيب حتى قالت لحظي أختي جدي إلى الأخرى . وكان هذا السؤال قدرن في أذنيها كصمت عميق مفاجئ يتطلب الأدب قطعه : «تصورى ياسيلين أنني تعرفت بمعلمة سويدية شابة أعطتني تفاصيل هامة للغاية عن التعاونيات في البلاد الإسكندنافية . يجب أن نحضر لتناول العشاء معنا ذات مساء . » فردت أختها فلورا قائلة «طبعاً أول أضيع الوقت أنا الأخرى. فلقد التقيت عند مسيو فانتوى بعالم عجوز يعرف الكثير عن مويون ، وشرح له مويون بما يلزم من التفاصيل الطريفة التي يؤيد بها دوره. إنه أمر مثير جداً للاهتمام. فهو جار مسيو فانتوى ، وكنت لا أعرف ذلك . فضلاً عن أنه لطيف للغاية. » فصاحت عمي سيلين قائلة «مسيو فانتوى ليس بالشخص الوحيد الذي ينعم بحيران على قدر من اللطف. » قالت ذلك بصوت جعله الخجل قوياً وجعله التعمد مصطنعاً . في الوقت الذي صوبت فيه إلى سوان نظرة لها دلالتها ، على حد قولها. وفي الوقت نفسه، كانت العمة فلورا قد فهمت أن سيلين توجه هذه الجملة إلى سوان لتشكره على نبيذ آسبي ، فصوبت هي الأخرى إلى سوان نظرة امتزج فيها الأمتنان بالسخرية ، إما لكي تؤكد صحة أختها، إما لكي تحسد سوان على إنه أوحى بها ، إما لأنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من السخرية منه لأنها ظنته منهما. فاستطردت قائلة «أعتقد أننا ستممكن من دعوة هذا السيد على العشاء. عندما يطلب منه الحديث عن مويون أو ملدام ماتيرنا ، يتحدث ساعات بلا توقف. » فنهض جدي وقال : «إنه لشيء ممتع بلا شك. » لسوء الحظ ، كانت الطبيعة قد نسيت أن تضع في ذهنه إمكانية الاهتمام البالغ بالتعاونيات السويدية أو أداء مويون لدوره، بنفس القدر الذي نسيت به أن تضع في ذهن أختي جدي اللسمة الخفيفة التي يجب أن يضيفها المرء إلى حديثه عن حياة

مولته أو الكوفة حتى ياتى الخاصة ، لئى يكون له طمأنة . فقال سوان : بلئى :  
 « ما سأقوله لك به علاقة . يا طيبة منى ، لكثير مهديون ، لأن الأمور لم تنظم كخبري في  
 بعض النقاط . قرأت هذا الصباح في كتاب الشافعي سموناً شافياً ، فكانت في يديك . ولما  
 قرأته في الليلة الماضية عرفتني أسبانياً ، وهو ليس من أفضل أخلاقه . فهو جاراً  
 جريده ، لكنه مكتوبة بطريقه رائقة على الأمل ، ولهذا أول وقت يراها يوليها والى الجواد  
 الملة التي تقرأها مضطرباً . أو هكذا نطق صباحاً ومساءً ، وقاطعته حتى قلورا  
 وقالت : « اختلف منك في هذا الرأي . هناك أيام يبدو لي فيها أن قراءة الخرائط أمر  
 مستحب جداً . » قالت ذلك لثقت أنها قرأت في « الفجار » الحيلة الخاصة  
 بلوحة سوان التي رسمها كورنو . وزايدت عيولاً : « عندما تحدث هذه الخرائط  
 عن أناس أو أشياء سمنا » . ويرد سوان مندهشاً : « أنا متفق معك ، لكن ما أعبه  
 على الصبيح هو أنها تلفت نظرياً كل يوم إلى أشياء تافهة ، بينما تقرأ ثلاث أو أربع  
 مرات في حياتنا الكتب التي توجد فيها أشياء جوهرية . طالم أن تقرأ الخرائط كل صباح  
 باهتمام بالغ ، يجب أن تتغير الأمور وأن نضمها . لا أدري . ربما » . وخرطه  
 بلسكال : « قال هذه الجملة بلهجة خطابة ساخرة . لكن لا يبدو متحليلاً » . وأضاف ،  
 وقد بدا عليه ذلك الإحتمار المتفعل الذي يتظاهر به رجال الجمع : « وقد تقرأ في  
 الجمل المذهب الذي لا تفتح إلا كل عشر سنين ، أنه ملكة اليونان قد ذهبت إلى كان أو  
 أن أمير يون قد أقامت حفلة تذكارية . هكذا يعود اليونان العاجل . » ثم قال ساخراً  
 وهو يأسف لأنه نسي نفسه وتحدث باستخفاف عن بعض الأمور الجادة : « وحديثنا  
 جميل ، ولا أدري لماذا تنطرق إلى هذه القصة » . ثم التفت إلى جدي وقال :  
 « يروى سان سيمون عن مولفريه أنه تجرأ ومديده لأبنائه . ومولفريه هو ذلك الشيخن  
 الذي قال عنه : « لم أر أبداً في هذه الزجاجة السمكة إلا القلب والفضالة والحماة » .  
 قالت فلورا فوراً ، وهي تحرص على أن تشكر سوان أيضاً على نبذ آسئى الذي  
 قدمه هدية لها ولأختها : « سواء كانت سمكة أم لا ، أعرف زجاجات يوجد فيها شيء  
 مختلف تماماً . ضحك سويلن ، واستطرد سوان قائلاً وفي نبرة شيء من الحيرة : « ولا  
 أدري ما إذا كان ذلك جهلاً أم شركاً . هذا ما كتبه سان سيمون - ، لكنه أراد أن  
 يصالح أولادى . وتداركت الأمر في الوقت المناسب ومنعته من ذلك . » أعجب جدي  
 بعبارة « جهل أم شرك » ، لكن الآتية سويلن غضبت ، وكان اسم سان سيمون -  
 المتأدب في نظرها - قد حال دون تحدير قدرتها على السمع تحديراً تاماً ، فقالت وهي  
 غاضبة : « ماذا ؟ أعجب بشيء كهذا ؟ حسن . حسن جداً ! لكن ، ما معنى هذا ؟

الذي يتمايز باللبس؟ أما أهمية أنه يكون للإنسان عوداً أو عرجة ما دام به كذا كبير القلب ؟  
 بالمعنى طويقة جميلة تلك التي كان سنان ينفذ الذي تعجب به يرى بها أولاده لم  
 يأمنهم بعد يديهم كلكل الناس الشريرة الزانية لشوقه ببعض . بكل بساطة .  
 واستشهدت به . لم أزل . هذا الحيز استاء جدي وأجس . أنه يستحيل عليه أنه يطلب  
 من . عوداً . أن . يروي . تلك القمصن . التي . قلميه . . يقال : لا . يصوت  
 خفيض . . . الذي . قلته . ويسرى . حتى . كثوا في . لطافات كماله .  
 له .

من القمصان . . . .  
 لم يخلفني حتى خرج . . . .  
 بالمشاء . . . .  
 كلفت . . . .  
 المكان الذي ساقطه . . . .  
 القصة . . . .  
 مثل . . . .  
 . . . .  
 قبل . . . .  
 لتمام . . . .  
 لا يؤمن . . . .  
 والذئ . . . .  
 الكفاية . . . .  
 إلى اللعاب . . . .  
 يقولون . . . .  
 لها . . . .  
 وأنا . . . .  
 به . . . .  
 أن يأخذ . . . .

أو كان فتاة تحاول إخراجها من الماء مائتي مرة متتالية ، أو بيت شعر لولير نسترجعه بلا توقف ، شعر براحة كبيرة عندما نستقيظ ، ويمكن ذهنتا من تجريد فكرة ألم الأسنان من أية ملابس ، تنكرية أم بطولية كانت أو إيقاعية . لكنني كنت أشعر بشيء مختلف عن هذه الراحة ، عندما كان حزني لصعودي إلى غرفتي يدخل في عارضة أسرع ، تكاد تكون فورية ، مفاجئة وغادرة في آن واحد ، نتيجة لاستنشاق رائحة الدخان الخاصة بهذا السلم ، وهو سام أكثر من نفاذ الأشياء الممنوعة . وبعد وصولي إلى غرفتي ، كان علي أن أسد كل المنافذ ، وأغلق الشبابك ، وأحضر قفري بيدي ، عندما أترع غطاء السرير ، وأرتدى كفن قميص نومي . وقبل أن أدفن نفسي في السرير الحديدى الذى أضيق إلى غرفتي . لأنني كنت أشعر بالحر في الصيف تحت غطاء السرير الكبير ، صلوت على حركة تمرد ، وأردت اختبار حيلة من تلك التى يلجأ إليها المحكوم عليهم بالإعدام . كتبت لأمي رسالة أرجوها فيها أن تصعد لأمر خطير لا أستطيع أن أحلها عنه كتابة . وكنت أخشى أن ترفض فرانسواز طاهية على التى كانت تكلف برعايتي عندما أذهب إلى كومبريه حمل الرسالة إلى أمي . كنت أعلم أن تكلفتها بمهمة خاصة بأمي ، في حضور الضيوف ، أمر مستحيل في نظرها ، كما يستحيل على يواب المسرح أن يسلم رسالة لأحد للمتلين وهو على خشبة المسرح . كانت فرانسواز تنظر إلى ما يليق وما لا يليق عمله من خلال مجموعة كبيرة من القوانين الصارمة الدقيقة التى لا تقبل الفروق التى يصعب فهمها أو تعتبر تافهة ( وكان هذا يعطيا ظاهرياً شكل تلك القوانين القديمة التى كانت تقضى بقسوة بقتل الأطفال الرضع ، وتحرم بركة مبالغ فيها على الحديدى في لبن أمه ، أو أكل عصب فخذ الحيوان ) . وإذا حكمتنا على هذه القوانين من خلال إصرار فرانسواز المقلبي على عدم القيام ببعض المهام التى نكلفها بها ، أدركنا أنها توقعت ، فيما يبدو ، تعقيدات اجتماعية ، وترف جناسي لا يمكن أن توحى بهم حياتها اليومية في القرية ، أو حيلة من يعطون بها . لذا ، كما نضطر أن نقول لأنفسنا : إن لها ماض فرنسي قديم جداً ، وادق نبيل أسوأ فحشه ، كما يحدث في تلك المدن الصناعية التى تهدم الفنادق القديمة فيها على أيا . حادث حياة البلاط ، ويعمل فيها عمال مصانع المنتجات الكيماوية ، وسط تماثيل رقيقة تصور معجزة القديس توفيل أو أبناء اعون الأربعة . وفي حالتى الخاصة كانت المادة القانونية التى لا يمكن التمسك بمقتضاها أن تزج فرانسواز أمي في حضرة مسبو سوان من أجل شخص ضئيل مثلى — اللهم إلا إذا شب حريق — تهرب ببساطة عن الاحترام الذى تكنه الطاهية لا للآباء فقط — وكذلك الاحترام الذى تكنه للموتى



وللقساوسة والملوك - وإنما للضيف الغريب أيضاً. ربما أثر هذا الاحترام في إذا ورد في كتاب ، لكنه كان يثير دائماً عندما يعبر عنه لسانها ، نظراً لثيرة الحادة الخنون التي كانت تحدث بها عنه ، لاسيما في تلك الأسمية التي أعطت. فيها للشقاء طابعاً مقلماً جعلها ترفض فكرة تمكيد صفو الاحتفال به. ولكي أعطى لنفسه فرصة ، لم أتردد في الكلب ، وقلت لها إنني لم أشأ أن أكتب رسالة إلى أمي ، لكن أمي هي التي أوصتني ، عندما افترقنا ، بالأني إرسال رد بخصوص شيء طلبت مني البحث عنه ، ولا شك أنها متغضب كثيراً إذا لم تسلم لها الرسالة . أعتقد أن فرانسواز لم تصدقني ، لأنها كانت كأولئك البدائيين الذين تنفق قوة حواسهم على قوة حواسنا تبين ثواب أي حقيقة نريد أن نخفيها عنها من بعض العلامات التي لا نستطيع تفسيرها . نظرت فرانسواز إلى الرسالة خمس دقائق ، كما لو كان فحص الورق والكتابة سيغطيها فكرة عن طبيعة المضمون أو يشير إلى المادة القانونية التي سترجع إليها . ثم خرجت مستسلمة ، ولسان حالها يقول : « يا لشقاء الأبوين اللذان رزقا بطفل كهذا ! » ، وعادت بعد لحظة لتقول لي إنهم يتناولون الخيلاني ، وإنه يستعمل على الميردوتيل أن يسلم أمي الرسالة أمام الجميع ، وإن كان ذلك ممكناً بعد ذلك ، عندما يصلون إلى « المضمضة » . تبعد قلبي في الحال . الآن ، تغير الأمر . فأنما لم أفارق أمي حتى الغد ، ما دامت رسالتي مستغفها بلا شك ( علاوة على أن هذه الحيلة ستجعلني أبعد ضيقاً في نظر سوان ) ، لكنها على الأقل ستجعلني أدخل المكان الذي توجد فيه أمي بدون أن أرى ، وستحلبني غنى في أذن ، ما دامت قاعة الطعام المهرمة على ، المعادية ، حيث كان تناول الخيلاني منذ لحظة ، متعة ضارة ، محزنة لدرجة القتل في نظري ، لأن أمي تتذوقها بعيداً غنى ، متفتح لي ، وينطلق منها ويصل إلى باقي الشوان اهتمام ، أمي وهي تقرأ مطور الرسالة ، وكأنها ثمرة ناضجة تحطم خلافاً . لم أعد الآن بعيداً عنها . سقطت الحواجز ، ووصل بيننا خيط لليد . ولم ينته الأمر عند هذا الحد : لا شك أن أمي ستلقي بعد قليل !

فكرت في الآتي : لو أن سوان قرأ خطائي ، وغن الغرض منه لسخر من القلق الذي استولى على منظر قليل . لكنني ، على عكس ذلك ، علمت فيها بعد أن قلقاً ، لا أرقه شيئاً طويلة ، وأن ما من شخص يستطيع أن يفهمني مثله . الحب هو الذي جعله يعرف هذا القلق الذي يستولى على المرء عندما يشعر أن من يحب يستمتع في مكان ما بدون ، وأنه لا يستطيع أن يلحق به . بطريقة ما ، قدر لهذا القلق أن يوجد من أجل



أقول: "ألا لا يزال؟" وذلك أن شكل أمانا صحت بعد ذلك تلك الملاحظة من أبولي  
 القصور. أي خلف البيوت المشرقية لمعصيتهم يقولون: "ألا لا يزال؟" بنات إلهي الهيكلين.  
 اللاتي يدهشن ويقنن: "كيف؟ ألم يقل شيئاً؟ مستحيل! مع أنك سلمت الرسالة،  
 حسن، سأنتظر، يوماً بواحد؟" أم لا تتعجبين إلى نور المطبخ الإلهي الذي يريد  
 الباب أن يتعلم مني، ويعلم في مكانين، ولا يتعلم إلا إلى شكلين: قلعة من فوق  
 يناديها الباب وخادم يرسل فجأة، وينظر إلى النافذة ليضع شرايط، الحلة للزلاء  
 في الفلج، رفعت ما عرضة لانسوار على، رفعت أن تتدلى من غير أن تستند أو تدن  
 بجوارى، بل أعرض على عوشتها إلى المطبخ، ورفعت وأحضت تخفي وأنا أطول  
 ألا أسمع صوت أماري وم يشربون القهوة في الحديقة. وبعد بفتح لوان، أجلس  
 التي يدرك إمكانية النوم قبل أن أرى أي ثانية، عندما كنت لها رسالتى، وأقربت  
 منها، وعرضت نفسي لنفسي، لدرجة التي ظننت أنني بلغت اللحظة التي أراها  
 فيها ثانية وكانت دقائق قلبي تزيد ألبا بين لحظة وأخرى، لأن اضطرابي كان يزداد  
 كلما أصبحت نفسي بالتزام المذوء، أي يقول سوء حظي، وفجأة، زان قلبي  
 واحتاجني سعادة تشبه تلك التي تشعر بها عندما يسرى مفعول دواء اللجج فيها ويترك  
 ألبا قررت ألا أحاول النوم إلا بعد رؤية أي مرة أخرى، وتقبلها بأي من،  
 وإن كنت متأكداً من أنها متغضب مني بعد ذلك لفترة طويلة، عندما تضمد إلى  
 غرفة نومها. كان المذوء الناتج عن قلبي المتبني يشع في قرحا خارقا للعادة، لا يقل  
 عن الانتظار، والعطش، والخوف من الخطر. فتحت النافذة بدون أن أحتد صوتاً  
 وجلست على الأرض بجوار سريري. لم تصدر عني أي حركة تقريباً، حتى لا أسمعني  
 أحد من في الحديقة. وفي الخارج، بدت الأشياء ساكنة أيضاً، وحريصة على الانسك  
 صفو ضوء القمر. كان ضوء القمر قد ضاعف كل شيء وأبهلم—لأنه مد ظله  
 أمامه، والظل أكثر ثقلاً وواقعية من الشيء نفسه—وجعل المنظر الطبيعي يضيئ،  
 ويتسع في آن واحد، كأنه مساحة كانت منظوية ثم بسطت. تحرك مثلاً ما كان يحتاج  
 إلى حركة أوراق الكستناء، لكن رجفته الرقيقة، وفروقها الدقيقة ورقها المتناهية،  
 لم تطف على ما تبقى، ولم تلب معه، وظلت واضحة الحدود. وإذا كانت تعرض  
 في هذا الصمت الذي لا يتنص منها شيئاً، كانت أبعد الأصوات الآتية بلا شك من  
 الحداثق الواقعة في الطرف الآخر من المدينة، قسع مقصلة بحيث تبدو وكأنها لا تدين  
 بأثرها البعيد إلا ليحيا، مثلها في ذلك مثل الموثفات الخافتة التي يعرفها أوركسترا  
 الكونسرفتوار باتقان، جعلنا لا نفقد نفمة واحدة منها، ونعتقد مع ذلك أننا نسمعها

بعيداً عن قاعة العزف ، وأن كل أصحاب الاشتراكات القداى ينهتون إليها كما لو كانوا يسمعون جيشاً بعيداً يتقدم ، ولم يصل بعد إلى منعطف شارع تريفيز .

كنت أعرف أن الوضع الذى وضعت نفسى فيه هو الوضع الوحيد الذى يمكن أن ترتب عليه أخطر النتائج ، بالنسبة لى ، من ناحية والذى . وكانت هذه النتائج أخطر فى الواقع بكثير مما قد يظن الشخص الغربى ، وربما ظن أن الأخطاء المخجلة حقاً هي الوحيدة التى يمكن أن تؤدى إليها . لكن ترتيب الأخطاء ، فى الطريقة التى تربت بها ، يختلف عن ترتيبها فى الطرق التى تربت بها الأطفال الآخريين . وكنت قد اعتدت أن أضيع قبل كافة الأخطاء الأخرى ( ربما لأنه لا توجد أخطاء أخرى يجب أن أحترس منها أكثر ) ، تلك التى فهمت الآن أن سببها المشتركة هي الوقوع فيها نتيجة للاستسلام للاندفاع العصبى . آنذاك ، كان لا ينطق أحد بهذه الكلمة ، أو يعلن عن مصدرها ، لأننى قد أعتقد أنى معذور فى استسلامى لهذا الاندفاع أو عاجز عن مقاومته . لكننى كنت أعرف هذه الأخطاء جيداً من القلق الذى يسبقها ، والمقاب الصارم الذى يليها ، وأعرف أن الخطأ الذى وقعت فيه منذ قليل يخمى لى مجموعة الأخطاء التى سبق أن عوقبت عليها عقاباً قاسياً ، وإن كان أخطر بكثير . وإذا وقعت فى الطريق الذى تسلكه أى وهى صاعدة إلى غرفها ، وإذا رأت أننى لم أتم لأقول لها ملحة أخرى مساء الخير فى الممر ، لن أبقى فى المنزل ، وسيفقدونى إلى المدرسة فى اليوم التالى . هذا أكيد ! حسن ! أفضل ذلك ، حتى لو ألقيت بنفسى من النافذة بعده بخمس دقائق ! إن ما أريده الآن هو أى ، أريد أن أقول لها : مساء الخير . وكنت قد قطعت فى الطريق المؤدية إلى هذه الرغبة شوطاً كبيراً لتحصيل معه العودة إلى الوراء .

سمعت خطوات والدى وهما يصحبان سوان . وذهبت إلى النافذة ، عندما أدركت من جرس الباب أنه ذاهب . سألت أى أبى عما إذا كان « الجمبرى » طيباً ، فى نظره ، وعما إذا كان سوان قد أخذ جيلان بالقهوة والفسق مرة أخرى . قالت أى : « فى رأي أن الجيلان كان عادياً للغاية ، وأعتقد أنه يجب أن نخار صنفاً آخر فى المرة القادمة » . وكانت حتى الكبرى قد اعتادت أن ترى فى سوان فى مراحقاً لدرجة أنها دهشت عندما وجدت فجأة أنه أكبر من السن الذى أعطته له . علاوة على ذلك ، كان والدى يريان أن هذه السن الكبيرة غير عادية ، ومبالغ فيها ، ومخجلة ، لا يستحقها إلا غير المتزوجين ، وكل الذين يخيل اليهم أن اليوم الذى لا غد له أطول

مما يرى الآخرون ، لأنه فارغ ، ولأن بعض لحظاته يضاف إلى البعض الآخر ، منذ الصباح ، ولا يقسم بين الأبناء . « أعتقد أن هوميه كثيرة مع زوجته القروب التي تعيش تحت سمع وبصر كومبريه كلها مع شخص يدعى مسيو شارلوس ، وأصبحت سيرتها على كل لسان » . لكن أى لاحظت أنه يبدو أقل حزناً في الآونة الأخيرة . « كما أنه قلل من تلك الحركة التي ورثها عن أبيه ، أن يمسح عينيه ويمر يده على جبينه . أعتقد أنه لم يعد يحب تلك المرأة ، في قرارة نفسه . » ورد جدى قائلاً : « لم يعد يحبها طبعاً ، لقد تلقيت منه رسالة في هذا الشأن ، من مدة طويلة ، وسارعت إلى عدم تصديقها ، وهي لا تدخ أدنى مجال للشك في عواطفه ، أوجه لزوجته على الأكل . » وأضاف وهو يلتفت إلى أختى زوجته : « رأيتهما أنكما لم تقلما الشكر له على التنيذ ؟ » فردت العمة فلورا : « كيف تقول إننا لم نشكره ؟ يفي وبينك ، أعتقد أنني فعلت ذلك بطريقة رقيقة وغير مباشرة » . وقالت العمة سيلين : « أجل ، لقد فعلت ذلك ببراءة ، وأنا معجبة بك . » — « لكنك كنت راقية ، أنت أيضاً » . — « نعم ، كنت فخورة إلى حد ما بنخلة التي قلبها عن الجيران اللطاف » . وصاح جدى : « أسمعون هذا شكراً ؟ صحيح أنني سمعت ذلك ، لكني لم أفهم والله أنه موجه إلى سوان ، وتأكدوا أنه لم يفهم منه شيئاً » . — « لكن سوان ليس خيلاً ، وأنا متأكدة أنه قدر الأمر ، ولم يكن في استطاعتي ذكر عدد الزجاجات وثمان التنيذ . » ظل أبي وأى وحدهما ، وجلسا لحظة ، ثم قال والدى : « حسن ، سنصعد لنوم ، إذا شئت » . « إذا شئت يا صديقي ، وإن كنت لا أشعر بحاجة إلى النوم ، ولا أظن أن جيلاني القهوة الذي كان عادياً للغاية هو السبب في بقائي مستيقظة حتى الآن . لكني الملح نوراً في المطبخ . وما دامت فرانسواز المسكينة قد انتظرتني سأطلب منها فك صدريتي بينما تذهب أنت وتخلع ملابسك » . وفتحت أى باب الممر المرش الذي يقضي إلى السلم . وسرعان ما سمعنا تصعد ، وتطلق نوافلها . ذهبت إلى الممر بدون أن أحدث صوتاً ، وكان قلبي يندق بقوة لدرجة أنني كنت أقدم بصعوبة . لكنه لم يكن يندق لفرط القلق على الأقل ، بل لفرط الفرح والخوف . ورأيت في بئر السلم النور الذي تمكسه الشمعة التي تمسك بها أى . ثم رأيتهما هي ، وانطلقت نحوها . فتنظرت إلى بدهشة ، لأول وهلة ، لأنها لا تفهم ما حدث ، ثم ارتسم على وجهها تعبير غاضب ، ولم تقل لي كلمة واحدة . وكان الكلام لا يوجه إلى أيام عدة ، لأسباب أقل خطورة من هذا السبب بكثير . لو أن أى قالت لي كلمة واحدة ، لكان معنى ذلك أنها تسلم بإمكانية الحديث إلي ، وربما رأيت في ذلك شيئاً أفضح ، ودليلاً على أن الصمت ،



[illegible]

بقيت أرى في غرفتي في تلك الليلة ، ولكنى لا يشوب أرى ندم هذه الساعات المختلفة عما كنت آمل فيه ، وعندما فهمت فرانسواز أن نمة شيء غير مألوف قد حدث عندما رأت أرى جالسة بجوارى ، تمسك يدي ، وتدعنى أبكى بدون أن توبخنى ، سألت أرى : « لم يبكي السيد هكذا يا سيدتى ؟ » فردت أرى قائلة : « لا يعرف هو نفسه سبب بكائه يا فرانسواز ! إنه تآثر الأعصاب . أهدئ السرير الكبير بسرعة ، واصعدى لثامى . لأول مرة ، لم يعتبر حزنى خطأ يستوجب العقاب ، وإنما أُلما لا إرادياً تم الاعتراف به رسمياً منذ قليل ، اعتبر حالة عصبية لست مستحلاً عنها . وشعرت بالارتياح لأننى لم اضطر بعد الآن إلى مزج مرارة اللمع بالمساوم . استطع الآن أن أبكى بلا عذوبة . ولم أشعر بكثير من الفخر أمام فرانسواز لعودة الأمور إلى طابعها الإنسانى على هذا النحو . فبعد ساعة من رفض أرى للصعود إلى غرفتى ، ومن ردها على باحتقار بأنه يجب أن أنام ، رفعتى هذه العودة إلى مستوى الكبار ، وجعلتنى أصل فجأة إلى نوع من الألم البالغ ، واللمع المحرر . كان يجب أن أكون سعيداً ، ولم أكن سعيداً وخيل لى أن أرى قدمت لى تواء تنازلاً أكلها كثيراً ، أول تنازل بلا شك ، وأنها تخلت لأول مرة عن المثل التى وضعتها لى ، وأنها اعترفت بهزيمتها لأول مرة ، وهى فى غاية الشجاعة . خيل لى أن الانتصار الذى أحرزته منذ قليل انتصار عليها ، وأنى توصلت إلى تليين إرادتها الصلبة وإمالة عقلها ، كما يفعل المرضى ، والحزن ، والسن ، وأن هذه الأمية بدأت عهداً جديداً وأنها ستبقى كذكرى حزينة . لو وانتهى الجراءة الآن لقلت لأرى : « لا أريد أن تنهى هنا » ، لكنى كنت أعرف الحكمة للعملية ، أو الواقعية كما قد يقال اليوم ، التى تخفف عند أرى من حدة مثالية جلتى . كنت أعرف أنها تفضل على الأقل أن أذوق هذه المشمة للهدنة . وألا أزعج أرى ، ما دامت « الفأس » قد وقعت فى الرأس » . كان وجه أرى الجميل لا يزال ينبض بالشباب فى تلك الأمية التى أمسكت فيها راحتي يدها وحاولت أن تكفكف دمعى . وخيل لى بالذات أن هذا لا ينبغي أن يحدث . لو أنها ثارت ، لأحزننى ثورتها أقل من هذه الرقة الجديدة التى لم تعرفها طفولتى . خيل لى أننى رسمت لتوى ييد كافرة خفية أولى للتراجع على نفس أرى ، وأنى أظهرت فيها أول شعرة بيضاء . زاد هذا الخاطر من نجوى . وعندئذ ، رأيت أرى التى لا تستسلم أبداً للعطف على ، تستسلم فجأة لما أشعر به ، وتحاول أن تمنع نفسها من البكاء . وعندما شعرت أننى أدركت ذلك ، قالت لى وهى تفضحك : « ها هو ذا حبيبى الصغير ، عصفورى الصغير ، يحاول أن يجعل أمه حقاً مثله ، إذا دام هذا الحال . هيه ؟ ما دمت لا تشعر بحاجة إلى النوم ، وما دامت أمك لا تشعر



بحاجة إليه أيضاً ، دعنا من إثارة الأعصاب ، ولنفعل شيئاً ! لنأخذ كتاباً من كتبك .  
لم تكن عندى كتب فى الغرفة . « هل نقل متعتك إذا أخرجت الآن الكتب التى كانت  
جذتك تنوى تقديمها لك ، بمناسبة عيد ميلادك؟ فكر جيداً . أن تشعر بخيبة أمل  
إذا لم يقدم لك شيء بعد غد ؟ » كنت ، على عكس ذلك ، مسروراً للغاية ! ذهبت  
أبى وأحضرت مجموعة من الكتب لم أستطع أن أتبين ، من خلال الورق الذى يغلها ،  
إلا قطعها الصغير العريض ! وحجبت الكتب ، بشكلها المبدئى هذا ، وبالرغم من  
غموضه ، حلبة الألوان التى قدمت هدية لى فى رأس السنة ، ودود القز الذى قدم لى  
فى العام الماضى . كانت هذه الكتب تحمل العناوين الآتية : « بحيرة الشيطان » ،  
أو « فرانسوا لى شامى » ، و « فاديت الصغيرة » ، و « قارعى الأجراس » . علمت  
بعد ذلك أن جدتى كانت قد اختارت لى ، بدلا من هذه الكتب ، قصائد موسيه ،  
وكتاباً لروسو ، و « انديانا » . وإذا كانت الكتب التافهة مضرة ، فى رأيها ،  
كالمليس والحلوى ، فلقد كانت ترى أن فصاحت العبقريّة يمكن أن تترك فى العقل ،  
حتى لو كان عقل طفل ، أثراً أخطر وأقلّ إنعاشاً من أثر الهواء الطلق وهواء البحر  
على الجسم . وعندما كاد أبى يصفها بالجنون ، لما علم أنها تنوى أن تهدي لى  
كتاباً كهذه ، عادت بنفسها إلى صاحب المكتبة ، فى جوى — لى — فىكونت ،  
لتتمكن من تقديم هدية لى ( حدث ذلك فى يوم حارق ، عادت فيه وهى  
متعبة لدرجة أن الطيب نبه أبى إلى ضرورة تجنبها مثل هذا العناء ) ، واختارت روايات  
جورج صاند الأربعة التى تدور أحداثها فى الحقول ، وقالت لأبى « يا ابنى ، لا يمكن  
أن أقدم لهذا الصغير شيئاً مكتوباً بأسلوب ردى ! »

كانت جدتى ، فى الواقع ، لا تستسلم أبداً لشراشع لا يمكن الاستفادة منه  
ثقافياً ، لاسمياً إذا كانت الفائدة هى تلك التى تمنحها لنا الأشياء الجميلة عندما تعلمنا  
كيف نبحث عن المتعة فى مجالات مختلفة عن إشباع حاجتنا إلى الرفاهية والغرور . حتى  
عندما كانت تضطر إلى تقديم هدية نافعة ، كما يقال ، عندما كانت تضطر إلى تقديم  
كرسى ، أو عصا ، أو أدوات مائدة ، كانت تسمى لى أن تكون هذه الأشياء « قديمة » ،  
وكان استخدامها لمدة طويلة قد أزال عنها طابعها النقصى ، وجعلها بالتالى مستعدة لأن  
تروى لنا قصة حياة من عاشوا فيها مضى ، أكثر من تلبية احتياجات حياتنا نحن . كانت  
تود أن توجد فى غرفتى صورا بعض المبانى الأثرية أو المناظر الطبيعية الجميلة . لكنها  
كانت ترى ، فى اللحظة التى تقدم فيها على شرائها ، وبالرغم من أن الشيء المصور  
له قيمة جمالية ، أن الابتلال والفائدة يستعبدان بسرعة مكانهما فى طريقة التصوير

الآلية ، وتقصدها الفوتوغرافيا . كانت تحاول أن تتحايل وتمحو الابتذال التجارى تماماً ، أو متحد منه على الأقل ، وتستبدله بالفن ، ما أمكن . كانت تحاول أن تدخل فيه عدة « طبقات » فنية . فبدلاً من أن تختار صوراً لكاتدرائية شارتر ، أو مياه سان كلو ، أو الفيزوف ، كانت تسأل سوان عما إذا كان رسام كبير قد صورهم . كانت تفضل أن تقدم صوراً لكاتدرائية شارتر كما رسمها كورو ، ومياه سان كلو كما رسمها هوبير روبير ، والفيزوف كما صورته تيرز ، وكان كل هذا بمثابة درجة فنية أعلى . وإذا كان المصور قد استبعد من تصوير العمل الفنى أو الطبيعة وحل محله فنان كبير ، كان يسترد حقه في نقل الأداء التصويرى . كانت جلتى تحاول أن تؤخر الابتذال ما أمكن ، عندما تحين ساعة الوصول إليه . كانت تسأل سوان عما إذا كان العمل الفنى حقراً . وكانت تفضل ، ما أمكنها ذلك ، الصور القديمة التى احتفظت بأهمية تتجاوزها ، على سبيل المثال ، تلك التى تصور الروائع تصويراً لا تستطيع أن تراه اليوم ( مثال ذلك حفر « المشاء الأخير » الذى رسمه ليونارد قبل أن يصاب بالتهور على يد مورجن ) . ولا بد أن نقول إن نتائج هذه الطريقة التى كانت تهمهم بها فن تقديم المدينة لم تكن باهرة دائماً . فالفكرة التى كونتها عن فينيسيا ، استناداً إلى رسم تيسيان ، والمفروض أن البحيرة الشاطئية خلقة له ، كانت أقل دقة بالتأكيد من الفكرة التى كان يمكن أن تتكون لدى من الصور البسيطة . كنا نعجز عن إحصاء الحالات ، عندما تحاول عنى الكبرى توجيه قرار اتهام جلتى . كانت تهمها بأنها أهملت خطيين أو زوجين عجوزين مقاعد انهارت فوراً تحت ثقل أول من جلس عليها ، فى أول محاولة لاستخدامها . كانت ترى أن الاهتمام بمثانة التجارة ، إذا كنا نستطيع أن نتبين فى قطعة الخشب زهرة صغيرة ، أو ابتسامة ، أو تصوراً جليلاً للماضى ، أمر تافه . حتى ما كان يلجى حاجة معينة ، فى قطع الأثاث هذه ، كان يلجى بطريقة لم نعتدها . وكان يسحر جلتى بالتالى ، كما تسحرها طرق القول القديمة التى نرى فيها استعارة أزالها العادة ، فى لغتنا الحديثة . وروايات جورج صانده التى كانت تنوى أن تهديها فى بمناسبة عيدي ، كانت كقطع الأثاث القديمة ، مليئة بعبارات لم تعد تستخدم واستعادت قدرتها التصويرية ، عبارات لا ينجدها اليوم إلا فى الريف . وكانت جلتى قد فضلت هذه الروايات على غيرها ، كما كان يمكن أن تستأجر ضيعة يوجد فيها برج حمام غوطى ، أو شيء من تلك الأشياء القديمة التى تختلف فى الدهن أثراً طيباً عندما تشعره بالخنين إلى رحلات مستعجلة فى الزمان .

جلست أحي بجوار سريري، وأمسكت «فرانسوا لي شامي». وكان لهذه الرواية، في نظري، شخصية متميزة وجاذبية غامضة، نظراً لغلافها المحمر وعنوانها الغامض. لم أكن قد قرأت روايات حقيقية بعد، وسمعت أن جورج صائد مثال للكاتب الروائي. وهيتاني ذلك لأن أرى في «فرانسوا لي شامي» شيئاً ممتعاً غني عن التعريف. فأساليب السرد التي من شأنها أن تثير القصور أو العواطف، وطرق التعبير التي توقف القلب والحنن، ويعرف القارئ المطلع أنها قامم مشترك بين كثير من الروايات، كانت تبدو لي، لي أنا الذي أنظر إلى أي كتاب جديد لا على أنه يشبه كتاباً أخرى كثيرة، وإنما على أنه شخص فريد يوجد في حد ذاته «وكانها انبثاق من جوهر «فرانسوا لي شامي» الخاص. كنت أشعر إزاء هذه الأحداث اليومية للغاية، والأشياء العادية للغاية، والكلمات المتداولة للغاية، بشيء أشبه بالنبرة الغريبة. بدأ الحدث، وبدأ لي غامضاً، خاصة أنني كنت أحلم كثيراً. أتذكر أنك بشيء مختلف تماماً وأنا أقرأ صفحات كاملة. وكان يضاف إلى هذا الشرود أمام النص، إغفال أي لمشاهد الحب عندما تقرأ لي بصوت عال. لذلك، كانت كل التغييرات الغريبة التي تطرأ على موقف صاحبة الطاحونة والطفل، ولا تفسرها إلا تطورات الحب الناشئ، تبدو لي مصبوغة بغموض عميق، وتصورت طواعية أن مصدره بلا شك ذلك الاسم المجهول الحلو «لي شامي»، الذي كان يضيء على الطفل الذي يحمله صبيحة، ارجوانية ساحرة، لا أعرف لها كنهاً. كانت أي لا تقرأ بأمانة أحياناً، لكنها كانت تقرأ بطريقة رائعة المؤلفات التي تجد فيها نبرة عاطفية صادقة، وتحترم الأداء وبساطته بصوت جميل عذب. حتى في الحياة، عندما كان البشر — لا الأعمال الفنية — يثرون عواطفها أو إعجابها على هذا النحو، كان من المؤثر أن تراها تسبغها احترام من صوتها، وحركتها، وفكراتها، المرح الذي يمكن أن يؤلم الأم التي فقدت ابناً قيامي، أو ذكر احتفال أو عيد ميلاد قد يذكر المجوز بكونه «أو الكلمة الدارجة التي قد تبدو نافهة لعالم شاب. كانت أي، عندما تقرأ نثر جورج صائد الذي تفوح منه دائماً رائحة الطيبة والسمو المعنوي الذي تعلمت أي من جلتي اعتبارها أسمى من أي شيء في الحياة، وعلمتها بعد ذلك بكثير ألا تعتبرها أسمى من كل شيء في الكتب، كانت أي تحرص على أن يخلو صوتها من الصفات والاصطناع الذي قد يحول دون استقباله للموجة القوية، وكانت تقدم الحنان الطبيعي، والعدوية البالغة اللذان تتطلبهما جمل تبدو وكأنها قد كتبت لصوتها، وتدخل بأجمعها في مجال حساسيتها إذا جاز القول. كانت تعثر مرة أخرى، أحي تبدأها، على النبرة اللازمة، النبرة الصديقة التي سبقها

وأملتها ولا تشير الكلمات إليها . بفضل هذه النبرة ، كانت تخفف من حدة زمن الأفعال عندما تمر بها ، وتعطى الفعل الماضى عدوية الطيبة ، وحين الختان ، وتوجه الحملة التى انتهت إلى الحملة التى تبدأ ، وتسرع تارة وتبطئ تارة فى سير المقاطع لكى تدخلها ، بالرغم من اختلاف طولها ، فى إيقاع موحد ، كانت تبعث فى هذا النثر العادى للغاية نوعاً من الحياة العاطفية المستمرة .

هدأ إحساسى بالتندم ، واستسلمت لحلاوة هذه الليلة التى توجد أى مجوارى فيها ، وكنت أعلم أن ليلة كهذه لا يمكن أن تتكرر ، وأن أقوى رغبة يمكن أن أشعر بها فى العالم هى الاحتفاظ بأى فى غرقى فى تلك الساعات الليلية الخزينة ، وأن هذه — الرغبة كانت تتعارض مع ضروريات الحياة ورغبة الجميع ، بحيث لا يمكن أن يكون تحقيقها هذا المساء إلا شيئاً استثنائياً مصطنعاً . غداً ، سيعاودنى القلق ، ولن تكون أى هنا . كنت لا أفهم قلقي ، عندما يزول ، ثم أن مساء الغد لا يزال بعيداً . كنت أقول لنفسى إننى سأجد الوقت الكافى لكى آخذ الحذر ، وإن كان ذلك الوقت لا يستطيع أن يأتى إلى بأى سلطة إضافية ، ما دام الأمر متعلقاً بأشياء لا تتوقف على إرادتى ، وتجعلها المسافة التى لا تزال تفصل بينى وبينها قابلة للتجنب فقط ، فيما يبدو .

ظلت فترة طويلة على هذا الحال ، أتذكر كومبريه عندما استيقظ فى الليل . ولم أر منها ثانية أبداً إلا هذا الشق المضى ، الموسوم ، وسط ظلمات لا تليينها العين ، ويشبه شقاً ينبره ، ويرسمه اشتعال شهب نارية ملونة أو كشاف كهربائى ، فى مبنى ظلت أجزاءه الأخرى غارقة فى الظلام : عند القاعدة العريضة ، إلى حد ما ، الصالون الصغير ، وقاعة الطعام ، وبداية الممر المظلم الذى سيصل عبره مسيو سوان ، سبب حزنى اللاشعورى ، والبحر الذى كنت أسير فيه متجهاً إلى درجات السلم ، ذلك السلم الذى نصبه بمشقة ، وكان يمثل وحده هرماً مقطوعاً ضيقاً لا تتساوى أبعاده . وفى أعلاه ، غرفة نوبى ، وفيها ممر صغير له باب زجاجى تدخل منه أى . باختصار ، إذا نظرنا إلى كل هذا دائماً ، فى نفس الساعة وعزلناه عن كل ما يمكن أن يحيط به ، وبرز وحده فى الظلام ، وجدنا أنه الديكور اللازم بالضبط ( كذلك الذى نراه فى مقدمة المسرحيات القديمة التى تعرض فى الريف ) للمساءة على الملابس . وكان كومبريه كانت مكونة من طابقتين يربط بينهما سلم رفيع ، وكان الساعة كانت تشير فيها دائماً إلى الساعة مساء . فى الواقع ، لو أن أحداً سألنى ، لاستطعت أن أرد بقولى إن كومبريه كانت تشتمل على أشياء أخرى ، وكانت توجد فى ساعات أخرى .

لكن ، بما أن ما قد أذكره منها تقلمه لى الذاكرة الإرادية فقط ، ذاكرة العقل ، وبما أن المعلومات التى تقدمها لى هذه الذاكرة عن الماضى لا تحتفظ بشئ منه ، لم أشأ أبداً أن أفكر فى الجزء الباقى من كومبريه . كان كل هذا ميباً فى نظرى ، فى الواقع .

ميباً لى الأبد ؟ ممكن !

يوجد فى كل هذا قدر كبير من الصدفة . وتوجد صدفة أخرى ، صدفة موتنا التى لا تسمح لنا فى كثير من الأحيان بانتظار رضى الصدفة الأولى .

وهناك اعتقاد صلبى معقول جداً ، فى رأيى ، مفاده أن أرواح الذين فقدناهم تأسر فى كائن أدنى ، حيوان ، أو نبات ، أو جاد ، وتظل مفقودة بالنسبة لنا إلى أن يأتى يوم ، ولا يأتى هذا اليوم أبداً للكثيرين ، تمر فيه بجوار شجرة مثلاً ، ونتملك الشئ الذى أسر فيها . عندئذ ، ترتجف الأرواح ، وتتأدنا ، ويبطل السحر حالماً نتعرف عليه . وعندما نخلص الأرواح ، تنصر على الموت ، وتعود لتعيش معنا .

كللك الأمر بالنسبة لماضيئنا . حينئذ نحاول أن نذكره . وكل الجهد الذى يبذله عقلنا فى هذا للصدد لا يبدى . فالماضى يخفى خارج مجاله ومداه ، فى شئء ماضى ( فى الإحساس الذى يولده فينا هذا الشئء الماضى ) لا نجلسه . ويتوقف على الصدفة وحدها لقائنا أو عدم لقائنا بهذا الشئء قبل موتنا .

من سنوات عديدة ، مات كل شئء فى كومبريه ، فى نظرى ، ما عدا ما كان مسرحاً للمأساة التى أعيشها ساعة النوم . وفى يوم من أيام الشتاء ، عدت لى المنزل . وعندما رأئت أى أنى أشعر بالبرد ، اقترحت على شرب شئء من الشاى ، على غير عادتى . رفضت فى أول الأمر ، لكننى غيرت رأيى ، لا أدري لماذا . وأرسلت أى فى طلب كعكة من ذلك النوع القصير المكتنز المسمى « بيت مادلين » ، تبدو وكأنها قد صبت فى صدفة قوقعة من قواقع « سان جالك » . وسرعان ما شربت ملعقة من الشاى الذى خضت فيه قطعة « المادلين » ، بطريقة آلية ، لأن اليوم الكثيب وتوقع غد حزين كانا قد أرهقانى . وفى اللحظة التى لمست فيها سقف حلقى ملعقة الشاى المزوجة بقطعة الكعك ، ارتجفت ، وتنبت لى الشئء الغريب الذى يحدث فى غزنى لى لى لى ، لى معزولة عن سببها ، جعلتنى لا أبالى توارى بصروف الحياة ، وكوارثها التى لا تنصر ، وقصرها الوهمى ، كما يفعل الحب ، وملأتنى بجوهر قيم ،

أو بالأحرى ، لم يكن هذا الجوهر في أنا ، بل كان أنا . لم أعد أشعر أنى قليل الذكاء ، وزائل . من أين أتت هذه الفرحة القوية ؟ كنت أشعر أنها مرتبطة بطعم الشاي والكعك ، لكنها تتجاوزها إلى ما لا نهاية ، ولا بد أنها مختلفة النوع . من أين جاءت ؟ وماذا كانت تعني ؟ أن أقف عليها ؟ شربت ملعقة ثانية لم أجد فيها شيئاً أكثر مما وجدته في الأولى ، وثالثة أتت لي بأقل مما أتت به الثانية . أن الألوان لكى أنوف . فتأثير المشروب يقل فيما يبدو . من الواضح أن الحقيقة التي أبحث عنها ليست فيه ، بل في أنا . المشروب أيقظها ، لكنه لا يعرفها ، وهو لا يستطيع إلا أن يكرر إلى ما لا نهاية بقوة تقل تدريجياً ، هذه الشهادة التي لا أعرف كيف أفسرها ، وأريد على الأقل أن أتمكن من طلبها منه مرة أخرى ، والثور عليها سليمة لم تحس ، وتحت تصرفي ، بعد قليل لأوضحها نهائياً . وضعت الفنجان ، والتفتت إلى عقلي . عليه هو أن يعثر على الحقيقة . لكن كيف ؟ إنه لشك خطير ، في كل مرة يشعر فيها العقل أنه يتجاوز ذاته ، عندما يصبح ، وهو الباحث ، البلد الغامض الذي يجري البحث فيه ، ولن يفيد فيه متاعه شروى تقير .

يجري البحث ؟ لا ، بل يخلق أيضاً . إنه أمام شيء لم يوجد بعد ، ولا يستطيع أحد غيره أن يوجدّه ، ثم يدخله إلى نوره .

وعدت أتساءل : ما هي تلك الحالة المجهولة التي لا تأتي بأي دليل منطقي ، وإنما تأتي بوضوح سعادتها ، وحقيقتها التي تزول أمامها كل اليسيات الأخرى ؟ أريد أن أكرر المحاولة ، وأوجدتها مرة أخرى ، وأعود بالفكر إلى اللحظة التي شربت فيها ملعقة الشاي الأولى . لكني لا أجد وضوحاً جليداً ، وأطلب من عقلي جهداً إضافياً ، أن يعيد مرة أخرى الإحساس المارب . ولكني لا يكسر شيء الانطلاقة التي سيحاول بها عقلي أن يمسك ببلك الإحساس ، أبعد أي عائق ، وأي فكرة غريبة ، وأحمي أفني وانتباهي من أصوات الفرة المحاورة . لكن ، لأنني أشعر أن عقلي يجهد بلا طائل ، أجبره على الشرود الذي كنت أمتنع عنه والتفكير في شيء آخر ، وإعادة تكوين نفسه ، قبل محاولة أخيرة . ومرة ثانية ، أفرغ الحال أمامه ، وأضع طعم هذه الرشفة الأولى ، وأشعر بشيء يرتجف في وينقل من مكانه ، ويود أن ينطلق ، كأنه حل من عقاله ، في أعماق الأعماق ، لا أدري ما هو ، لكنه يصعد ببطء . وأشعر بمقاومة ، وأسمع صوت المسافات التي يعبرها .

لا شك أن ما ينضج هكذا في أعماق نفسي هو الصورة والذكرى المرتبطة بهذا الطعم ، والتي تحاول أن تبعه إلى أن يصل إلى . لكنها تتخبط بعيداً جداً بطريقة غامضة للغاية . وأرى بالكاد الظل الذي تخطط فيه دوامة الألوان التي حركتها . لكنني لا أستطيع أن أثبت الشكل ، وأن أطلب منها ، باعتبارها المترجم الوحيد الذي يمكن أن يوجد ، أن تترجم لي شهادة معاصرها وزميلها الذي لا ينفرد عنها : الطعم ، وأن أسأله بأي ظرف خاص ، بأي فترة من فترات الماضي يتعلق الأمر ؟

هل تصل إلى سطح وعي الواضح هذه الذكرى ، واللحظة القديمة التي طلبتها وحركتها وأثارها في أعماق جاذبية لحظة مماثلة لها ؟ لا أدري الم أعد أشعر الآن بشيء . ربما توقفت ، ونزلت مرة أخرى إلى ليلها ، ومن يدري إذا كانت ستصعد منه أبداً ؟ لا بد أن أعيد الكرة عشر مرات ، وأن أميل عليها ، وفي كل مرة ، كان الحين الذي يبعدنا عن أي مهمة صعبة ، وأي عمل هام ، ينصغي بأن أدع الأمر ، وأشرب الشاي وأنا أفكر في مضايقات اليوم فقط ، وروغبات الغد التي أجترها بلا عناء .

وفجأة ، ظهرت لي الذكرى . كان هذا الطعم طعم قطعة المادلين الصنبرة التي كانت العمة ليوني تقدمها لي ، بعد غمسها في الشاي أو التليو ، صباح يوم الأحد في كومبريه (لأنني كنت لا أخرج قبل ساعة القداس في ذلك اليوم) ، عندما كنت أذهب إلى غرفتها لأقول لها صباح الخير . لم تذكرني رؤية قطعة المادلين الصغيرة بشيء قبل أن أتذوقها . ربما لأنني رأيت كثيراً منها بعد ذلك ، عند باعة الحلوى ، ولم أكله ، تركت صبرتها أيام كومبريه هذه وارتبطت بأيام أخرى أحدث . ربما تحلل كل شيء لأن شيئاً لم يبق من تلك الذكريات التي تركت طويلاً خارج النذاكرة . كانت الأشكال — وكذلك شكل قوقعة المادلين التي تبدو شهوانية تحت ثناياها الصارمة الورع — قد زالت ، أو نامت ، وقلدت القدرة على الانتشار التي كان يمكن أن تمكنها من اللحاق بالوعي . وعندما لا يبقى شيء من الماضي القديم ، بعد موت الكائنات وهلم الأشياء ، تبقى الرائحة ويبقى الطعم وحدهما ، وهما أكثر ضيقاً من الأشياء الأخرى ، لكنهما أكثر حيوية وإصراراً ، وإخلاصاً ، ولا مادية ، يبقيان كالأرواح ويتذكran ، وينظران ، ويأملان ، فوق أطلال كل ما تبقى ، ويحملان مبنى الذكرى الضخم ، بدون أن تخور قوامهما ، على قطرتيها ، وتكاد تكون غير محسوسة .

وحالما تعرفت على طعم قطعة المادلين المغموسة في التليو التي كانت عني تعطيها لي ( وإن كنت لا أعلم بعد وألحت إلى وقت لا حتى اكتشاف السبب الذي يجعل هذه

الذكرى تسعدنى إلى هذا الحد ) ، جاء البيت الرمادى القديم المظل على الشارع ، حيث كانت غرفتها ، جاء كالد يكور المسرحى ، وانطبق على الجناح الصغير المظل على الحديقة الذى بنى لوالدى خلف البيت ( هذا الشق الوحيد الذى رأيتة ثانية حتى الآن ) . ومع البيت ، جاءت المدينة ، من الصباح إلى المساء ، وفي كافة الأوقات ، الميدان الذى كنت ارسل إليه قبل الغداء ، والشوارع التى كنت أشتري منها الحاجيات ، والطرق التى كنت أسير فيها عندما يكون الجو جميلا . وكما يحدث فى تلك اللعبة التى يتسلى اليابانيون فيها بغمس قطع صغيرة من الورق نكاد لا نعيها فى وهاء من الصينى ملء بالماء ، وتتمدد قطع الورق بمجرد أن تغوص فى الماء ، وتتلوى ، وتتلون ، وتتميز ، وتتحول إلى زهور ، وبيوت ، وأشخاص يمكن التعرف عليهم ، خرجت من فنتجان الشاى الذى أملك به المدينة والحداق وزهور حديقتنا ، وزهور حديقة مسيو سوان . وخرج نيلوفر القيقون ، وسكان القرية الطيبون ، ومساكنهم الصغيرة ، والكنيسة ، وكومبريه وكل ضواحيها ، وكل ما يتخذ شكلا ويكتسب صلابة .

كانت كومبريه ، إذا نظرنا إليها من القطار ، من كل الجهات من بعيد ، عندما نصل إليها فى الأسبوع الأخير السابق لعيد الفصح ، مجرد كتيسة تلخص المدينة ، وتمثلها ، وتتحدث عنها ولها ، لمن كان بعيداً . وكنا عندما نتقرب منها نراها مخفض حول معطفها العالى الداكن ، ظهر البيوت الرمادى الصوفى ، وسط الحقول ، وتحميها من الرياح كما تحمى الراعية ناعجها ، وكانت تحيط بهذه البيوت المجتمعة ، هنا وهناك ، بقايا سور يرجع إلى العصر الوسيط ، وترسم حولها خطاً دائرياً كاملاً كالدلى يحيط بالمدن الصغيرة فى لوحات « البدائيين » . كانت كومبريه تبدو كثيبة إلى حد ما لمن يسكنها . وكذلك كانت شوارعها التى بنيت منازلها بأحجار مائلة إلى السواد مأخوذة من المنطقة وتسبقها درجات سلام خارجية ، وتتوجها جالونات تعكس الظل أمامها ، وتبدو مظلمة بحيث كان يجب رفع الستائر فى « القاعات » ، حالما تميل الشمس إلى الغروب . كانت الشوارع تحمل أسماء بعض القديسين ( وكان كثيرون منهم مرتبطين بتاريخ السادة الأوائل الذين سكنوا كومبريه ) : شارع سانت هيلير ، وشارع سان جاك ، حيث كان بيت عمى ، وشارع سان هيلجارد الذى يطل عليه السور ، وشارع الروح القدس الذى نصل إليه من باب الحديقة الجانبى الصغير . كانت شوارع كومبريه هذه توجد فى جزء من ذاكرتى بعيد جداً ، ومرسوم بألوان مختلفة جداً عن الألوان التى تكسو العالم الآن فى نظرى ، حتى كانت تبدو لى ، فى الواقع ، هى



والكنيسة العالية التي تطل على الميدان، خيالية أكثر من عروض القانونوس السحري. وفي بعض اللحظات، كان يحيل إلى أن تمكنى من عبور شارع سانت هيلير مرة أخرى، واستتجار غرفة في شارع لوازو في فندق «لوازو فليشييه» الحقيقى الذى كانت تتصاعد من مداخله رائحة المطايخ، تلك الرائحة التى أحس بها حتى الآن أحياناً بنفس الإيقاع المتقطع ونفس الحرارة، قد يكون اتصالاً بالعالم الآخر يفرق الطبيعة خرقاً راعياً أكثر من التعرف على جولو أو الحديث مع جشيف دى برايون.

كانت ابنة عم جدى — أى عمى الكبرى — التى تسكن عندها أم العمة ليونى التى لم ترض، منذ أن مات زوجها العم أوكتاف، أن تغادر كومبريه ثم منزلها فى كومبريه، ثم غرفتها، ثم سريرها، وكانت لا «تنزل» أبداً، وتظل راقدة فى حالة غامضة جعلها تستسلم للضعف الجسدى، والمرض، والأفكار المتسلطة، والتقى. كان جناحها الخاص يطل على شارع سان جال الذى يفضى إلى الجرون بيرة (بعكس البقى بيرة) (الحقل الصغير) الخضر الذى يقع وسط للمدينة بين ثلاث شوارع). كان

لذلك الشارع لون واحد مائل إلى الرمادى، وبه ثلاث درجات عالية من الحجر أمام كل بيت تقريباً. كان يبدو كعرض ازياء نظمه ترمى قص الصور القوطية فى الحجر ذاته، وتحت فيه مهلاً أو لحلاً. لم تكن عمى تسكن، فى الواقع، إلا غرفتين متجاورتين، وكانت تفضى فترة بعد الظهر فى أحدهما، بينما تفتح الأخرى للبهية. كانت الغرفتان من تلك الغرف الريفية — فى بعض البلدان، تضيء أو تعطر أجزاء كاملة من الهواء أو البحر اعداد لا تحصى من الحيوانات الصغيرة للغاية — التى تسحرنا بألاف الروائح التى تفوح منها وتظل معلقة فى الجو، روائح القضايل، والحكمة، والعادات، والحياة الغامضة، المعنوية، الفياضة التى لا ترى، روائح طبيعية جداً، بطبيعة الحال، تتلون بلون الزمان كروائح الريف المحاور، ولازمت البيت، وصارت إنسانية منطوية على نفسها، وتحولت إلى مربى للذيدة، مثقنة، صافية، مصنوعة من كل ثمار العام التى غادرت البستان واستقرت فى الحوان، روائح موسمية، لكنها منزلية، تتعلق بالمنقولات، وتصبح لدغة الصقيع الأبيض بحلاوة الخبز الساخن، روائح ممتلئة ودقيقة كساعات القرى، متسككة وعاقلة، لاهية ومنبصرة، مبكرة وتقية، تسعد بسلام لا يأتى إلا بتزيد من القلق وابتذال يستخدمه كاحتياطى شمرى كبير من مر بها ولم يعيش فيها. كان جو الغرفتين مشبعاً بزهرة صمت مغد ولذيد، لدرجة أننى كنت لا أتقدم فيه إلا بنوع من الشراهة، خاصة فى الصباح الباكر البارد

لأسبوع عيد الفصح، حيث كنت أتدوقه بطريقة أفضل لأننى وصلت لنوى إلى كوبريه : قبل أن أدخل وأقول صباح الخير لعمى، كنت انتظر لحظة فى الغرفة الأولى، حيث تأتى الشمس وهى لا تزال باردة لتتلفأ أمام النار المشتعلة بين طوبتين، وتطل الغرفة كلها برائحة الدخان الأسود، ويجعلها أشبه بمقدمة فرن من تلك الأفران الريفية الكبيرة أو برقع مدخنة فى أحد القصور، تمنى أمامهما أن تهب الرياح ويسقط المطر فى الخارج، بل أن تحدث كارثة طوفانية لكى تضاف إلى راحة العزلة شاعرية التشئية . كنت أخطو بضع خطوات من كرمى الصلاة إلى « القوتيات » المكسوة بالخممل، حيث ترى دائماً مساند للرأس مشغولة بالكروشييه . وبينما كانت الروائح الشبيهة تنضج فى النار كالعجين وينشبع هواء الغرفة بها، بعد أن خر... طراوة الصبح المشمسة الندية، كانت الشمس ترققها، وتحمرها، وتذنها، وتنفضها، وتصبغ منها كعكة ريفية ملموسة ولا ترى، « خفية » ضخمة . ولا أكاد أتدوق رحيق الخوان والخرزانة والورق المشجر، وهو أكثر تحميراً، ورقة، وشهرة، وجفافاً، حتى أعود بنهم لا أعترف به، إلى الالتصاق بالرائحة الوسيطة، اللزجة، المائمة، الثقيلة، التى تحمل أثر الفاكهة، رائحة غطاء السرير ذى الزهور .

كنت أسمع فى الغرفة المحاورة عمى وهى تحدث نفسها بصوت خافت. كانت لا تتكلم أبداً إلا بصوت خافت، لأنها تظن أن فى رأسها شيء مكسور عائم قد ينتقل من مكانه لو أنها تحدثت بصوت عال . كانت تقول دائماً شيئاً ما، حتى لو كانت بمفردها، لأنها تعتقد أن ذلك مفيد لخلقها، وأنها ستقل من الاختناقات والقلق الذى تعاني منه، لو حالت دون توقف الدم فيه. كانت تولى أحاسيسها أهمية غير عادية، فى حالة الجمود التام التى تعيش فيها، وكانت هذه الأحاسيس تمنحها قدرة على الحركة يصعب أن تحتفظ بها لنفسها . ولانفتارها إلى وجود شخص تحدته عنها، كانت تعلقها لنفسها فى مونولوج لا ينقطع ويعتبر الشكل الوحيد لنشاطها. ولسوء الحظ، كانت لا تنجبه دائماً إلى وجود شخص آخر فى الغرفة المحاورة، لأنها اعتادت التكبير بصوت عال . وكثيراً ما كنت أسمعها تقول لنفسها : « لابد أن أتذكر جيداً أننى لم أُم » ( لأنها كانت تدعى دائماً أنها لاتنام، وكنا فى كلامنا جميعاً نحترم هذا الادعاء ونحفظ بآثره : فى الصباح، كانت فرانسواز لا تأتى « لايقاظها »، وأنا « تدخل » غرفتها. وعندما كانت عمى تريد النوم أثناء النهار، كنا نقول أنها تريد أن « تفكر » أو « ترتاح » . وعندما كانت تنسى نفسها فى الحديث حتى تقول : « إن ما أيقظنى »، أو « حلمت أن »، كان وجهها يحمر، وتندارك الأمر بأسرع ما يمكن ) .

كنت أدخل وأقبلها . كانت فرانسواز تعد لها الشاي وكانت تطلب شراباً ساخناً بدلاً منه إذا أحست أنها مضطربة ، وكنت أكلف أنا بوضع كمية الطيب التي يجب أن توضع في الماء المغلي في طبق ، وكان جفاف العيدان قد قوسها وجعل منها عريشة غير منتظمة تنفتح في مشبكاتها الزهور الشاحبة ، كأن رسماً نعلها ، وجعلها ثقف أمامه بطريقة زخرفية للغاية . ولأن الأوراق كانت قد فقدت شكلها أو غيرته ، كانت تبدو كأشياء متنافرة للغاية ، جناح ذبابة شفاف أو ظهر بطاقة بيضاء أو ورقة وردة ، أشياء تكومت مع ذلك ، وتفتت ، وجدلت كما لو كانت تنبئ حشاً . كانت آلاف التفاصيل الصغيرة التي لا تجلى — ياله من تبذير ذلك الذي قام به الصيدلي ١ — والتي يمكن أن تستبعد من التركيبة المصطنعة ، تمنعني ككتاب ندهش أمامه لأننا نجد فيه اسم شخص نعرفه . فهي تجعلني أفهم أن الأمر يتعلق حقاً بعيدان تليو حقيقي ، كذلك التي كنت أراها في شارع المحطة ، لكنها تغيرت . فهي ليست صورة طبق الأصل من تلك العيدان ، وإنما العيدان نفسها بعد أن شاخت . ولأن كل سمة جديدة فيها لم تكن إلا تحولا لسمة قديمة ، كنت أتعرف في الكرات الرمادية الصغيرة على البراعم الخضراء التي لم تنضج والبريق الوردى ، القمري ، الناعم الذي كان يجعل الأزهار تبرز في غابة العيدان الواحية ، حيث حلقت مثل ورود الذهبية الصغيرة — وهذا دليل على الفرق بين أجزاء الشجرة التي تلونت وأجزائها الأخرى التي لم تلون ، شأنها في ذلك شأن الفموة التي يكشف فوق الجدار عن مكان لوحة زالت — كان يثبت لي أن هذه الأوراق هي حقاً تلك التي عثقت رائحتها لأمسيات الربيع ، قبل أن تزين كيس الصيدلية التي ضمها . وكان لهذه الشعلة الوردية ، شعلة الشمعة ، لون تلك الأوراق أيضا ، لكن بعد انطفائها جزئيا ، ونومها في الحياة الناقصة التي تحياها الآن ، حياة كأنها غسق الزهور . بعد ذلك بقليل ، كان بوسع حتى أن تغمس في الشراب المغلي الذي تندوق فيه طعم الأوراق الميتة أو الأزهار الذابلة ، وما دلت به صغيرة تقدم لي قطعة منها ، بعد أن طين بما فيه الكفاية .

كانت توجد بجوار سريرها خزانة كبيرة صفراء من خشب الليمون ، ومائلة تحتل مكانا وسطاً بين الصيدلية ومذابح الكنيسة . وكانت توجد ، تحت تمثال صغير للعدراء وزجاجة بها ماء فيشي ، كتب القديس وروشتات الأطباء ، أي كل ما يلزم لكي يتابع المرء القديس والريجم ، لكي لا تفوته ساعة لليسين أو ساعة صلاة

العصر. وكان الجانب الآخر من سرير عمى يحاذى النافذة ، فكانت ترى الشارع ، وتقرأ فيه تاريخ كومبريه اليوم ، من الصباح حتى المساء ، لكي تنفص عنها الملل على طريقة أمرا فارس ، وإن كانت ذاكرتها لا تحفظ ذلك التاريخ ، ثم تعلق عليه مع فرانسواز .

لم أكد أمضى مع عمى خمس دقائق حتى طلبت مني الرحيل ، خوفاً من أن أتعيا ، ومدت لشفنى جبينها لخزين الشاحب ، ولم تكن قد صفت شعرها المستعار بعد في هذه الساعة المبكرة من الصباح . لذا بدت فقراته كأسنان تاج من الشوك أو حبات مسبحة ، وقالت لي : « هيا يا صغيري ، إذهب واستعد للقداس وإذا التقيت بفرانسواز ، قل لها بالآ تلهو معك مدة طويلة ، وتصد بعد قليل ، ل ترى ما إذا كنت في حاجة إلى شيء » .

كانت فرانسواز قد التحقت بخدمة عمى من عدة سنوات. ولم تكن تنوع آنذاك أنها ستعمل عندنا طول الوقت ذات يوم . لذا ، كانت تهمل عمى بعض الشيء في الشهور التي تكون فيها في كومبريه . وجلدت في طفولتي فترة لم أعرف خلالها فرانسواز إلا قليلا — حدث ذلك قبل أن نذهب إلى كومبريه ، عندما كانت العمة ليوني لا تزال تقضي فترة الشتاء في باريس عند أمها — ، لدرجة أن أي كانت تضع في يدي في رأس السنة خمسة فرنكات قبل أن أدخل على عمى ، وتقول لي : « حذارى أن تغلط إلا تعطها إياها الا عندما تسمعي أقول : « صباح الخير يا فرانسواز » وفي الوقت نفسه سألمس ذراعك لمسا خفيفاً » . كنا لا نكاد نصل إلى المدخل المظلم الذي يؤدي إلى غرفة عمى حتى نلمح في الظلام ، تحت تجاعيد غطاء رأس لامع ، صلب ، خفيف كأنه السكر المفقود ، دوامات دائرية ترسمها ابتسامة امتنان مسبق . تلك كانت فرانسواز ، تقف بلا حراك في إطار باب الممر الصغير كأنها تمثال قديسة في حنيته . كان المرء ، إذا ألف قليلا هذه الظلمات الكنسية ، يتبين في وجهها حب الانسانية المنزه عن الغرض ، والاحترام الخنون للمطبقات العليا ، يبعثها في أفضل مناطق قلبها الأمل في هدايا رأس السنة . كانت أي تشد ذراعي بعنف ، وتقول بصوت عال « صباح الخير يا فرانسواز » . وعند صدور هذه الإشارة ، كنت أفتح أصابعي وأسقط قطعة النقود في يد خجولة تمتد لتلقاها . لكني لم أعرف أحداً كما عرفت فرانسواز ، بعد أن اعتدنا الذهاب إلى كومبريه . كنا المفضلين لديها ، وكانت تكن لنا في السنوات الأولى على الأقل ، عاطفة أقوى ، وذات الاحترام الذي تكنه لعمى ، لأننا كنا نضيف إلى هيئة اثنتائنا إلى الأسرة ( كانت تكن

للروابط الالامرية التي تعقدنا دورة الدم الواحد بين افراد الأسرة الواحدة ،  
إحتراما يعادل إحترام كاتب المأساة الاغريق لها ) ، سحر كوننا سادتها المؤقتين  
( لا المعتادين ) . لذا ، كانت تستقبلنا بفرح بالغ ، وتأسف لأن الجو لم يتحسن بعد  
وصولنا ليلة عيد الفصح ، حيث كانت تهب بريح باردة في كثير من الأحيان ،  
عندما كانت أى تسالنا عن أخبار ابنتها وابناء اخيها ، وما إذا كان حفيدها لطيفاً ،  
وأى مهنة سيختارها فيما بعد ، وما إذا كان يشبه جده .

كانت أى التي تعرف أن فرانسواز لا تزال تبكى ولديها اللذان ماتا منذ  
سنين ، تحادثها عنهما برقة بعد أن يتصرف الجميع ، وتسألها عن ألف من تفاصيل  
حياتها .

وأحست أى أن فرانسواز لا تحب زوج ابنتها ، وأنه يفسد عليها متعة وجودها  
مع ابنتها . فكانت لا تستطيع أن تتحدث معها بحرية في وجوده . لذا ، كانت أى  
تقول وهي تبسم ، عندما تذهب فرانسواز لزيارتهم ، في مكان يبعد بضعة  
فراسخ عن كومبريه : « ستأسفين يا فرانسواز إذا وجدت أن جوليان قد اضطر  
الى الخروج ، وأنتك ستبقين وحلك مع مارجريت طول النهار ، أليس كذلك ؟  
لكلك مستسلمين للأمر » . عندئذ كانت فرانسواز تقول وهي تضحك : « سيدتى تعرف  
كل شئ سيدتى أحسن من أشعة لكس ( كانت تقول هذه الكلمة بصعوبة مفتعلة  
وهي تبسم لتسخر من نفسها ، هي الجاهلة ، ومن استخدمها هذه الكلمة العلمية )  
التي أتوا بها للدماء اوكتاف ، وترى ما في قلوب الناس » ثم تخفض ، خجلة لانشغال  
الآخرين بها ، ربما لأنها لا تريد أن يراها أحد وهي تبكى . كانت أى أول شخص  
يثير فيها هذا الاحساس الخلو ، الإحساس بأن حياتها ، وافراحها ، وأحزانها ، هي  
الفلاحة ، يمكن أن تكون على قدر من الأهمية ، وأن تكون مدعاة حزن أو فرح  
لشخص آخر غيرها . وكانت حتى تستسلم للحرمان من فرانسواز قليلاً أثناء إقامتنا  
لأنها كانت تعلم إلى أى مدى تقدر أى هذه الخادمة اللذيذة النشطة ، التي كانت  
تبدو جميلة في مطبخها ، في الخامسة صباحاً ، تحت غطاء رأسها بمرجاته الالامة  
الثابتة التي تبدو وكأنها قد صنعت من « البسكويت » كما لو كانت صاحبة ذاهبة  
إلى القدامس الكبير . كانت فرانسواز تفعل كل شئ على أكل وجه ، وتعمل  
كالخصان ، سواء كانت صحتها جيدة أم لا ، تعمل في صمت وكأنها لا تعمل  
شيئاً ، كانت الوحيدة ، بين خلع عتي ، التي تحضر الماء ساخناً حقاً ، والقهوة

السوداء ساخنة حقاً ، إذا ما طلبتهما منها أى. كانت فرانسواز من أولئك الخلم الذين لا يعجبون الغرباء كثيراً لأول وهلة ، ربما لأنهم لا يكلفون خاطرهم ويحاولوا أن يأسروهم أو يحيطوهم بعنايتهم ، لأنهم يعلمون حق العلم أنهم لن يحتاجوا إليهم قط ، وأن أهل الدار قد يكفون عن استقبال أولئك الغرباء بدلا من أن يطردوهم. كانت فرانسواز ، في الوقت نفسه ، من أولئك الخلم الذى يتمسك بهم إلى أقصى حد السادة الذين اختبروا قدراتهم الحقيقية ، ولا يبهون بالزخرف السطحي ، والثروة الدنيا التى تترك في الزائر أثراً حسنا ، وتبقى ورامها ، في أغلب الأحيان ، جهلا يصعب تقويمه .

كانت فرانسواز تصعد مرة أولى إلى غرفة حمى لتعطيها البيسين ، وتسألها عما تريد للغداء ، بعد أن تتأكد أن والدى لا يريدان شيئا . وكان من النادر ألا تضطر إلى إبداء رأيها في حدث هام أو تفسيره .

« تخيل يا فرانسواز أن مدام جوبى مرت متأخرة ربع ساعة عن موعدنا لتطحن بأختها ، وإذا تلكأت قليلا في الطريق ، متصل حيا بعد رفع كأس القربان ولن يدهشني ذلك » . ردت فرانسواز قائلة :

« - طبعاً . لن يكون في ذلك مدعاة للدهشة » .

لو إنك جئت من خمس دقائق ، يا فرانسواز ، لرأيت مدام امبير تحمل هليوناً حجمه ضعف حجم الذى يجده عند مدام « كالو » . حاولي إذن أن تعرفي من خادماتها من أين اشتريته . وما دمت قد بدأت تطهين لنا هذا النوع من الخضرة على كل شكل ولون ، يمكن أن تحصل على مثله ، وتعديبه لضيوفنا » . قالت فرانسواز :

« - ولن اندهش إذا علمت أنها أحضرت من عند الخورى » . قالت حمى وهى تهز كتفها :

« آه . تريدن أن أصدق ، يامسكينة ، أنه من عند الخورى ؟ تعلمين حق العلم أنه لا يزرع سوى هليوناً صغيراً حقيراً . قلت لك إن الهليون الذى رأيته في حجم الدراع لا ذراعك أنت ، بطبيعة الحال ، وإنما ذراعى أنا المسكين ، الذى ازداد رفعاً هذا العام . أو لم تسمعي يا فرانسواز تلك الأجراس التى اصابتني بالصداع ؟ »

— ولا ، يامدام اوكتاف .

— وآه يا ابنتي المسكينة . لاشك أن رأسك صلب ، وعليك أن تشكرى الله على ذلك . إنها الأم ماجلون جاءت لاصطحاب دكتور بيبروه الذى خرج معها فى الحال ، وانطفئ الاثنان فى شارع لوازو . لا بد أن هناك طفل مريض ! تهتدت فرانسواز وقالت :

— وماذا ! يا الهى ! لأنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من الأتني ، إذا سمعت أن مصيبة حلت بشخص ما لا تعرفه ، ولو فى منطقة نائية من العالم .

— لكن ، قولى يا فرانسواز ، لمن دقت إذن أجراس الموت ؟ آه ! يا الهى الاشك أنها دقت لمدام روسو . ها أنذا قد نسبت أنها ماتت الليلة . الماضية . آه ! لقد آن الألوان لكى يستدعينى الله إلى جواره ! لأدري ما الذى حدث لرأسى ، منذ أن مات أوكتاف المسكين . لكنى اضيق وقطع يا ابنتي .

— ولا ، يامدام اوكتاف ، وقى ليس ثميناً إلى هذا الحد . والذى خلقنا لم يبعه لنا . سأذهب لأرى فقط إذا كانت النار قد انطفأت .

هكذا كانت فرانسواز وعنى تقيان معاً أولى أحداث النهار ، فى هذه الجلسة الصباحية . وكانت الأحداث تتخذ أحيانا طابعاً غامضاً خطيراً للدرجة أن عنى كانت تشعر أنها لن تستطيع الانتظار حتى تصعد فرانسواز . عندئذ ، كنا نسمع دقات جرس هائلة تدوى فى البيت وتقول فرانسواز :

— لم نكن ساعة الليسين بعد ، يامدام اوكتاف . هل تشعرين بألم ؟ وتقول عنى :

— لا ، يا فرانسواز . تعرفين جيداً أن اللحظات التى لا تألم فيها قليلة . سأمنى ذات يوم مثل مدام روسو ، بدون أن أجِد الوقت اللازم للتعرف على نفسى . لكننى لم أدق بلجرس هكذا السبب . هل تصديق أنى رأيت الآن لنوى ، كما أراك الآن أمى ، مدام جوبى مع فتاة صغيرة لا أعرفها ؟ إذعبي واشترى بعض الأملح من عند كامو ، ولا شك أن تيودور سيقول لك من تكونه . قالت فرانسواز التى كانت تفضل الاكتفاء بتفسير مباشر ، لأنها ذهبت مرتين إلى محل كامو ، منذ الصباح :

— « لا شك أنها ابنة مسيو بويان » .

— « ابنة مسيو بويان ؟ . وتريدين أن أصدقك يامسكينة ، لو كانت هي لعرفتها » .

— « لكنى لا أقصد بها ابنته الكبرى ، يامدام اوكتاف ، بل الصغرى التى تدرس فى مدرسة داخلية فى جوى . يخيل إلى أننى رأيتها صباح اليوم » . قالت حمى :

— « يجوز . لا بد أنها جاءت لقضاء فترة الأعياد . هنا هو . لا داعى للبحث والتقصى ، لا بد أنها جاءت لقضاء فترة الأعياد . يمكن إذن أن نرى بعد قليل مدام سيزراه وهى تدق باب اختها لتناول الغداء . فلقد رأيت الصبي الذى يعمل عند جالويان يحمل «تورته» . سترين أن «التورته» كانت ذاهبة إلى مدام جوى » . قالت فرانسواز وهى تريد أن تنزل بسرعة لإعداد اللداء ، وسرها أن ترك لعمى هذه التسلية المرتقبة :

— « مدام اوكتاف ، مادامت مدام جوى تنتظر ضيوفاً ، سترين الجميع يعدون بعد قليل لتناول الغداء ، لأن الوقت بدأ يتأخر » .

قالت حمى : « اوه ! لن يكون ذلك قبل الثانية عشرة » ، بلهجة مستسلمة ، وهى تلتق إلى الساعة نظرة خاطفة قلقة ، لكنى لا يرى أحد أنها تجد متعة كبرى فى معرفة أن مدام جوى تنتظر ضيوفاً على الغداء ، لذة ستظل تنتظرها أكثر من ساعة ، للأسف ، فى حين تنازلت هى عن كل شئ . وأضافت بصوت خافت كأنها تخاطب نفسها : « وسيحدث ذلك فى الوقت الذى أتناول فيه غدائى » . وكان غداؤها يمثل فى نظرها تسلية كافية بحيث لا تمنى تسلية أخرى معها : « لا تنسى على الأمل أن تقضى لى البيض بالكريمة فى طبق مسطح » . وكانت هذه الأطباق هى الوحيدة التى تزينها موضوعات . فكانت حمى تسلى ، عند تناولها كل وجبة ، بقراءة موضوع الطبق الذى يقدم لها . كانت تضع نظارتها على عينها ، وتفك رموز على بابا والاربعين نصاً وعلاء الدين والمصباح السحرى ، وتقول وهى تبسم : « جميل جداً ! جميل جداً ! » :

وعندما رأت فرانسواز أن حمى لن ترسلها إلى كامو ، قالت : « كان يودى أن أذهب إلى كامو . . . »



« لا ، لا داعي لأن تذهبي ، لا بد أنها مد موازيل يوبان . آسف يا فرانسواز ، إذا كنت قد طلبت منك الصعود بلا داعي ،

لكن إني كنت تعلم ، أعلم اليقين أنها نادت فرانسواز للداع ، لأن الشخص الذي لا يعرف الناس ، في كومبريه كان أشبه بالهة الأساطير ، لا يؤمن الناس بوجوده . وبالفعل ، يذكر أهل كومبريه أن في كل مرة ظهرت فيها في شارع الروح القدس أو في الميدان ، إحدى هذه الرؤى المذهلة : أجريت أبحاث دقيقة انتهت إلى إعطاء الشخصية الأسطورية نسب « شخصية معروفة » إما شخصياً ، إما تجريبياً ، من حيث الحالة المدنية ، أى من حيث درجة قرابتها بـ سكان كومبريه . كان هذا ابن مدام سوتون العائد من الخيمة العسكرية ، وتلك ابنة أخت الأب بردروه الخارجية من الدير ، وذلك أخو الخورى ، وهو محصل ضرائب شاتودان ، أحيل أخيراً إلى التقاعد أو جاء لقضاء فترة الاعياد . ظن الناس ، عندما رأوهم ، أن في كومبريه أناس غير معروفين ، لمجرد أنهم لم يتعرفوا عليهم في الو اللحظة في حين أن مدام سوتون والخورى كانا قد أعلننا مقلعاً من مدة ، أنهما ينتظران بعض المسافرين . وفي المساء ، عندما كنت أصدد إلى غرفة عتي ، بعد عودتي من التزهة ، لأحلبها عنها ، كانت إذا اخطأت وقلت لها أننا التقينا ، بالقرب من الجسر القديم ، برجل لا يعرف جدى ، تصبح قائلة : « رجل لا يعرفه جلدك ؟ وتريد أن أصلحك ؟ » ومع ذلك ، كانت تتأثر قليلاً بالخبر ، وتود أن تطلع على جليلة الأمر ، وتطلب جدى وتسأله : « بمن التقيتم بالقرب من الجسر القديم يا عني ؟ برجل لا تعرفه ؟ » — « لا ، التقينا » بروسير أخو يستانى مدام بوييف فكانت عني تقول ، وقد اطمأنت ولحمر وجهها قليلاً : « آه حسن . » وتضيف بإسماعلة ساخرة وهي تهز كتفها : « لقد قال لي أنكم التقيتم برجل لا تعرفونه . » عندئذ ، كنت أثبتى توصية بأن أكون أكثر حذراً في المرة القادمة ، وألا ألقى عني بكلمات رعتاء . فالجميع ، البشر والحیوانات ، كانوا معروفين في كومبريه لدرجة أن عني كانت لا تكف عن التفكير في كلب « لا تعرفه » رأته يمر صدفة وتكرس لهذه الواقعة الغامضة موهبتها الاستقرائية وساعات فراغها .

كانت فرانسواز تقول عندئذ : « بلا اقتناع إلهة الجو ولكي ، لا يصاب رأس عني بالصداغ : « لا بد أنه كلب مدام سيزراه » وكانت عني ترد قائلة ، لأن روحها الميالة إلى النقد لا تسلم بالأمر بسهولة : « كأنني لا أعرف كلب مدام سيزراه

— «آه ، لابد أنه الكلب الحديد الذى احضره مسيو جوليان من ليزبوة!»

— «يمكن» . وكانت فرانسواز تضيف هذه المعلومة التى نقلها إليها تيودور:

— ويبدو أنه كلب لطيف جداً للاح كالانسان ، صافى المزاج دائماً ، ودود دائماً ، فيه شئٌ ظريف دائماً . من النادر أن يكون حيوان فى هذه السن الصغيرة على هذا القدر من الأدب . لكن يجب أن أذهب يامدام اوكتاف ، فالوقت لا يتسع للهو ، والساعة اقتربت من العاشرة ، ولم أشعل القرن أو انظف الحليون بعد » .

— «وماذا ؟ هليون مرة أخرى ؟ لقد أصبت بمرض الحليون حقاً ، هذا العام ! ستعين به زوارنا الياريسين » .

— « لا ، يا مدام اوكتاف ، فهم يحبون هذا الصنف . سيعودون من الكنيسة وقد افتتحت شهيتهم ، وسوف ترين أنهم سيأكلون الحليون بنفس مفتوحة » .

— « ولا بد أنهم الآن فى الكنيسة . ويستحسن ألا تضيعى الوقت . هيا ، لنذهب ، وراقبى ما تعدينه للغداء » .

وبينما كانت حتى تتحدث هكذا مع فرانسواز ، كنت أذهب مع والدتى إلى القديس . كم كنت أحبها ، وكم أراها الآن جيداً ، كنتينا . كان مدخلها المسقوف القديم أسوداً ، مجرداً كالمنصفاة ، منحرفاً ومجوفاً عيقاً عند الزوايا ( كذلك وعاء الماء المقدس الذى يؤدى إليه ) ، كأن لمس معاطف الفلاحات الرقيق له . ومن داخلات إلى الكنيسة ، ولمس أصابعهن الخجلة ومن يأخذن الماء المقدس ، قد جعلاه يكتب قوة هدامة على مر السنين ، قوة تجعل الحجر يميل ، وتشق فيه أخاديد كذلك التى ترسمها عجلات العربات على علامات الطريق التى تصطلم بها كل يوم . كانت شواهد الكنيسة التى دفن تحفاً قساوسة كومبريه الذين تمولوا إلى تراب نبيل قد جعلت للخورس ارضية روحية ، ليست مادة جاملة صلبة فى حد ذاتها ، لأن الزمن اكسبها نعمة ، وأسأل شيئاً أشبه بالصل خارج حدود مريماتها التى تجاوزتها فى موجة شقراء ، نجر ورائها حرفاً غوطياً كبيراً مزهراً ، وتغرق زهر البفسج المرمرى الأبيض . وفى مكان آخر ، انخفضت الشواهد وراء هذه الحدود ، فزادت من تقلص الكتابة اللاتينية المختصرة ، وأدخلت نزوة إضافية على وضعها ، وقربت حرف كلمة تباعدت حروفها

الأخرى كثيراً . كان زجاج الكنيسة لا يتأكل أبداً كما يتأكل في الأيام التي تسطع فيها الشمس قليلاً . كنا متأكدين دائماً أن الجو سيكون جميلاً في الكنيسة ، مهما تلبدت السماء بالغيوم في الخارج . كانت تشغل مساحة أحد الألواح الزجاجية الملونة شخشة واحدة تشبه ملك اوراق اللعب ، تعيش في الجزء العلوى ، تحت مظلة معمارية ، بين السماء والأرض ( كانت مدام سيزراه تركع لحظة ، وتضع على كرسى الصلاة المجاور لها ربطة « البيبي فور » التي اشترته من الجاوانى المقابل للكنيسة توا ، ومستعود به ليقدم بعد الغداء ، في انعكاسات هذا اللوح المائلة . إلى الزرقه ، في أيام الأسبوع أحياناً ساعة الظهيرة ، في غير ساعات الصلاة ، في واحدة من تلك اللحظات النادرة التي تبدو فيها الكنيسة خفيفة ، فارغة ، فائقة ، وأكثر إنسانية وتكسو فيها الشمس أثارها النين ، وتبدو فيها قابلة للسكنى ، كدخل فندق يرجع إلى العصور الوسطى ، منحوت بالحجارة وملون الزجاج) . وفي لوح زجاجى آخر ، جبل من الجليد الوردى ، تدور تحت سفحه معركة ، ويبدو كقطعة جليد خفيفة تكونت مباشرة على الزجاج ، ونفخته بحباتها المضطربة ، كأنه لوح زجاجى علق به بعض الندائف ، لكنها تلبث ينيرها الفجر ( ولا شك أنه نفس الفجر الذى يصيغ رافنة المذبح بلون ارجوانى من النضرة بحيث يبدو وكأن نوراً خارجياً يوشك على الزوال قد وضعه هنا مؤقتاً ، ولم تضعه الوان ارتبطت بالحجر إلى الأبد). كان زجاج النوافذ الملون كله من القدم بحيث كانت ترى هنا وهناك شيوخوخة فضية تتألق برأب السنين ، وتكشف عن نسيجه الناعم ، اللامع ، البالى . كان أحد هذه الألواح مكوناً من مساحة عالية مقسمة إلى مئات من قطع الزجاج المستطيلة الملونة التي يسيطر عليها اللون الأزرق ، ويشبه اوراق لعب كبيرة كذلك التي كان يتسلى بها الملك شارل السادس . وسواء لمع شعاع ، أم مر بصرى وهو يتحرك عبر اللوح الزجاجى الذى ينطق ويشتعل تبعاً في حريق متحرك نين ، كان ذلك اللوح يتألق في اللحظة التالية كذيل الطاووس ، ثم يرتجف وهو موج بحبات مطر مشتعلة خيالية تقطر من أعلى القبو الحجرى ، القائم ، بطول الجدران ، كأننى وأنا اتبع والذى اللذان يحملان كتاب الصلوات في جناح مقبرة تبحث فيها المقرنصات المتلوية ألوان قوس قزح . كانت المعينات الزجاجية الصغيرة تتخذ ، بعد ذلك بلحظة ، شفافية عميقة وصلابة لا تنكسر يتميز بها الياقوت الأزرق ، كأن حباته قد وضعت بعضها بجوار بعض في عقد كبير . لكننا كنا نشعر بخطفها . بايتسامة شمس عابرة أحب إلينا من هذه الثروات كلها . وكان يمكن التعرف على هذه الإيتسامة من الموجة الناعمة الزرقاء التي تغمر

الأحجار الكريمة أو بلاط الميدان ، أو قش السوق على حد سواء . حتى في أيام الأحد ، عندما كنا نصل قبل عيد الفصح ، كنت أتعزى ، إذ أرى أن الأرض لا تزال عارية سوداء ، بالسجادة الذهبية الباهرة المكونة من الزهور الزجاجية المضطحة ، كأننا في ربيع تاريخي يرجع إلى عهد خلفاء القديس لويس .

كانت لوحتان جداريتان تمثلان تنويع استير ( تقول الأسطورة أن الرسام أعطى احشوروش ملامح أحد ملوك فرنسا ، وأعطى استير ملامح صيدة من جبرمونت . يقال أنه كان مغرماً بها ) . وكانت ألوانهما قد أضافت اليهما ، بعد أن ذابت ، تعبيراً وبروزاً ، وإضاءة : كان شيء من اللون الوردي يسبح فوق شفقي استير ويتجاوز حدودهما . وكان لون ثوبها الأصفر يمتد بسخاء وطلاوة يجعله يكتب شيئاً من التماسك ، وبرز فوق الجوف الذي تراجع إلى الوراء . كانت خضرة الشجر قد ظلت حية في الأجزاء السفلية من اللوحة الصوفية الحريرية . ولأنها « هتت » في الجزء العلوي ، كانت تبرز بلون افتح ، فوق الجدوع اللامكنة ، الأغصان العالية المصفرة للذهب ، وتكاد تكون قد عمها إشراقة شمس ماثلة لا ترى . كل هذا ، بل والأشياء الثمينة التي أتت بها إلى الكنيسة شخصيات شبه أسطورية في نظري ( الصليب الذهبي الذي يقال إن القديس ايلواه قد صاغه ، ومنحه داجوير للكنيسة ، ومقبرة أبناء لويس الحرمانى المصنوعة من حجر السياق والتحامس المطعم بالميناء ) ، كان يجعلني اتقدم في الكنيسة ، ونحن في طريقنا إلى مقاعدنا ، كما لو كنت في وادي زارته الساحرات ، ويعجب الفلاح إذ يرى فيه ، في الصخرة أو الشجرة أو البركة ، أثر هذه المخلوقات الخارقة المحسوس . كان كل هذا يجعلني أرى في الكنيسة شيئاً غطفاً تماماً عن باقي المدينة : فهي مبنى يشغل فضاء بأربعة أبعاد ، والبعد الرابع فيه هو الزمان ، ويبسط عبر القرون سفينة تبدو ، من بائكة إلى بائكة ومن مصلى إلى مصلى ، وكأنها تعبر وتهم ، لا بضعة أمتار فقط ، وإنما عصوراً متتالية ، وخرجت منتصرة من المعركة . كانت الكنيسة تحق القرن الحادى عشر الحشن الجفول في جدرانها السميكه ، ويجعلها لا يظهر بمقدوره الثقيلة التي تسدها الأحجار الغليظة إلا من خلال الشق العميق الذى يحفره السلم المؤدى إلى برج الأجراس ، بالقرب من المدخل . وحتى في هذا المكان ، كانت البائكات الطولية التي تتراحم ودلالاً أمامه ، تخفيه وكأنها اخوات كبيرات يقفن مبتسمات أمام أخ يصفرهن سنّاً ، غير مهتدم وفض ، كى لا يراه الغرباء . كانت الكنيسة ترفع في السماء ، فوق الميدان ، برجها الذى شهد سان لويس ولا يزال ، لها

يدو . كانت تغوص بقبوها في ليل العصور الوسطى . وكان تيودور وأخته يرشداننا وهما يتحسنان طريقهما ، تحت القبة المظلمة المربعة التي تشبه جناح خفاش ضخم من الحجر ، ويمسكان بشفعة تنير لنا مقبرة خفية سيحسب ، ويقولون إن « مصباحاً بالوردياً حفر فيها صدقة عميقة — كأنها أثر شيء متحجر — ، وكان المصباح قد انفصل من تلقاء نفسه عن السلاسل النهمية التي علق فيها ، في الليلة التي قتلت فيها الأميرة ، وذلك في المكان الذي يوجد فيه صدر الكنيسة حالياً . وبدون أن يتكسر البللور ، أو تنطفئ الشعلة ، غاص المصباح في الحجر ، وجعله يرق ويأين تحته .

وهل يمكن الحديث حقاً عن صدر كنيسة كومبريه ؟ لكم كان خشناً ، وخالياً من أي جمال فني ، بل من أي انطلاقة دينية ! وكان تقاطع الشوارع التي تطل عليها الكنيسة في مستوى أدنى . لذا ، كان جدارها الخشن يرتفع فوق قاعدة حجرية لم تصل قط ، شائكة ، لا تتسم بأي سمة كنسية خاصة . كانت التوافد تبدو مرتفعة ارتفاعاً مبالغاً فيه . وكان كل هذا أشبه بجدار السجن منه بجدار الكنيسة . وعندما تذكرت فيها بعد صدور الكتائس المحبلة التي رأيتها ، لم تخطر ببالى قط فكرة مقارنتها بصدر كنيسة كومبريه . لكنني لحت ذات يوم ، عند منعطف شارع ريفي صغير أمام تقاطع ثلاث شوارع صغيرة ، جداراً بسيطاً عالياً ، شقت في أعلاه بعض التوافد وله نفس الشكل اللامتوازي الذي رأيته في صدر كنيسة كومبريه . عندئذ ، لم أشأ أن أكافل في شارتر ورائس عن القوة التي يعبر بها عن الإحساس الديني ، لكنني صحت بطريقة لا إرادية : « الكنيسة » !

الكنيسة الأليقة ! كانت تمحلى في شارع سانت هيلير الذي يطل عليه بابها الشمالي مكاناً وسطاً بين جارتها ، صيدلية مسيو رابان ودار مدام لوازو التي تلامسها بدون أن يكون بينهما أي فاصل . كانت مجرد مواطنة في كومبريه . وكان يمكن أن يكون لها رقم في الشارع ، لو كان لشوارع كومبريه أرقام . ويبدو أنه كان على ساعي البريد أن يقف عندها في الصباح ، عندما يوزع رسائله ، وهو خارج من عند مسيو راين ، قبل أن يدخل دار مدام لوازو . ومع ذلك ، كان يوجد بينها وبين كل ما عداها خط فاصل لم يتوصل فكرى إلى تخطيه أبداً . كانت مدام لوازو تضع على نافلتها زهور الفوشيا التي انفلتت عادة سيئة : أن تدع فرووها تجرى دائماً في كل مكان ، منخفضة الرأس . ولم يكن أمام تلك الزهور ، عندما تكبر بما فيه الكفاية ، شيء عاجل أكثر من ترطيب وجناتها النفسجية المختنئة فوق واجهة الكنيسة الصارمة . وبالرغم من كل هذا لم تكن الفوشيا مقلعة في نظري . كان فكبرى

يحفظ بهوة سحيفة تفصل بين الزهور والحجر المسود الذى تستند اليه ، حتى لو كانت عيناي لا تريان أى مسافة بينهما .

كان برج أجرام سانت هيلير يعرف من بعيد جداً ، ويرسم وجهه الذى لا ينسى فى الأفق الذى لم تظهر فيه كومبريه بعد . كان والدى يقول لنا ، ونحن فى القطار الاى يقلنا من باريس ، فى أسبوع عيد الفصح ، عندما يراه يمرق المرة تلو الأخرى فوق أخاديد السماء ويدع ديكه الحديدى يجرى فى كافة الاتجاهات : « هيا ، خلوا الأغطيه » لقد وصلنا 1 « وفى واحدة من أطول التزهات التى كنا نقوم بها فى كومبريه ، كان يوجد مكان يفضى فيه الطريق الذى يقضى فجأة إلى هضبة ضخمة تسدها عند الأفق غابات ممزقة لا يرتفع فوقها إلا رأس برج أجرام سانت هيلير الرفيع . لكنه كان رفيعاً ، ووردياً ، لدرجة أنه كان يبدو كما لو كان قد خط فى السماء بظفر . أراد أن يعطى لهذا المنظر الطبيعى وهذه اللوحة الطبيعية فحسب ، لمسة فنية صغيرة ، وإشارة بشرية فريضة .

وعندما كان المرء يقترب ، ويستطيع أن يرى بقية البرج المربع المهلم تقريباً ، الذى ظل بجواره ، وإن كان أقل لإرتفاعاً ، كان يلتفت نظره بصفة خاصة لون الحجارة الداكن المحمر . وفى أيام الخريف الغائمة ، كان يشبه فى الصباح وهو يرتفع فوق لون الكروم البنفسجى العاصف ، أطلالا أرجوانية تكاد تتخذ لون الكرم البكر .

وكثيراً ما كانت جلقى توقفت أمامه ، فى الميدان ، لتأمله ونحن جالدين إلى البيت . ومن نوافل البرج التى وضعت كل واحدة منها بجوار الأخرى ، وضعت بعضها فوق بعض ، بتلك النسب الدقيقة المبتكرة فى المسافات التى لا تضنى جلالاً وجلالاً على وجه البشر فقط ، كانت تنطلق وتسلط ، على فترات منتظمة ، أسراب من الغربان ، تدور لحظة وهى تصرخ ، كأن الأحجار القديمة التى تدعها ترحم ولا تراها ، فيها يبدو ، قد أصبحت فجأة غير قابلة للسكنى ، وإنطلق منها مبداً لضطراب لانهاى جعلها تصيب تلك الأمراب وتلفظها . كانت الغربان ، بعد أن تخطط فى كافة الاتجاهات تحمل الهواء الليلى البفسجى ، وتبدأ فجأة ، تعود إلى الإستغراق فى البرج الذى يصبح صديقاً بعد أن كان عدواً .

كان بعض الغربان يبدو بلا حراك ، هنا وهناك ، وربما يختطف حشرة تقف على قمة قبة صغيرة ، كما يقف النورس ثابتا كالصياد على قمة الموجة . وبدون أن تعرف للذلك سبباً ، كانت جلتى ترى أن برج أجراس سانت هيلير خالياً من الإبتدال ، والغرور والخسة ، وكان ذلك يجعلها تحب أعمال العاقرة والطبيخة التي لم تنتقص منها يد الإنسان شيئاً — كما فعل البستاني الذى يعمل عند حصى الكبرى — وتعتقد أنها قادرة على ترك أثر نافع . ولا شك أن أى جزء يرى من الكنيسة كان يميزها عن أى شيء آخر بفكرة بثت فيه . إلا أن الكنيسة كانت تعي ذاتها ، فيما يبدو ، وتؤكد وجودها الفردى المستول من خلال برج أجراسها . كان هو الذى يتحدث عنها . وكان لدى بصفة خاصة لإعتقاد مهم بأن جلتى ترى في برج أجراس كوميديه أغلى شيء في العالم ، في نظرها ، ألا وهو الشكل الطبيعى المتميز للأشياء . كانت تقول وهى لا تعرف شيئاً عن العمارة : « اسخروا منى يا أولادى ، إذا شئتم ، ربما كانت واجهته القديمة غريبة لا تتفق مع معايير الجلال ، لكنه يعجبني » . كانت تنظر إليه ، وتتابع بنظراتها التوتر المادى ، والميل الورع لمحدراته الحجرية التي يقترّب بعضها من البعض الآخر وهى ترتفع ، كأنها أيدي ضمت للصلاة ، وتتحد مع إنطلاقة السهم لدرجة أن نظراتها كانت تبدو وكأنها تنطلق منه . وفي الوقت نفسه ، كانت جلتى تبسم للحجارة العتيقة البالية التي لا تنضيه الشمس الغاية إلا قمتها وتبدو فجأة منذ اللحظة التي تدخل فيها هذه المنطقة المشمسة ويلطفها النور ، كما لو كانت قد ركبت في مكان أعلى بكثير ، مكان بعيد ، كأغنية نردها بصوت عال ، ونبرة أعلى . كان برج أجراس سانت هيلير هو الذى يعطى لمشاغل المدينة ، وساعاتها ، وزواياها ، وجهها ، وتوحيجها ، وتكريمها . كنت لا أستطيع أن ألمح من غرفتي لإقاعته المغطاة بالوابع الأردواز . لكنى كنت أقول لنفسى ، عندما أراها مشتعلة كالشمس السوداء في صباح أيام الصيف الحارة : « يا لله ، الساعة الآن التاسعة . يجب أن استعد للذهاب إلى القديس الكبير ، إذا كنت أريد أن أجد متسعاً من الوقت لأمر على العمة ليونى وأقبلها . » كنت أعرف بالضبط اللون الذى اتخذته الشمس في الميدان ، وحرارة السوق وغبارها ، والظل الذى ترسمه مظلة الحانوت الذى قد تدخله أى قبل القديس ، حانوت تشع فيه رائحة القماش الخام ، لتشتري منديلاً قد يعرضه عليها صاحبه وهو يقوم ظهره ويستعد للانصراف ، بعد أن يذهب إلى الداخل ويرتدى ستره يوم الأحد ، ويسل يديه التي اعتاد فركهما كل خمس دقائق ، حتى في أكثر اللحظات حزناً ، وكأنه مقدم على عمل جاد ، أو مائش خطير ، أو لعب الورق .

وعندما كنت أدخل عند تيودور ، بعد القديس ، وتطلب منه « بريوش » أكبر من المعتاد . لأن أهناء هنا انتهزوا فرصة الجو الجميل وجاءوا من تيريزى ليتناولوا

الغداة معنا ، كنا نرى برج الأجراس أمامنا ، مذهبا وناضجا كبريوش أكبر ، مباركة ومصدقة ، تقطر منها الشمس كالصمغ ، نراه يصوب "سته المذهب إلى السماء الزرقاء . وعندما كنت أعود من التزهة في المساء ، وأفكر في اللحظة التي سأقول فيها مساء الخير لأمي ولن أراها بعدها ، كان ، على عكس ذلك ، يبدو في ضوء الشمس الغاربة كما لو كان وضع وغرس كوسادة من المحمل الداكن في السماء الشاحبة التي غاصت لضغطه عليها ، ونجوت قليلا لتهي له مكاناً ، وفاضت على الجانبين . وكانت أصوات الطيور التي تدور حوله تزيد من صمته ، فيما يبدو ، وتطلق سهمه ، وتضيق عليه طاهماً لا يوصف .

حتى عندما كنا نخرج لشراء بعض الحاجيات من مكان يقع خلف الكنيسة ولا نراها منه ، كان كل شيء يبدو وكأنه ينتظم بالنسبة لبرج أجراسها الذي يظهر فجأة هنا وهناك بين المنازل ، وربما كان أكثر تأثيراً عندما يظهر على هذا النحو وحده بدون الكنيسة . صحيح أن هناك أبراج أجراس أخرى تبدو أجمل منه بكثير ، إذا نظرنا إليها بهذه الطريقة . وفي ذاكرتي صور لأبراج أجراس تتجاوز الأسطح ويختلف طابعها الفني عن طابع الصور التي تكونت منها شوارع كومبريه الكثيرة . ولن أنسى أبداً فلتين جميلين يرجعان إلى القرن الثامن عشر ، رأيتهما في مدينة غربية في نورماندى بالقرب من بلييك ، واذكرهما باعزاز وإجلال لأسباب شتى . كنا نرى بينهما ، إذا وقفنا في الحديقة الجميلة التي تهبط الدرج حتى الجدول ، مهما غوطيا ينطلق من كنيسة يخفيها . وكان السهم يبدو مكملاً لسطحيهما ، ويعلو واجهتهما ، ولكن بطريقة مختلفة قيمة ، محلقة ، مودة ، لامعة ، لدرجة أننا كنا ندرك تماماً أنه ليس جزءاً منهما ، بل أشبه بهم إرجوان مسنن ، في قوقعة رشيقة كبرج غطته الميناء ، أسرّت على الشاطئ بين حجرين جميلين متحدين . حتى في باريس ، أعرف في حي من أقبح أحيائها نافذة تطل ، بعد مستوى أول وثان بل وثالث من الأسطح المترآكة في عدة شوارع ، على جرس بنفسجي يميل إلى الإحمرار أحياناً ، ويبدو في أحيان أخرى ، في أسمى الصور التي يلتقطها له الجو ، أسوداً خالياً من الرماد . وما هذا الجرس إلا قبة سان أوجستان التي تجعل هذا المنظر الباريسي شبيهاً ببعض مناظر روما التي صورها بيراني . لكن ذاكرتي لم تستطع أن تضع في أي من هذه الصور الصغيرة ، مهما كان الذوق الذي رسمتها به ، ما فقدته من مدة طويلة ، وأقصده به الإحساس الذي يجعلنا لا ننظر إلى الشيء على أننا نشاهده ، وإنما نوّمن به كما لو كان كائنات لا نظير له . لذا ، لم يخضع



أى من هذه الصور لبعيته جزءا عيقا من حياتي كما فعلت ذكرى برج أجراس كومبريه بالشوارع الواقعة خلف الكنيسة . فسواء رأينا برج الأجراس في الساعة الخامسة ، ونحن في طريقنا إلى مكتب البريد لإحضار الخطابات ، على بعد بضعة منازل على اليسار ، وهو يرفع فجأة قمته المنفردة فوق الخط الذى ترسمه قمم الأسطح ، ثم أردنا ، على عكس ذلك ، الدخول عند مدام سيزراه للسؤال عنها ، وتابعنا بعيوننا هذا الخط الذى عاد إلى الانخفاض بعد أن مال جانبه الآخر ، مع علمنا بأنه يجب أن نتعطف في ثاني شارع بعد البرج ، أم إيتعدنا أكثر من ذلك كأننا ذاهبين إلى المحطة وربائبنا من زاوية مائلة ، وظهرت مساحاته الجديدة وأضلاعه كجسم صلب فوجئ في لحظة مجهولة من دورانه ، أم بلدا صدر الكنيسة من ضفاف القيقون ، متقلص العضلات وفي مستوى أعلى من هذا المنظور ، كأنه يثبت من الجهد الذى يبذله البرج ليطاق سهمه في قباب السماء ، كنا نذكر أنه لابد من العودة دائما إلى برج الأجراس .

الذى يسيطر على كل شيء ، ويبدد البيوت من مكان حال لم توقعه . وكان يقف أمامي كأصبع الرب الذى أختفى جسده وسط حشد من البشر ولم يختلط بهم . حتى هومنا هنا ، إذا أشار أحد المارة الذى دلى على الطريق ، في مدينة ريفية كبيرة أو حتى باريس لا أعرف جيدا ، إلى مكان بعيد يوجد فيه ، كعلامة على الطريق ، برج مستشفى أو برج أجراس دير يرفع قمة غطاء رأسه الكنسى فوق ركن شارع يجب أن أسلكه ، يكنى أن نجد ذاكرتي بطريقة مهمة ثمّة شبه بينه وبين وجه عزيز غاب عني ، لكى يرى وهو مندهش ، إذا التفت ليتأكد أنني لم أضل الطريق ، أنني نسيت التزّهة التى شرعت فيها أو المهمة التى جئت من أجلها ، وبقيت أمام برج الأجراس ساعات طوال بلا حراك ، وأنا أحاول أن أتذكر ، وأشعر في أعماق يأراضى إسترددتها من النسيان تحف وتعود إلى . وما زلت فلا شك أبحث عن طريقى ، وانعطفت في شارع وأنا أشعر بقلبي يفوق ذلك الذى شعرت به عندما سألت المارة منذ قليل .... لكن في قلبي .

وكثيرا ما كنا . نلتقي بمسيو لوجراندان في طريق عودتنا من القديس . كانت مهنته كهنس تقطّطره إلى البقاء في باريس ، ولا يستطيع أن يأتى إلى ضيعته في كومبريه إلا بين مساء السبت وصباح الإثنين ، فيما عنا العطلة الصيفية طبعاً . كان من أولئك الرجال الذين يتكونون ، بالإضافة إلى الحياة العملية التى أحرزوا فيها نجاحا مرموقا ، ثقافة أدبية وفنية مختلفة كل الاختلاف ، لا يستغلونها في تخصصهم المهنى ، ويستفيد

منها حديثهم ، وهم أكثر إلما بالآدب من كثير من المتأدين . (لم تكن نعرف آنذاك أن مسيو لوجرانندان كان كاتباً معروفاً إلى حد ما ، ودهشنا جداً عندما رأينا موسيقاراً مشهوراً يؤلف لنا لأبيات شعر كتبها ) ، ووهبوايسرا أكثر من عديد من الرسامين . ويتصور هؤلاء الرجال أن الحياة التي يحبوها لا تلائمهم ، لذا ينجزون أعمالهم إما بعدم اكراث ممزوج بالفاقتلزيا ، إما باثقان مستمر ، متعال ، مروواع . كان لوجرانندان طويل القامة ، جميل الهيئة ، ذو وجه متأمل دقيق وشوارب طويلة شقراء ، وعيون زرقاء خلت من الغرور ، كان جهم الآدب ومتحدثاً لبقاً لم نسمع مثله أبداً . كان في نظر أسرقى التي تسوقه دائماً ككثال يحتذى ، نموذجاً كاملاً لأهل الصفوة الذين ينظرون إلى الحياة بأسى النظرات وأرقها . كانت جلتى لا تعيب عليه شيئاً سوى طلاوة حديثه الفاتقة ، التي تشبه حديث الكتب كثيرا ، وافشار كلامه إلى اللمسة الطبيعية التي ترى في أربطة عنقه ومسترته المستقيمة كسرة التلاميذ . وكانت تدعش أيضا لحديثه الطويل الملهب الذى ينتد فيه الطبقة الارمنقراطية ، والحياة الاجتماعية ، وتفاخر المرء بما لا يملكه . ولا شك أن هذه الخطيئة الأخيرة هى تلك التى قصدها سان بول عندما تحدث عن الخطايا التي لا تغفر .

كانت جلتى عاجزة عن الإحساس بالطموح الإجتماعى ، وتكاد لا يفهمه . ومن ثم ترى أنه من البعث بلذ الجهد لإنقاذه . وعلاوة على ذلك ، كانت ترى أنه لا يليق بمسيو لوجرانندان الذى تزوجت أخته نييلا من النورماندى وتعيش بالقرب من بليك أن يشن هجوما عنيفا كهذا على النبلاء ، وينهب إلى نوم الثروة على عدم اقتيادهم جميعا إلى القفلة .

كان لوجرانندان يقول لنا عندما يلقانا « سلام ، يا أصدقاء ! من حسن حظكم أنكم تعيشون أغلب الوقت هنا . غدا ، يجب أن أعود إلى عشقى فى باريس ! » وكان يضيف وعلى شففيه تلك الإبتسامة الخاصة التى تعبر بهدوء عن السخرية وخيبة الأمل وتبدو شاردة إلى حد ما : « توجد فى بيتى كل الأشياء الكالية ، بطبيعة الحال ، ولا يتقصه إلا الشيء الأسبامى ، ألا وهو قطعة سماء كبيرة كهله التى أراها هنا . » وكان يقول وهو يلتفت إلى : « أيها الصبي ، حاول أن تحفظ دائما بقعته سماء فوق حياتك ، لأن روحك حلوة نادرة النوع ، وطبيعتك طيبة فنان . لا تحرمها إذن مما لا بد لها منه . »

وعندما كانت العمة تسألنا عند عودتنا عما إذا كانت مدام جوبى قد وصلت متأخرة إلى القداس ، كنا نعجز عن الرد عليها ، ونزيد من قلقها ، على عكس ذلك

عندما نقول لما إن رساما ينقل الآن في الكنيسة لوح الزواج الملون الذي رسمه جيلبير  
 لي موبيه . وسرعان ما كانت ترسل فرانسواز إلى البقال . لكن فرانسواز كانت  
 تعود بمحبي حينئذ لأن تيودور غير موجود . وكانت مهنته المزدوجة كمنشد يشترك في  
 صيانة الكنيسة وصبي بقال ، تعطيه معرفة عالية ، نظرا لصلته بكافة الأوساط الإجتماعية .

عندئذ كانت صغى تشهد وتقول : « آه ! لكم أود أن تعين الساعة التي تأتي فيها  
 أولادى . فهى الوحيدة التي تستطيع حقا أن تحدثنى عن الأمر » .

كانت أولادى هذه فتاة عرجاء ، نشطة ، صماء ، عاشت في « عزلة » بعد موت  
 مدام دى لا بريتونرى التي التحقت بمعلمتها منذ طفولتها . وكانت قد إستأجرت بجوار  
 الكنيسة غرفة تنزل منها طول الوقت إما لأداء القرائن ، إما لأداء صلاة قصيرة  
 أو مساعدة تيودور . وفيها عدا هذا ، كانت تلعب لزيارة بعض المرضى مثل العمة  
 ليونى التي كانت تروى لها ما حدث أثناء القداس أو صلاة العصر . وكانت لا تأنف  
 من إضافة مبلغا إضافيا إلى المعاش القليل الذى يدفعه لها مخدموها القديس . فكانت  
 تلعب من حين لآخر « لزيارة » ملابس الخورى أو شخصية مرموقة في عالم كويمبريه  
 الكنسى . كانت ترتدى طاقية صغيرة بيضاء شبيهة بطاقية الراهبات فوق عباءة من  
 الصوف الأسود . وكان مرض جلدى يعطى لجزء من وجنتها وأنفها المقوس لون  
 نبات البلسمين الوردى القامح . وكانت زيارتها تسلية كبرى للعملة ليونى التي لا تستقبل  
 أحدا غيرها ، فيها عدا الخورى . وكانت صغى قد أبعدت شيئا فشيئا كل الزوار الآخرين  
 لأنها ترى أنهم جميعا مخطئين . فهم يدخلون في واحد من فئتي الناس الذى تكرههم .  
 كانت الفئة الأولى تضم أسوأهم ، أولئك الذين بادرت إلى التخلص منهم لأنهم نصحوها  
 بالآ « تطاوع نفسك » ودافعوا ، ولو بطريقة سلبية إقتصر على الحظاظ صمت  
 تعبر عن عدم الرضا أو إبتسامات تم عن الشك ، دافعوا عن نظرية مسمرة تقول إن  
 التنزه في الشمس وقطعة من اللحم الأحمر ( في حين كانت تحفظ طوال أربعة عشر  
 ساعة برشفتين من ماء قيثى ) قد يفيدانها أكثر من سرورها وأوديتها . وكانت الفئة  
 الأخرى مكونة من أشخاص يعتقدون ، فيها يبدو ، أن مرضها أخطر مما تظن ، أو  
 خطير كما تظن . وكان الذين سمحت لهم عمى باله هود إلى غرفها ، بعد شيء من  
 التردد ونتيجة لإلحاح فرانسواز المزعوم ، وأثبتوا أثناء زيارتهم أنهم غير جديرين  
 بالخطوة التي خصصتهم بها عندما جعلتهم يجازفون ويقولون لما بخجل : « ألا تعتقدن .  
 أنك لو تحركت قليلا ، إذا كان الجو جميلا . . » أو ردوا بقولهم : « آه » ، عندما يقف  
 المرء إلى الصحة ! لكن يمكن أن تدعى طويلا وأنت على هذا الحال » ، على قولها

« حالى فى غاية السوء ، فى غاية السوء ، إنها النهاية ، يا أصدقائى ! » ، على يقين من أنها لن تستقبلهم أبدا بعد ذلك . وكانت فرانسواز تسلى بالروح واللمع الذى يستولى على عمتى عندما تلمح من سريرها ، فى شارع الروح القدس ، أحد هؤلاء الأشخاص وهو متجه إلى منزلها فيها يبدو ، أو تسمع ذقات جرس الباب . فكانت تضعك للحيل التى تلجأ إليها عمتى لكى تطردهم ، وتسخر من وجوههم المغلوبة على أمرها عندما تراهم يعودون أدراجهم بدون أن يقابلوها . كانت فى قرارة نفسها معجبة بسيلتها ، وترى أنها أفضل من أولئك الناس جميعا ، ما دامت ترفض إستقبالهم . باختصار ، كانت عمتى تطلب فى آن واحد أن يوافق الناس على الرجيم الذى تبنيه ، ويرثوا لآلامها ، ويعطشوها على مستقبلها .

وكانت أولانى تمتاز بكل هذا . كان يمكن أن تقول لها عمتى عشرين مرة فى الدقيقة الواحدة : « إنها النهاية ، يا عزيزتى أولانى » ، وأن ترد عليها عشرين مرة بقولها : « وما أننى أعرف مرضك كما تعرفينه تماما يا مدام أوكتاف ، فلسوف تعيشين مائة عام كما قالت لى مدام سيزران بالأمس فقط . » كانت أولانى تعتقد إعتقادا راسخا أن مدام سيزراه تدعى مدام سيزران ، ولم تفلح التجربة التى أثبتت عكس ذلك مرات ومرات فى تغيير رأيها هذا .

وكانت عمتى تفضل ألا تضع حياتها حدا معينا . لذا : كانت ترد قائلة : « ولا أريد أن أعيش مائة عام . » وبما أن أولانى كانت تعرف كيف تسليها بدون أن تنبها ، أكثر من أى شخص آخر ، كانت زياراتها المنتظمة التى تقوم بها أيام الأحد ، إلا إذا حال شئ غير متوقع دون ذلك ، مصدر متعة كبرى لعمتى التى ترقبها وهى مسرورة فى بادئ الأمر . لكن ، سرعان ما كانت تشعر بالملل أشبه بالجوع المقرط ، إذا تأخرت أولانى قليلا . وكانت للذة إنتظار هذه الأخيرة ، إذا ما طال ، تتحول إلى عذاب . عندئذ ، كانت عمتى لا تكف عن النظر إلى الساعة ، وتثاقب ، وتشعر بالوهن : وكانت دقة جرس أولانى هـ إذا أتت فى آخر النهار ، بعد أن تكون عمتى قد يشت من ساعها ، تصيبها بحالة أشبه بالإغماء . وفى الواقع ، كانت عمتى لا تفكر إلا فى هذه الزيارة ، يوم الأحد . وحالما كان ينتهى الغذاء ، كانت فرانسواز تتسجل اللحظة التى تغادر فيها قاعة الطعام . لكى تصعد وتشغل عمتى . لكن ( لاسيما فى الأيام التى كان الجو الحار يستقر فيها فى كومبريه ) كانت تمضى فترة طويلة ، بعد دقائق ساعة الظهيرة الشائعة التى نزلت من برج سانت هيلير ، وزينته بشعارات تاجها الصوفى الإثنى عشر ،

على جلوسنا حول المائدة ، بجوار الخبز المبارك الذى جاء أيضا بلا تكلف وهو خارج من الكنيسة ، أمام أطباق ألف ليلة وليلة ، وقد أثقلنا الحر ، وأثقلنا وجبة الطعام خاصة. ذلك أن فرانسواز كانت تضيف إلى الطعام الأساسى الذى لم تعد تملن عنه ، المكون من البيض ، والصلع ، والبطاطس ، والمرق ، والبسكويت - حسب أعمال الحقول والبساتين ، وغرة المد والجزر ، ومصائدات التجارة ، وآداب الجيران ، وعبقريتها الخاصة ، مما كان يجعل قائمة طعامنا الشبية بالورقات الأربع التى كانت تنقش على باب الكاتدرائيات فى القرن الثالث عشر ، تعكس إلى حد ما إيقاع القصور وأحداث الحياة - : سمكة ضمنت البائنة أنها طازجة ، ودجاجة رومية رأتها فى سوق روسانفيل لو بان ، وحراشف برية بالنخاع لم تقدمها لنا بهذه الطريقة بعد ، وفخذا عمرا لأن الهواء الطلق يجعل المرء يشعر بالجوع ويمكن أن نهضمه حتى الساعة السابعة ، وسبانخ على سبيل التغير ، ومشمشا لأنه لا يزال « بائنا » ، وعنب الديب لأنه سيخفى بعد خمسة عشر يوما ، وتوتا أحضره مسيو سوان خصيصا لنا ، وأول ثمار كرز طرحها الشجرة الموجودة فى الحديقة بعد عامين ، وجبنا بالكريمة كنت أحبه فيما مضى ، وجاتوه باللوز لأننى طلبته بالأمس . بعد كل هذا ، كانت فرانسواز تقدم لنا ، بلقمة شخصية منها ، كريمة بالشيكولاتة ليندعتها لنا وأهدتها بصفة خاصة إلى والدتى وكان هاويا. وكان الطبق الأخير خفيفا عابرا كالأعمال التى تكذب لمناسبة معينة، وكانت فرانسواز تضع فيه كل موهبتها . ومن كان يرفض أن يأكل منه ويقول : « لقد شبع » كان ينحدر فى التو واللحظة إلى مستوى أولئك الأوغاد الذين ينظرون إلى الوزن والمادة ، إذا أهداهم رسام إحدى لوحاته فى حين لا قيمة فيها إلا للفكرة والتوقيع .

ومن كان يبنى قطرة واحدة من الكريمة فى طبقه ، كان يثبت اختضاره إلى الأدب كما لو كان ينصرف قبل أن ينتهى الموسيقى الواقف أمامه مباشرة من عزف مقطوعته .

وكانت أبى تقول لى ، فى النهاية : « هيا ، لاتبق هنا إلى مالاهاية ، أصعد إلى غرفتك إذا كنت تشعر بالحر فى الخارج . لكن ، إذهب واستنشق بعض الهواء أولا ، لكى لا تبدأ القراءة بعد انتهائك من الغداء مباشرة . » كنت أذهب وأجلس بجوار الطلمبة وحوضها ، وكثيرا ما كان يزينا - كما لو كانت واجهة غوطية - مستندل ينحت فى الحجر الحشن جسمه البارز ، الرمضى ، الرشيق ، المتحرك ، على مقعد بلا ظهر تظله شجرة ليك ، فى ذلك الركن الصغير من الحديقة الذى يفضى إلى شارع الروح القدس بباب خلع صغر ، ويرتفع فوق أرضه التى لم تسوى للمطبخ

الخلقي الذي يبرز من المنزل كأنه مبنى مستقل . كان بلاطه الأحمر لامعاً كالرخام ، وكان أشبه بمعبد صغير لقيثوس أكثر منه عربياً تحمى به فرانسواز . كان هذا المطبخ يزخر بهبات بائع الألبان ، وبائع الفاكهة ، وبائعة الخضار ، اللذين أتوا من قرى بعيدة إلى حد ما ليهذوا إلى فرانسواز « بشار » حقولهم . وكان هديل الخمام يتوج قمته دائماً .

فيما مضى ، كنت لا أتوقف في الغابة التي تحيط به ، لأنني كنت ، قبل أن أصدق للقراءة ، أدخل المكتب الصغير الذي يشغله ألم أدولف ، أخو جدي ، وهو رجل عسكري أحيل إلى التقاعد وهو عقيد . وحتى عندما كان الحر يدخله من النوافذ المفتوحة ، أو تدخله أشعة الشمس التي نادراً ما تصل إلى هنا ، كانت نفوح منه على الدوام تلك الرائحة الغامضة الندية التي توحى بالغابات وأيام الماضي في آن واحد ، ونجمل الأنف يحلم طويلاً عندما يدخل المرء مبنى مهجوراً كان مخصصاً للصيد . لكنني لم أدخل مكتب ألم أدولف من سنين عدة ، لأنه لا يأتي إلى كومبريه بسبب خصومة وقعت بينه وبين أسرق بسبيي أنا ، في الظروف الآتية :

كانوا يرسلوني مرة أو مرتين في الشهر إلى باريس لزيارته . وبعد إنتائه من تناول طعام الغداء ، وهو يرتدي سترته — وكان يقلمه له خادم يرتدي ستره عمل بأقلام بنفسجية وبضياء — شكا مثلهراً من عدم زيارتي له من مدة طويلة ، وتحليتها عنه . وقدم لي يوسفية . وعبرنا صالوناً لايتوقف المار فيه أبداً ، ولاتشعل النار فيه أبداً ، وزين جدرانانه بروزملهب ، وطلّى سقفه بلون أزرق يريد أن يحاكي لون السماء ، وأثاث مبطن بالساتان كأثاث بيت جدي ، لكن لونه أصفر . ثم إنقلنا إلى مايسيه « مكتبه » ، حيث علقت على الجدران صور من تلك التي نرى فيها ، فوق خلفية سوداء ، آلهة بدينة مودة تقود عربة مركبة على كرة أو تطير جبينها نجمة ، كذلك الآلهة التي أحباها الناس في عهد الأمباطورية الثانية ، لأن شكلها يذكرهم ببومبيي ، ثم كرهوها ، ثم أحبوها مرة أخرى ، حسب واحد . بالرغم من الأسباب التي تساق ، هو أن شكلها يذكرهم بالامباطورية الثانية . وبقيت مع ألم أدولف إلى أن أتى بخادمه وسأله عن الساعة التي يجب أن يعد السائق العربّة فيها للخروج . عندئذ « غاص » في تأمل خشى الخادم المصعب أن يقطعه بحركة واحدة ، وانتظر بفصول النتيجة ، وهي لا تتغير أبداً : في النهاية ، تعلق عبي هذه الكلمات ، بعد تردد فائق ، وبدون أن يخطئه : « الساعة الثانية والرّبع » . وردد الخادم هذه الكلمات وهو مندهش ، ولم يناقشها : « الثانية والرّبع ؟ حسن ... سأقول له ذلك ؟ »

وكنيت في تلك الفترة أحب المسرح دنيا أفلاطونياً ، لأن والدي لم يسمح لي بالذهاب اليه بعد . وكنيت أتخيل المتع التي يشعر بها المرء ، وهو فيه ، لكن خيالي كان يفتقر إلى الدقة ، للدرجة أنني كنت أعتقد أن كل متفرج يشاهد ديكوراً خاصاً به في شيء أشبه بالستريوسكوب . وهكذا يفعل المتفرجون الآخرون .

كنت أسرع كل صباح إلى عامود «موريس» لأطلع على العروض التي يعلن عنها . مامن شيء كان متزهاً عن الغرض ، وأسعد من الأحلام التي تقدمها لخيالي كل مسرحية يعلن عنها . وكانت هذه الأحلام تتوقف في آن واحد على صور الكلمات التي لا تنفصل ويتكون منها العنوان ، ولون المصصقات التي لا تزال مبتلة ومتسخة بالصمغ ويبرز فوقها العنوان . وفيها علما بعض المسرحيات الغربية مثل «وصية سيزار جيرودو» و «أوديب — ملكاً» ، التي تعلن عنها ، لا لمصصقات الاوبرا كوميك الخضراء ، وإنما لمصصقات الكوميدي فرانسيز الخمرية ، لم يكن هناك شيء يبدو لي أكثر إختلافاً عن حروف «ماسة التاج» البيضاء المتألقة من حروف «القناع الأسود» اللساء الغامضة . وبما أن والدي قال لي أنني سأختار بين هاتين المسرحيتين عندما أذهب إلى المسرح لأول مرة ، كنت أحاول أن أعظم عنوانيهما على التوالي ، مادمت لا أعرف منها إلا العنوان ، لأحاول أن أقف على النعمة التي تعدني بها إحداها وأقارنها بالنعمة التي تخبرها لي الأخرى . لذا ، كنت أتخيل من ناحية مسرحية باهرة سامية ، ومن ناحية أخرى مسرحية ناعمة هادئة ، للدرجة أنني كنت عاجزاً عن أن أقول أيهما سأفضل ، وكأنه مطلوب مني أن أختار بين نوعين من الحلوى : الأرز على «طريقة الامبراطورة» و «الكريمة بالشيكولاتة» :

وكانت كل أحاديثي مع زملائي تنصب على الممثلين . وكان فهم الذي مازلت جاهلاً به ، أول شكل ، دون الأشكال الأخرى ، أحسبت من خلال الفهم .

كان الفرق الدقيق بين طريقة إلقاء هذا الممثل أو ذاك ، وتنظيمه للمقطع ، يبدو لي ذو أهمية كبرى لا يمكن تقديرها . وكنيت ارتبب الممثلين حسب موهبتهم ، في قوائم استرجعها طوال اليوم ، إستناداً إلى ما قيل لي عنهم . وفي نهاية المطاف ، تجمدت القائمة في عقل وعاقته مجمودها .

فيما بعد ، عندما ذهبت إلى المدرسة ، كنت في كل مرة أتحدث فيها إلى صديق جديد ، أبادر بسؤاله عما إذا كان قد ذهب إلى المسرح ، وهل يرى أن جوت

أحسن ممثل ، وبأني ديلونيه من بعده . . . الخ ، حالما يدبر المدرس ظهره ، وإذا رأى أن فيفر لا يأتى إلا بعد تبرون ، أو أن ديلونيه لا يأتى إلا بعد كوكلان ، كان كوكلان يفقد فجأة جمود الحجر ، ويستعيد قدرته على الحركة ، وينتقل في ذهنى إلى الصف الثانى ، بينما يكتسب ديلونيه خفة معجزة وحياة خصبة تجعلانه يراجع إلى الصف الرابع ، مما يعيد الإحساس بالإزدهار والحياة إلى عقلى الذى استرد مرونته وخصوبته .

وإذا كان المثلون يشغلونى إلى هذا الحد ، وإذا كانت رؤية مويون وهو خارج ذات يوم ، بعد الظهر ، من الكوميدي فرانسيز ، قد أصابنى بلهشة الحب وعنايه ، فلكم خطف فى اسم نجمة يلمع على باب أحد المسارح ، أو وجه امرأة ظلتها ممثلة رأيته فى امرأة عربية تمر فى الشارع يجيئها الى ازدانت جباهها بالورود ، أكاراً بعثت فى اضطراباً ممتداً ، وجعلتنى أبذل جهداً عاجزاً أليماً لأختلج حياتها . كنت أرتب المثلثات حسب موهبة كل منهن : سارة برنار ، لايرما ، بارتيه ، مادلين بروهون ، جان سامارى ، وكن جميعاً يثرن اهتمامى ، وكان عمى ادولف يعرف كثيرات منهن ، ويعرف أيضاً بنات هوى لا أفرق بينهن وبين المثلثات . كان يستقبلهن فى داره . وكنا لانذهب لزيارته إلا فى أيام محدودة ، لأنه كان يستقبل فى الأيام الأخرى نسوة لا يمكن أن يلتقن بهن أفراد أسرته ، من وجهة نظرهم على الأقل . وكانت المسهولة البالغة التى قدم بها عمى لخلقى ، من باب الأدب ، أرامل جميلات لم يتزوجن أبداً ، وكوتيسات ذوات أسماء رنانة ، لكنها مستعارة ، والمسهولة التى أعطى بها لمن شيئاً من مجوهرات الأسرة ، أدت إلى الخصومة بينه وبين جدى ، أكثر من مرة . وكثيراً ما كنت أسمع أبى يقول لأبى وهو يتسم ، إذا ذكر اسم إحدى المثلثات : « إنها صديقة لعمك » . وكنت أرى أن عمى يمكن أن يعنى صديقاً فى مثل سنى من ذلك الانتظار الذى استسلم له عينا رجال مرموقون ، سنيين طريفة ، أمام باب امرأة لم ترد على خطباتهم ، وأمرت بواب يقيها بيطردهم ، ويقسمه فى بيته إلى جملة لا يمكن أن يقترب منها الآخرون بوصفها صديقة حميمة له .

— لذلك — بحجة أن درساً تغير موعده قد حال حلت فرات ، وسيحول مستقبلاً دون روثى لعمى — انتهزت فرصة تناول والذى الغداء فى وقت مبكر ، فى يوم غير الأيام المخصصة لزيارة عمنا ، وخرجت . . . وبدلاً من أن أذهب لعماد المصقات — وكان مسموحاً لى بالذهاب ليه بمفردى — سارعت إلى بيت عمى . ولاحظت أمام



بأبه عربة يجرها حصانان وضعت على غنمتهما بقرنفلة حمراء كذلك التي وضعها السائق في عروة سترته . وسمعت امرأة فضحك ، وأنا أصعب السلم . وماكدت أدق الجرس حتى ساد الصمت : ثم سمعت صوت أبواب تغلق . وفتح الخادم الباب ، وأحس بالخروج عندما رأيته ، وقال لي إن عمي مشغول جداً ، ولن يستطيع إستقبال بلاشك . وبينما ذهب لإخبار عمي بأنني هنا ، قال الصوت الذي سبق أن سمعته : « أوه ! دعه يدخل ! دقيقة واحدة فقط ! سيسليني ذلك كثيراً . إنه يشبه أمه ، ابنة أخيك كثيراً ، وأرى صورتها إلى جانب صورته على مكتبك ، اليس كذلك ؟ أود أن أرى هذا الصبي ، ولو دقيقة واحدة ! »

سمعت عمي يغضب ويلمدم . وفي النهاية ، أذن لي الخادم بالدخول . رأيت على المائدة طبق « اللوزية » المعتاد . كان عمي يرتدى نفس السترة التي يرتديها كل يوم ، لكنني رأيت أمامه امرأة شابة ترتدى ثوباً حريريّاً ورديّاً ، ويحيط بعنقها عقد من اللؤلؤ ، كادت تنتهي من أكل يوسفية . وأحمر وجهي خجلاً ، لأنني لا أدري ماإذا كان يجب أن أقول لها يآنسة أم ياسيدة ؟ وانجذبت إلى عمي لأقبله ، لأنني لم أجروء على النظر إليها كي لا أضطر إلى الحديث معها . فنظرت لي وهي تبتسم ، وقال لها عمي : « ابن ابنة أخي » ، ولم يقل لها إسمي ، ولم يقل لي إسمها ، لأنه كان يحاول بقدر الامكان ، بلاشك ، أن يتجنب إقامة جسر بين أسرته وهذا النوع من معارفه ، منذ أن نشأت بينه وبين جدى بعض الخلافات .

قالت : « إنه يشبه أمه كثيراً ! »

وقال عمي بحدة ولهجة خشنة : « لكنك لم ترى ابنة أخي إلا في الصورة »

— « آسفة ، يا صديقي العزيز ، لقد التقيت بها في السلم العام الماضي ، عندما كنت مريضاً . صحيح : أنني لم أرها إلا لحظة خاطفة ، وسلم بيتك مظلم ، لكن ذلك كان كافياً لإحجابي بها . وهذا الصبي له هيئتها الجميلة وذلك ... »  
وعندما قالت « ذلك » خطت بإصبعها خطأ أسفل جبينها ، وسألت عمي : « هل تحمل ابنة أخيك نفس الإسم الذي تحمله انت يا صديقي ؟ »

تلعر عمي ، وكان لا يأباه بلذكر اسم أي ، كما لا يأباه بتقديم الناس إلى بعضهم بعض ، عن بعد أو قرب : « إنه يشبه أبيه بصفة خاصة : ، إنه صورة طبق الأصل من أبيه ومن أي المسكينة » .

قالت ذات الثوب الوردى وهي تميل قليلاً برأسها : « لا أعرف والده ، ولم أعرف أمك يا صديقي العزيز ، ألا تذكر أن كل منا تعرف بالآخر بعد موتها بقليل ؟ »

شعرت بشئ من غيبة الأمل لأن هذه المرأة الشابة لا تختلف عن النسوة الجميلات الأخريات اللاتي رأيتن أحياناً في أسرى ، لاسيما ابنة واحد من أبناء عمومتنا كنت أقضى عنده ليلة رأس السنة كل عام . كل ما هنالك أن صديقة عمي كانت أكثر أناقة منها وإن كانت لما نفس النظرة اليقظة الطيبة ، ونفس المظهر الصريح الودود . لم أجد فيها شيئاً من الطابع المسرحي الذي أعجبت به في صور الممثلات ، ولا التعبير الشيطاني الذي قد يكون له علاقة بالحياة التي نعيشها . كان من الصعب أن أصدق أنها عاهرة . ولولا رويي للحصانين ، والثوب الوردى ، وعقد اللؤلؤ ، وعلمي أن عمي لا يعرف من العاهرات إلا أرفعهن شأنًا ، لما صلبت أنها عاهرة انيقة . لكنني كنت أفسأل : كيف يجد المليونير الذي يعطيها العربية ، والبيت ، والجواهر ، متعة في تبديد ثروته من أجل امرأة تبدو بسيطة محترمة إلى هذا الحد ؟ ومع ذلك ، كان فجوهرها ، عندما أفكر في حياتها ، يجعلني اضطرب أكثر مما لو كان قد تجسد أمامي في شكل شخص ، لكونه لا يرى ، كلز إحدى الروايات ، أو فضيحة أخرجت من دار والديها البورجوازية تلك التي كنت أعتبرها ، نظراً لتعبيرات وجهها ، ونبرات صوته الشبيهة بنبرات كثيرة عرفتها ، فتاة من أسرة محترمة ، رغم أنني ، في حين لا تنتمي إلى أى أسرة وأسلمتها للجمع ، . . . ورفعتها إلى الطبقة المتوسطة والشهرة .

كنا قد انتقلنا إلى « المكتب » . وشعر عمي بشئ من الحرج لوجوسي ، وقدم لها بعض السجائر . فقالت : « لا ياعزيزي ، أنت تعرف أنني أعتمد تدخين السجائر التي يرسلها لي « الجران دوق » وقلت له إنك شعرت بالغيرة لذلك » . وأخرجت من علبها سجائر تغطيها كتابة مذهبة بلغة أجنبية . واستطردت ، بلهجة متواضعة حساسة : « لا بد أنني التقيت عندك بوالد هذا الشاب ! كيف استطعت نسيان ذلك ؟ كم كان طيباً ! كم كان لطيفاً معي ! » وعندما فكرت في اللقاء الحسن التي وصفته بأنه كان لطيفاً ، لتقاؤها بأني الذي أعرف تحفظه وبروده ، شعرت بالحرج ، وكان والدي قد أتى فعلاً سمجاً ، نظراً للتفاوت بين الإمتنان الفائق الذي أبدته تجاهه ، ولطفه الذي لم يكن كافياً . وخيل لي فيها بعد أن هذا جانب من الجوانب المؤثرة في دور هؤلاء النسوة اللاتي لا يعملن ، أن يكرسن كرمهن ، وموهبتن ، وحلماً متاحاً بالرجال العاطفيين — لأنهن كالفنانين ، لا يحققن هذا الحلم ، ولا يدخلن في أطر الحياة العادية — وذخيراً لا يكلفنهن إلا القليل ، لإثراء حياة الرجال الخشنة التي لم تهلب وترصع بأحجار كريمة رقيقة بعد . وهذا ما فعلته تلك المرأة في الصالون الذي استقبلها فيه عمي وهو يلبس سترته . كانت

تبسط جسدنا الناعم ، ونوبها الحريري الوردى وأناقها المتبقة من صدقة « الجران دوق » . كانت قد توقفت أيضاً عند كلمة نافذة قالها أبى ، وعالجها برقة ، وأعطها شكلاً ، وتسمية قيمة ، وركبت فيها نظرة من نظراتها الجميلة الأصافية المشوبة بالتراضع والعرفان ، فحولتها إلى جوهرة صاغها فنان ، إلى شيء « جميل للغاية » . وقال لى عى : « هيا ، لقد حان موعد رحيلك » .

نهضت ، وتملكنى رغبة لا تقاوم في تقبيل يد السيدة ذات الثوب الوردى . لكن ، خيل إلى أن ذلك قد يكون شيئاً جريئاً . أشبه بالاختطاف . ودق قلبي وأنا أقول لنفسي : « هل أفعل أم لا ؟ » ثم توقفت عن التساؤل عما يجب أن أفعله لكي أتمكن من فعل شيء ما . وبمركبة مجنونة حمراء ، مجردة من كل الأسباب التي شغقت لها منذ لحظة ، قبلت شفتاي اليد التي مدتها لى السيدة .

— يا له من شاب لطيف ! إنه يعرف الغزل أيضاً ، ويعرف كيف ينظر إلى النساء : الولد لعمري ، ثم أضافت ، وهى تركز على أسنانها لتعطى الجملة لهجة بريطانية خفيفة : ألا يستطيع أن يأتى مرة لتناول a Cup of Tea كما يقول جيرارنا الإنجليز ؟ ما عليه إلا أن يرسل لى « بطاقة » في الصباح » .

لم أكن أعرف معنى كلمة « بطاقة » ولم أفهم نصف الكلمات التي قالتها السيدة . لكن خوفي من أن يكون وراءها سؤال يستوجب الأدب الرد عليه ، حال دون الإمتناع عن الإنصات إليها بانتباه ، وشعرت بتعب هائل نتيجة لذلك :

قال عى وهو يمز كفيه : « لا ، هذا مستحيل ، فهو مشغول جداً ، ويعمل كثيراً ، وأضاف بصوت منخفض ، لكن لا أسمع هذه الكذبة وأناقصه : « إنه يفوز بكل الجوائز في المدرسة من يدري ؟ ربما أصبح مثل فيكتور هيجو أو فولابيل » .

وردت ذات الثوب الوردى غائرة : « اعيد الفنانين فهم الوحيدون الذين يفهمون النساء هم وأهل الصفوة الذين يشبهونك ، لكن أعدز جهلي يا يحدتي . من يكون فولابيل هذا ؟ أهر صاحب المجلات المذهبة التي توجد في المكتبة الرجالية الصغيرة في الصالون للصغير ؟ تعلم أنك وعدتني بأعارتها لى ، وسأعني بها كل العناية » .

لم يقل عى شيئاً لأنه كان يكره إعارة كتبه لأحد ، ثم أقادني إلى المنزل ، ولأنني كنت ولها بالسيدة ذات الثوب الوردى ، غطيت وجنتي عى المملوءتين بالتيغ بقلبات مجنونة . وفي الوقت الذي لمح لى شيء بهي من الحرج ، وإن لم يجرؤ على قوله لى صراحة

أخيراً ألا أخبر والدي هذه الزيارة ، قلت له والدعم في عيني ، إن ذكرى طيبته قوية في نفسي بحيث يمكنني أن أجِد يوماً الوسيلة التي أعبر بها عن امتناني له . وبالفعل ، كانت هذه الذكرى من القوة بحيث رأيت بعد ذلك بساعتين ، وبعد وضع جمل غامضة لم تعط لوالدي ، في رأيي ، فكرة واضحة عن الأهمية الجديدة التي اكتسبتها ، أن الصراحة تقتضي أن أروي لها الزيارة التي قمت بها لتوي ، بأدق تفاصيلها . ولم اعتقد أنني بفعل هذا ، سأسبب بعض المتاعب لعمي . وكيف اعتقد ذلك ، وأنا لم أسع إليه ؟ كيف أفترض أن والدي قد يستثان تأويل زيارة لا أجِد فيها ضيراً ؟ ألا يحدث كل يوم أن يطلب منا أحد الأصدقاء ألا ننسى تقديم عذره لامرأة لم يتمكن من الكتابة لها ، وأن نهمل الأمر ، لأننا نرى أن هذه المرأة لا يمكن أن تولى أية أهمية لصمت لا أهمية له ، في نظرنا نحن ؟ وتصورت ، مثل كل الناس ، أن عقل الآخرين وعاء جامد مطيع ، لا يستطيع أن يتفاعل تفاعلاً نوعياً مع ما تدخل فيه . ولم أشك في أنني ، عندما نقلت إلى عقل والدي ، خبر تعرفي على هذه السيدة عن طريق عمي ، نقلت إليهما في الوقت نفسه ، وكما كنت آتخي ، رأيي الحسن فيها . لكن والدي رجماً ، مع الأسف ، إلى مبادئ مختلفة كل الاختلاف عن المبادئ التي أوحيت إليهما باتباعها ، عندما أرادا تقييم فعل عمي . طلب والدي وجدي من عمي تفسير الأمر ، في جو من العنف ، وعرفت ذلك بطريقة غير مباشرة . وبعد ذلك ببضعة أيام التقيت في الخارج بعمي الذي كان ماراً في عربة مكشوفة فأحسست بالألم والإمتنان ، والتدم الذي كنت أود أن أعبر عنهم . وإلى جانب قدرهم المائل ، رأيت أن رفع قبعتي قد يكون فعلاً متدانياً ، يفترض عمي إزاعه أنني لا أدين له إلا بالأدب العادي . لذا امتنعت عن إتيان هذه الحركة التي لا تكفي ، في نظري ، وأدرت رأسي ، وظن عمي أنني بسلوكي هذا أتبع أوامر والدي ، ولم يغفر لهما ذلك . ومات بعد ذلك بعدة سنين ، ولم يكن أي منا قد رآه بعد تلك الحادثة أبداً .

لذا كنت لا أدخل مكتب عمي أدولف ، وهو مغلق الآن . وبعد أن توقفت بعض الوقت بالقرب من المطبخ الخلفي ، قالت لي فرانسواز التي ظهرت على عتبة : « ساعد الخادمة تقدم القهوة » ، وتصد الماء الساخن ، فلا بد أن أسرع إلى مدام « أوكناف » . لذا ، قروته أن أعود أدراجي ، وأصعد إلى غرفتي مباشرة ، وأقرأ . وكانت الخادمة شخصية معنوية ، ومؤسسة دائمة تضمن لها بعض الصفات التي لا تتغير نوعاً من الإستمرارية والهوية ، من خلال تناوب الأشكال العابرة التي تتجسد فيها ، لأنها كانت تتغير دائماً كل عامين . وفي العام الذي أكلنا فيه كثير من المليون ، كانت الخادمة التي كلفت عادة بتقشير فئاة مسكينة ، معتلة ، وكانت في حالة حمل متقدمة عندما وصلنا في عيد الفصح . وكان لبعض يدهش . لأن فرائضها تقوم

بكل هذه الأعمال و « المشاوير » ، في حين بدأت تحمل أمامها بصعوبة السلة الناعمة التي تزداد امتلاء يوماً بعد يوم ، ويحدد شكلها الرائع تحت ثوبها القضيض . وكان هذا الثوب يشبه الثياب القضيضاة التي ترتديها بعض الشخصيات ذات الوجوه الرمزية في لوحات جيوتو . وكان مسيو سوان قد أعطاني صوراً لها ، وهو الذي لفت نظري إلى ذلك . وكان يقول لنا ، عندما يسألنا عن أخبار الخادمة : « كيف حال صورة » الحبة » ؟ كان الحمل قد كسا هذه الفتاة المسكينة بالشحم حتى وجهها ، حتى وجنتها المربعتان المتدليتان في خط مستقيم . كانت تشبه بالفعل إلى حد كبير العداري البدينات المسترجلات ، أو بالأحرى السيدات المسنات اللائي يجسدن القضيبة في « الأرينا » . وأدرك الآن أن « فضائل » بادوفا و « ذائلها » كانت تشبه هذه الفتاة بطريقة أخرى أيضاً . فكانت صورة هذه الفتاة تشتمل على شيء من الرمزية المضاف الذي تحمله أمام بطنها ، بدون أن يبدو عالياً أنها تفهم معناه ، أو يعبر أى شيء في وجهها عن جلاله وروحها ، كأنه مجرد حمل ثقيل . كذلك ، تجسد هذه القضيبة ، بدون أن تدرك للأمر كنها ، فيما يبدو ، ربة البيت القوية المصورة في « الأرينا » تحت اسم « كاريثاس » ، وكانت صورتها معقدة على حائط الغرفة التي استذكر فيها دروسي في كوميدي . ويبدو أن وجهها الصارم العادي لم يستطيع التعبير أبداً عن أية فكرة ، خاصة الحبة . واخترع الرسام شيئاً جميلاً عندما جعلها تدوس بقدمها على كنوز الأرض ، كما لو كانت تدوس العنب بقدمها لتستخرج عصيره أو بالأحرى ، صعدت فوق بعض الأكياس لترفع . وهي تمد للرب قلبها الملتهب ، أو بعبارة أفضل « تعطيه له » كما تعطى الطاهية فتاحة من نافذة بدرومها لشخص يطلبها منها ، ويطل من نافذة الدور الأرضي . كان الحسد في حلجة إلى مزيد من التعبير عن الحسد . لكن الرمز كان يحتل ، في هذه اللوحة أيضاً ، مكاناً كبيراً ، وكان تصويره واقعياً جداً . والعيان الذي يصفر في شفاة الحسد غليظ للغاية ، وملاً فيه الفتوح لدرجة أن عضلات وجهه تتمدد لتتمكن من احتوائه ، كما يفعل طفل ينفخ بالونة بأنفاسه ، وأن انتباه الحسد ، وانتباهنا نحن بالتالي يتركز كلية على حركة شفثيه ولا يفسح المجال للأفكار الحسودة .

وبالرغم من الإعجاب الذي كان مسيو سوان يخص به صورة جيوتو هذه ، لم أجد لفترة طويلة أى متعة في النظر إلى صورة الحبة هذه الخالية من الحبة في قاعة الاستدكار ، حيث علفت بين الصور التي أتى بها إلى . وكان الحسد أشبه بلوحة تعطى مثلاً ، في كتاب من كتب الطب ، لضغط قم الحنجرة نتيجة لورم في اللسان أو لإختلال أداة الحراح ، وكان وجه العدالة الرمادي المنتظم في ضعة صورة طبق الأصل

من الوجه الذى يتميز به ، فى كومبريه ، بعض البورجوازيات المليحات التفتيات الجاهلات اللاتى كنت أراهن أثناء القداس ، وكانت كثيرات منهن قد انخرطن سلفاً فى ميلشيات الظلم الإحتياطية . وفهمت فيما بعد أن الشيء الغريب الأخاذ فى هذه اللوحات ، وجمالها الخاص ، يرجع إلى المكان الكبير الذى يحتله الرمز فيها ، وأن تصوير هذا الأخير ، لا كرمز ، مادام التعبير عن الفكرة التى يرمز إليها غائباً ، وإنما كواقع أو شئ تم الخضوع له فعلاً أو معالجته مادياً ، يجعل العمل أكثر حرفية ودقة ، ويعطى الدرس الذى يستخلص منه لمسة محسوسة وأكثر تأثيراً . وبالنسبة للخادمة ، أو لم يكن الإنتباه يعود باستمرار إلى بطنها بسبب الحمل الثقيل الذى يستريحه ؟ كذلك ، كثيراً ما يلتفت فكر المحضرين إلى الجانب القلبي ، الأليم ، الغامض ، العميق ، إلى الوجه الآخر للموت . الوجه الذى يقدمه لهم بالذات ، ويشعرهم به بعنف ، ويشبه جحلاً يثنون تحته ، أو صعوبة التنفس ، أو الحاجة إلى الشراب ، أكثر مما يشبه ما نسميه فكرة الموت .

لا بد أن فى الفضائل والرخائل الخاصة بإدوفا قدر لا يستهان به من الواقع ، ما دامت تبدو لى حية كالخادمة الجاهل ، وما دامت الخادمة نفسها لا تقبل رمزية عنها . وربما كان لعدم مشاركة روح الكائن ( ظاهرياً على الأقل ) فى القوة التى يؤثر بها على هذا النص ، فيما عدا القيمة الجاهلية ، حقيقة ظاهرية على الأقل ، كما يقال ، إن لم تكن سيكولوجية . وعندما أتاحت لى الحياة فيما بعد فرصة الإلتقاء فى الأديرة مثلاً بتجسيديات مقدسة حقاً للمحببة الفعالة ، وجدت أنها تتميز عامة بشكل إيجابي مرح لا يبالى ، نزع كأنه جراح متعجل ، وأن لها هذا الوجه الذى لا يعبر عن أى شفقة ، أو أى تعاطف مع آلام البشر ، أم أى خوف من الإصطدام بهذه الآلام ، وأن هذا الوجه السامى الخالى من الرقة الثقيل الظل هو وجه الطبيعة الحقة .

وبينما كانت الخادمة التى تبرز لا إرادياً تفوق فرانسواز عليها — كما يجعل الخطأ انتظار الحقيقة أكثر تألقاً ، بالتناقض — تقدم القهوة التى لا تعدو أن تكون ماء ساخناً ، فى رأى أى ، وتصعد بعد ذلك إلى غرفنا ماء ساخناً بالكاد فاتراً ، تمددت على فراشى ، وأمسكت بكتاب ، فى غرفتى التى تحمى ، وهى ترتجف ، طراوتها الشفافة الواهنة من شمس بعد الظهيرة وراء شيشها المعلق تقريباً ، وإن كان ظل من ظلال النهار قد وجد السبيل إلى تمرير أجنحته الصفراء من خلاله ، وظل ثابتاً فى ركن كفراشة استقرت بين الزجاج والخشب . كان النور يكتفى بالكاد للقراءة ، ولم تعطى الإحساس بروعته

إلا لتجربات كامو في الشارع لا كوردا ( وكانت فرانسواز قد نهته إلى أن عمى  
« لا تترتاح » وأن إثارة الضجيج ممكنة ) على بعض الصناديق المقبرة التي كانت تبدو  
وكأنها تطير بعيداً بعض الكواكب القرمزية : بينما ترن في الجو الخاص بأيام  
الحرب ، كما أعطاني الإحساس بروعة النور اللهب الذي يعزف بأمان في كونشرتو  
صغير ، موسيقى كأنها موسيقى الحجرة في الصيف : لكن هذه الموسيقى لا تذكر الصيف  
على طريقة اللحن الموسيقي البشري ، اللحن الذي يذكرك بها بعد ذلك إذا سمعته  
بالصلفة في نهاية الربيع والصيف ، وإنما ترتبط بالصيف ارتباطاً أكثر حمية : فهي تولد  
مع الأيام الصحو ، ولا تبت إلا معها ، وتشمل على شيء من جوهرها ولا تقتصر  
على إيقاظ صورة هذه الأيام في ذاكرتنا ، بل تؤكد أيضاً عودتها ، ووجودها  
القلبي الذي يحيط بها ويمكن الوصول إليه مباشرة .

كانت هذه الطراوة الغامضة في غرفتي بالنسبة لشمس الشارع الساطعة ، بمثابة  
الظل لشعاع الشمس ، أي أنها كانت مضية مثله ، وكانت تقدم لخيالي مشهد الصيف  
كاملاً . ولو أنني كنت في نزعة ، لما استمتعت حواسي إلا بأجزاء منه فقط . ومن  
ثم ، كانت تنفتح كل الإثاق مع راحتي ( بفضل المغامرات التي ترونها كتي وكانت  
تثير انتباهي ) التي لا تحتمل ، كراحة اليد الثابتة وسط الماء البحاري ، صدمة شلال من  
النشاط والحياة .

لكن جلتي كانت تأتي ، وتوصل إلى أن أخرج ، حتى لو كان الجو قد تغير ،  
حتى لو هبت عاصفة فجأة ، أو سقطت قطرة مطر . ولأنني كنت لا أريد أن أترك  
القرأة ، كنت أواصلها في الحديقة على الأقل ، تحت شجرة الكستناء ، في كوخ صغير  
من القماش السميك ، أجلس بداخله وأنا اعتقد أنني اختفيت عن أنظار الناس الذين  
قد يحضرون لزيارة والدي .

أولم يكن فكري أيضاً أشبه بمجد أشعر أنني أغوص في أعماقه ، حتى للنظر إلى  
ما يجري خارجه ؟ وعندما كنت أرى شيئاً خارجه ، كان وصفي برويته يظل بيني وبينه ،  
ويحده بخط روي رفيع يمنعي دائماً من لمس مادته مباشرة . وكان هذا الوحي  
يتغير بطريقة ما قبل أن اتصل به . كذلك ، لا يلمس الجسم المشتعل الذي يقترب  
من شيء مثل رطوبة هذا الشيء لأن منطقة تبخر تسبقه دائماً . وعلى الشاشة المتعددة  
الألوان التي تكونها حالات مختلفة ، ويدهلها الوحي في نفس الوقت الذي أقرأ فيه  
تلك الحالات التي تتراوح بين التطلعات إلى أخفيها في أعماق أعماق نفسي والروية

الخارجية البحتة للافق الذى يقع تحت عيني ، فى طرف الحديقة ، كان الشيء الجمع  
جداً فى ، أى القبضه التى لا تكف عن : الحركة وتحكم ما تبقى ، هو لىمانى بجمال  
الكتاب الذى أقرأه ، وراثه الفلسفى ، ورغبى فى امتلاكهما ، أيا كان هذا الكتاب .  
حتى لو كنت قد اشتريت الكتاب من كوبريه ، كنت ، إذا لحنه أمام بقالة بورونج ،  
وبينها وبين المنزل مسافة تمنع فرانسواز من الشراء منها كما تشتري من بقالة كامو ،  
وإن كانت أغنى بالكتب والأدوات المكتبية ، وهو لمثب بالخيط فى فسيفساء الكتيبات  
والكتب التى تكسو ضلعتى بإيها ، وهو باب غامض ثرت فوقه الأفكار أكثر مما تنثر  
على باب الكاتدرائية ، كنت أعرف عليه لأن الأستاذ أو الزميل الذى خيل إلى  
آنذاك أنه يملك سر الحقيقة والجمال قد ذكره لى باعتباره كتاباً جديراً بالملاحظة ،  
وكانت معرفة هذا السر هى الهدف المهم الدائم لتفكيرى .

بعد هذا الإيمان المركزى الذى كان يقوم بحركات لا تتوقف تنجه من الداخل  
إلى الخارج ، لكى يكشف الحقيقة أثناء قراءتى ، كانت تأتى الانفعالات التى يولدها  
فى الحدث الذى اشترك فيه ، لأن قترات بعد البظهر كانت فى كثير من الأحيان  
ملينة بالأحداث الدرامية أكثر من حياة بأكملها ، وكانت تلك الأحداث ترد فى الكتاب  
الذى أقرأه . صحيح أن الشخصيات التى كانت تتأثر بها لم تكن « حقيقية » على حد  
قول فرانسواز ، لكن كافة الأحاسيس التى نشعر بها أمام سعادة الشخصية الحقيقية  
أو شقتها لا تولد فينا إلا بواسطة صورة هذه السعادة أو هذا الشقاء . وتغلّت براعة  
أول كاتب روائى فى إدراكه أن التبسيط الذى يلغى بكل بساطة الشخصيات الحقيقية  
فى مجموعة انفعالاتنا قد يكون تطوراً حاسماً نحو الكمال ، لأن الصورة هى العنصر  
الجوهري الوحيد . فحواستنا تدرك إلى حد كبير تعاطفنا مع الكائن الحقيقى ، مهما  
كان عميقاً ، بمعنى أنه يظل فى نظرنا غير شفاف ، ثقيلاً ميثاً ولا يستطيع إحساسنا  
أن يرفعه . فالخصية التى تصيبه لا تثير انفعالنا إلا فى جزء صغير من الفكرة الشاملة  
التي كونناها عنه ، بل لا تثير انفعاله هو إلا فى جزء من الفكرة الشاملة التى كونها  
عن نفسه . والشيء القيم الذى عثر عليه الكاتب الروائى هو فكرة استبدال هذه الأجزاء  
التي لا تنفذ إليها الروح بكمية مساوية من الأجزاء اللامادية ، أى أن روحنا يمكن أن  
تشبه نفسها . إذن ، ما هى أهمية أن تبدو لنا أفعال وانفعالات هذه الكائنات الجديدة  
وكأنها حقيقية ، ما دمتنا قد اتخذنا نحن معها ، وما دامت تولدنا فينا نحن ، وما دامت  
سرعة تنفسنا وقوة نظرنا تنضج لتبعيتها ، فى الأثناء التى تغلب فيها صفحات الكتاب



ونحن "منفعلين"؟ وبعد أن يضعنا الكتاب الروائى فى هذه الحالة التى يتضاعف فيها الانفعال عشر مرات ، كما يحدث فى كل الحالات الحميمة الصرفة ، والى يثير كتابه اضطرابنا فيها كما يفعل الحلم ، وإن كان الحلم هنا أكثر وضوحاً من أحلامنا أثناء النوم ، تلك التى تبقى ذكرها فترة أطول ، ها هو يطلق فينا العنان لمدة ساعة لكل أنواع السعادة والشقاء الممكنة ، وقد تمر سنوات من حياتنا بدون أن نعرف بعضاً منها ، وقد لا نكتشف أحوالها أبداً ، لأن البطء الذى تولد به يحول دون إدراكنا لها . ( هكذا يتغير قلبنا فى الحياة ، وهذا أسوأ أشكال الألم ، لاكتنا لا نعرفه إلا أثناء القراءة ، فى الخيال : فالقلب يتغير فى الواقع ، كما تحدث بعض الظواهر فى الطبيعة ، ولكن ببطء بحيث نغنى من الإحساس بالتغير ذاته ، إذا استطعنا أن نقف تبعاً على كل حالة من حالاته المختلفة ) .

والمناظر الطبيعية الذى تقع فيه الأحداث ويؤثر على فكرى أكثر من المنظر الآخر الذى تقع عيني عليه عندما أرفعهما من فوق الكتاب ، كان يأتى بعد ذلك ، ويعرض أمامى تقريباً ، لكنه يدخل جسمى أقل من حياة الشخصيات هذه . هكذا شعرت طوال صيفين ، فى حرارة حديقة كومبريه ، بسبب الكتاب الذى كنت أقرأه آنذاك ، يحين لى بلد فيه جبال وأنهار ومياه جارئة ، قد أرى فيه كثيراً من ورش نشر الخشب وتفتت فى مياهه الصافية قطع من الخشب تحت خصل من الحشائش . وبالقرب منها تصعد بطول الجدران المنخفضة عناقيد من الزهور البنفسجية المحمرة . وبما أن الحلم بامرأة تكون قد أحببتى كان ماثلاً فى ذهنى دائماً ، تشبع ذلك الحلم فى هذين الصيفين بطراوة المذاق الحار . وسرعان ما كانت ترتفع بجانب المرأة التى أذكرها ، أياً كانت ، عناقيد من الزهور البنفسجية المحمرة ، تبدو كما لو كانت ألواناً تكميلية .

لم يحدث ذلك فقط لأن الصورة التى نحلم بها تظل مطبوعة فى ذهننا ، وتستفيد من انعكاس الألوان الغريبة التى تحيط بها صلتها فى أحلامنا . وذلك لأن المناظر الطبيعية فى الكتب التى كنت أقرأها لم تكن فى نظرى مجرد مناظر تصور لخيالى بقوة تفوق تلك التى تصور بها المناظر التى تضعها كومبريه تحت عيني ، وإن كانت شبيهة بها . فاختيار المؤلف لها ، والإيمان الذى كان فكرى يتجه به إلى كلمة هذا الأخير كما لو كانت الوحى ، كان يجعل هذه المناظر تبدو — وهذا انطباع لا يعطيه لى البلد الذى أوجد فيه ، لاسيا حديقتنا ، وهى نتاج جادت به نزوة معتدلة للبلستانى الذى تحقره جدتى — كقطعة حقيقية من الطبيعة ذاتها ، جذبة بأن تدرس وبأن تعمق دراستها .

ولو أن والدى سمعنى ، عندما كنت أقرأ كتاباً ، بزيارة المنطقة التى يصفها ، فظننت أنى أخطو خطوة لا تقدر بشئ فى سبيل غزو الحقيقة . فإذا أحس المرء بأنه عاط دائماً بروحه ، أحس أن ما يحيط به ليس شيئاً ثابتاً لا يتحرك ، بل أحس بالأحرى أنه محمول مع روحه فى انطلاقة دائمة ليتجاوزها ، ويبلغ الخارج ، فى شئ من اليأس ، عندما يسمع دائماً حوله هذا الصوت الذى لا يتغير ، وما هو بصدى الخارج ، وإن رنين موجة صوتية داخلية . ونحاول أن نمر ثانية فى الأشياء التى أصبحت قيمة نتيجة لذلك على الظل الذى ألقته روحنا عليها ، ونشعر بحية أمل عندما ندرك أنها تبدو فى الطبيعة خالية من السحر الذى كانت تدبى به ، فى فكرنا ، بلوارها لبعض الأفكار . وأحياناً ، نحول قوى هذه الروح إلى مهارة ، وروعة ، لنؤثر على كائنات نشعر جيداً أنها توجد خارجنا ولن نصل إليها أبداً . وبالتالي ، إذا كنت قد غيّلت دائماً ، حول المرأة التى أحبها ، الأماكن التى كنت أرغب فيها آنذاك ، وأردت أن تدعونى هى إلى زيارة تلك الأماكن ، وأن تفتح لى أبواب عالم مجهول ، فإن ذلك لم يأت بالصدقة ، نتيجة لتوارد الخواطر . لا ، فحملى بالحب والسفر لم يكن سوى لحظات — أفضل اليوم بينها بطريقة مفتعلة وكأنى أقوم بعمليات قطع فى مستويات مختلفة ، فى نافورة ثابتة ظاهرياً لها ألوان قوس قزح — من انشاق واحد لا يميل لكل قوى حياتى .

أخيراً ، عندما كنت أتابع فى وقت واحد ، من الداخل إلى الخارج ، الحالات التى وضع بعضها بجانب البعض الآخر فى وعيى ، كنت أجد متعاً من نوع آخر قبل أن أصل إلى الأفق الحقيقى الذى يلتفت حوله ، متعة الجلطة المريحة وشم رائحة الهواء الجذيلة وعدم إزعاج أى زائر لى ، وعندما كانت أجراس سانت هيلير تعلن عن الساعة الواحدة ، كنت أشعر بالمتعة إذ أرى فترة بعد الظهر تسقط قطعة قطعة ، إلى أن أسمع البقرة الأخيرة التى تمكثنى من جمع شتات كل هذا ، يلها صمت طويل يبدأ ، فيما يبدو ، فى السماء الزرقاء ، وهو الجزء الذى أعطى لى اللقراءة ، حتى نحس ساحة العشاء الشبى الذى تمده فرانسواز ، وكان يرمحنى من التعب الذى شعرت به طوال قراعى للكتاب ، وأنا أتابع البطل . كنت ، فى كل ساعة ، أظن أن التى سبقها دقت من بضغ لحظات فقط . كانت آخر ساعة تسجل بالقرب من التى سبقها فى السماء ، ولم يكن فى استطاعتى أن أصدق أن ستين دقيقة يمكن أن تلتخص فى هذا القوس الأزرق الصغير الواقع بين علامتهما اللحيطين ، وأحياناً ، كانت هذه الساعة السابقة لأوانها تدق

دقتين أكثر من آخر ساعة . دقت ساعة لم أسمعها إذن ، وحدث شيء ، لكنه لم يحدث لي . كانت أهمية القراءة ، السحرية كالنوم العميق ، قد خدعت أذني ، ومحت الحرس الذهبي على سطح الصمت اللازوردى . يا أيام بعد الظهر الخفيفة ، أيام الأحاد تحت شجرة كستناء حديقة كومبريه التي أفرغتها بعناية من الأحداث النافذة في حياتي الشخصية ، واستبدلتها بحياة مغامرات وتطلعات غريبة في بلد ترويه المياه الحية ، ما زلت تذكرني بتلك الحياة عندما أفكر فيك ، وتحتويها لأنك التفتت حولها شيئاً فشيئاً ووضعت حولها سياجاً - بينما كنت أقدم في قراعتي وكانت حرارة النهار تزول - من بللور ساعاتك الصامتة ، الرنانة ، العطرية ، الصافية ، التي يتغير ببطء ، وقر به أوراق الشجر .

وكانت ابنة البستاني تخرجني أحياناً من قراعتي ، في منتصف فترة بعد الظهر ، لأنها تعدو كالخنزيرة ، أو تقلب في طريقها شجرة يرتقال ، أو تقطع أصبعها ، أو تكسر سنّاً لها ، وتصبح : « ها هم . ها هم . ها هم . » ، لكي نسرح أنا وفرانسواز ولا يفوتنا شيء من المشهد . كان ذلك يحدث في الأيام التي تعبر فيها القوقاز كومبريه ، وهي في طريقها لقيام بعض المناورات ، وكانت تسير عامة في شارع سان هيلجورد . وبينما كان خلعنا يجلسون في صف على الكرسي خارج السور ، لبوا منتزهى يوم الأحد في كومبريه ، ويراهم المنتزهون ، كانت ابنة البستاني تلمح لمان الخوذات من فتحة بين متزلين بعيلدين في شارع الحطة . أدخل الخلد مقاعدهم بسرعة ، لأن المدرعين كانوا قد ملأوا شارع سان هيلجورد عندما مروا به . وكان ركض الحلياء يكاد يلامس المنازل ، ويقطع الأرصفة المغمورة كشطاً تقدم لشلال جامع مجرى ضيقاً للغاية .

ولا تكاد فرانسواز تصل إلى السور حتى تلمع عينيها وتقول : « يا المساكين ! يا للشباب المساكين الذين سيحصلون كالقمح ! » ، وتضيف وهي تضع يدها على قلبها ، حيث تلتقت هذه الصلصة : « مجرد تفكيرى في هذا يصلبنى . » وكان البستاني يقول ليزيد من تأثرها : « أوليس جميلاً ، يا مدام فرانسواز . أن ترى شباباً لا يتمسكون بالحياة ؟ » وبالفعل ، لم تذهب كلماتها هباء : « لا يتمسكون بالحياة ؟ بأى شيء يجب أن تتمسك إذن : إن لم يكن بالحياة ، الهدية الوحيدة التي لا يقبلها الله لنا ورثين . وا أسفاه ! يا إلهي ! ومع ذلك ، فهم لا يتمسكون بها حقاً . لقد رأيتهم عام ٧٠ . إنهم لا يخافون الموت ، في هذه الحروب المشتومة : إنهم مجانين ، لا أكثر ولا أقل . ثم إنهم لا يستحقون حتى الحب الذي يجب أن يشعروا به . إنهم أقرب إلى

الأسود منهم إلى البشر » ( تشبيه الرجل بالأسد ليس فيه أى شيء يدعو للفخر ، فى نظر فرانسواز ) .

وكان شارع سان هيلدجرد ينعطف فجأة بحيث لا يمكن أن نرى من يأتى من بعيد . وكنا نلمح دائماً ، من خلال الفتحة التى تفصل بين منزلين فى شارع المحطة ، نحو ذات جديلة تجرى وتلمع فى الشمس . كان البستاني يريد أن يعرف ما إذا كان عدد كبير منهم سيمر ، وكان يشعر بالعطش ، لأن الشمس حامية . وعندئذ ، كانت ابنته تنطلق فجأة ، وكأنها فى ميدان محاصر ، وتبلغ ناصية الشارع ، وبعد أن تتحدى الموت مائة مرة ، تعود إلينا بإبريق فيه شراب جوز الهند ، ونأى يقول : إنهم ألف جندي يأتون بلا توقف من ناحية تيرزى ميزجليز . وعندئذ ، كانت فرانسواز تتصالح مع البستاني ، ويتناقشان عن السلوك الذى يجب أن يتبعانه فى حالة الحرب . كان البستاني يقول : « أرى ، يا فرانسواز ، أن الثورة أفضل . فعندما يعلن عنها ، لا يرحل إلا الذين يريدون الرحيل » .

— « آه ! نعم . نعم . أفهم هذا على الأقل لأنه أكثر صراحة » .

كان البستاني يعتقد أن كل السكك الحديدية تتوقف عندما تعلن الحرب . وكانت فرانسواز تقول : « طبعاً . لكي لا يهرب الناس » . فيقول البستاني : « آه ! يا لدهائهم ! لأنه لا يسلم بأن الحرب مجرد نوع من الخيل الخبيثة يحاول الدولة أن تتخدع به الشعب ، وبأن كل الناس سيهربون ، لو وجدوا السبيل إلى ذلك .

لكن فرانسواز كانت تسرع لكي تلتحق بمعنى . وكنت أعود إلى كتابي ، ويعود الخدم إلى الجلوس أمام الباب ، ليروا الغبار والانفعال الذى أثارهما الجنود وهم يهبطون . وبعد عودة الهدوء بفترة طويلة ، كانت موجة غير عادية من المتترهين لا تزال تملأ شوارع كومبريه . وأمام كل المنازل ، حتى تلك التى لم تعد ذلك ، كان الخدم ، بل والسادة ، مجلسون ، وينظرون ، ويرسمون عند عتبة الباب خطاً متعرجاً داكناً كخط الطحالب والقواقع التى يترك المد القوى نسيجها الجمعد وتطريزها عند الشاطئ ، بعد أن يجتمع .

وباستثناء هذه الأيام ، كنت أستطيع أن أقرأ بهدوء . لكن سوان قطع ذات مرة قرائق بزيارته ، وعلق عليها ، وكان للكتاب الذى أقرأه كتاباً لمؤلف جديد

تماماً بالنسبة لى ، يدعى برجوت . وترتب على ذلك أننى رأيت ، مدة طويلة ، صورة إحدى النسوة اللاتي أحلم بهن تبرز ، لا أمام حائط تزينة زهور بنفسجية على شكل مغزل ، وإنما أمام خلفية مختلفة تماماً ، أمام بوابة كاتدرائية غوطية .

سمعت أول مرة عن برجوت من بلوك ، أحد زملائى ، وكان يكبرنى سناً ، وكنت معجباً به أشد الإعجاب . وعندما سمعنى أصرخ له بأننى معجب « بلبلة أكتوبر » ، صدرت عنه ضحكة رنانة كالطبل ، وقال لى : « لا تثق فى حبك الوضع للسيد دى موسى : فهو واحد من أولئك الرجال الذين يتكون أثرهم ضاراً ، وإنسان فظ كتيب نسيماً . لكنى أصرخ بأنه ، هو والمدمر راسين ، كتباً فى حياتهما يبنى شعر أنقنا إيقاعهما إلى حد ما ، ويميزهما الكبرى ، فى نظرى ، أنهما لا يعينان شيئاً على الإطلاق : « أولوسون البيضاء » و « كامير البيضاء » ، « وابنة مينوس وهازيقاييه » ، أشار اليهما مقال أستاذى الحليل ، الأب ليكونت ، المعجب بالآلة الخالدة . بالمناسبة ، هذا كتاب لا يسمع وقى لقراءته الآن ، وإن كان هذا الرجل العظيم قد زكاه لى . وقيل لى : إنه يعتبر مؤلفه مسيو برجوت ، من أبرع الكتاب . وبالرغم من أنه يبدى أحياناً وداعة لا تفسر تماماً ، فإن كلمته كالكبوة ، فى نظرى . اقرأ مثلاً هذا النثر الغنائى . وإذا كان جامع الإيقاعات العملاق الذى كتب « باجافات » و « كلب ماجنوس » قد صلق ، بحق أبولو ، فلسوف تبتذلق للذة شراب الآلة التى تسكن الأولب ، يا أستاذى العزيز . وكان قد طلب منى بنبذة ساخرة أن أدعوه « أستاذى العزيز » ، وهكذا كان يدعونى أيضاً . وكنا فى الواقع نحمد شيئاً من المتعة فى هذه اللعبة ، لأننا كنا أقرب إلى السن التى يعتقد فيها المرء أنه يخلق ما يسميه .

لسوء الحظ ، لم أستطع وأنا أتحدث إلى بلوك وأطلب منه بعض التفسيرات ، أن أزيل الاضطراب الذى أشاعه فى ، عندما قال لى : إن الأبيات الجميلة ( ولم أكن أنتظر منها شيئاً أقل من الكشف عن الحقيقة ) ترداد جمالا كليا خلت من المعنى . ولم يدعى بلوك إلى المنزل مرة أخرى . فى البداية ، استقبل استقبالا حسناً . صحيح أن جدلى كان يزعم أن ، فى كل مرة ارتبطت فيها بأحد الزملاء أكثر من الآخرين ، ودعوته إلى منزلنا ، اتضح أن هذا الزميل يهودياً . وهذا شيء لا ينبغي أن يغضب من حيث المبدأ — حتى صديقه سوان كان من أصل يهودى — لولا أنه رأى أننى لا أختار هذا الزميل عادة من بين أفضلهم . لذا ، كان من التادر ألا يدندن ويقول هذه العبارة المأخوذة من مسرحية « اليهودية » : « يارب آباءنا » ، عندما اصططحب زميلاً جديداً ،

أو يقول : « حطّم قيتك يا إسرائيل » ، وكان لا يترنّم إلا باللحن ، بطبيعة الحال ، لكننى كنت أختشئ أن يتعرف عليه زميلى ويسترجع كلماته .

كان يجرّد سماعه أسماءهم ، حتى قبل أن يراهم — لم يكن فى أغلب الأحيان فى هذه الأسماء شىء يهودى بصفة خاصة — يحدس لا الأصل اليهودى لأصلنا فى اليهود فعلاً فقط ، وإنما ما يعيب أسرهم أيضاً .

— « ما اسم صديقك الذى سيحضر هذا المساء ؟ »

— « دومون يا جدى » .

— « دومون ؟ آه ! » وكان يقول : « أحسنوا الحراسة ، يا أيها الرماة . اسهروا بلا أناة وبلا ضجيج » ، ويصيح : « إلى بالحرس . إلى بالحرس » بعد أن يوجه إلينا بضعة أسئلة أدق ، بمهارة . وإذا كان المريض نفسه قد وصل ، وأجبر على الاعتراف بأصله باستجاب مقنع وبدون أن يدري ، كان جدى يكتئ بالنظر إلينا ، لكى يبين لنا أن ليس لديه أى شك ، ويتغنى بالعبارات الآتية : « ماذا ؟ أتقود خطى هذا الإسرائيلي الخجل إلى هنا ؟ » ، أو « يا حقول الآباء ، يا خليل ، يا أيها الوادئ المادئ » أو « نعم ، أنا من الحفص المختار » .

ولم تكن عادات جدى هذه تشتمل ضمناً على أى شعور بالعداوة تجاه زملائى . لكن بلوك لم يعجب والذى لأسباب أخرى . فى البداية ، ضائق أبى الذى قال له باهتمام ، عندما رآه خجلاً : « قل لى يا مسيو بلوك ، كيف حال الجو إذن ؟ هل سقط المطر ؟ أفهم فى الأمر شيئاً ، فالبارومتر كان يعلن عن جو ممتاز » ، ولم يحصل منه إلا على هذا الجواب : « لا أستطيع أن أجزم أن المطر قد سقط ، يا سيدى ، فأنا أعيش متمتعاً بعيداً عن الاحتمالات المادية ، لدرجة أن حواسى لا تتكبد مشقة الإشارة إليها . » وقال لى أبى ، عندما انصرف بلوك : « مسكين يا بنى ، صديقك هذا صيغ . ماذا ؟ لا يستطيع حتى أن يحدثنى عن حالة الجو ؟ فى حين لا يوجد شىء أهم منها إنه لأحمق . »

ولم يعجب بلوك جدنى ، لأنه انتحب بصوت مكتوم ، ومسح دموعه ، عندما قالت بعد الغداء : إنها متعبة قليلاً . فلقد قالت لى : « كيف يمكن أن يكون صادقاً ، ما دام لا يعرفنى ؟ وإلا ، فهو مجنون ! » .

وأخيراً ، أغضب الجميع عندما جاء متأخراً ساعة ونصف عن موعد الغداء ، وقد غطاه الرجل ، وبدلاً من أن يعطى ، قال :

— « أنا لا أثأّر أبداً بتقلبات الجو أو تقسيات الجو المتعارف عليها . وقد أعيد عن طيب خاطر استخدام غليون الأفيون . لكنى أجهل استخدام أدوات كالساعة ، أو المظلة ، وهى أكثر ضرراً منه ، فضلاً عن أنها بورجوازية تافهة » .

كان يمكن أن يعود إلى كومبريه ، رغم كل شيء ، ومع إنه الشخص الذى لا يمتنى والذى أن يكون صديقاً لى . وانتهى بهما الأمر إلى اعتقاد أن الدمع الذى سكبهُ عندما شعرت جدى بوعكة لم يكن مفتعلاً ؛ وكانا يعرفان عن تجربة أو خبرياً أن انطلاقات إحساننا لا تسيطر إلا قليلاً على بقية أفعالنا وسلوكنا فى الحياة ، وأن احترام الالتزامات المعنوية ، والإخلاص للأصدقاء ، وتنفيذ أى عمل ، وانباع « الرقيم » لم أساس أكيد يستندون إليه فى بعض العادات العمياء أكثر من تلك القنورات العابرة ، للعقيمة الملتبئة . كانا يفضلان أن يكون لى ، بدلاً من بلوك ، رفاقاً لا يعطونى أكثر مما اصططح على إعطائه للأصدقاء ، وفقاً للقواعد الأخلاقية البورجوازية ، رفاقاً لا يرسلون لى فجأة سلة فواكه لأنهم ذكرونى بمودة يوماً ، ولا يتلاعبون بميزان الواجبات والالتزامات — وهو ميزان دقيق — التى تفرضها الصداقة بحركة بسيطة من خيالهم وإحسانهم ، لإلحاق الضرر بى ، لأنهم عاجزين عن أن يميلوه لصالحى . حتى أخطأنا ، يصعب عليها أن تجعل أولئك الذين تعتبر عنى الكبرى نموذجاً لم يتنازلون عما يدينون لنا به . وكانت عنى هذه قد تخاصمت منذ سنوات مع ابنة أخيها ولا تتحدث إليها أبداً ، ومع ذلك لم تغير الوصية التى تركت لهاها كل ثروتها ، لأنها كانت أقرب أقرباها ، ولأن هذا « واجب » .

كنت مع ذلك أحب بلوك ، وكان والدى يريدان إدخال السرور إلى نفسى . كانت المشاكل العويصة التى أفكر فيها ، وتتعلق بمجال ابنة « مينوس » و « بازيفاييه » الخلقى من المعنى وتعنى وتزيد من ألى أكثر من أحاديث الجديلة معه ، وإن كانت أى ترى أنها ضارة . كان يمكن أن يستمر أهل فى استقباله فى كومبريه لولا أنه أخبرنى ذات يوم ، بعد العشاء — وكان لهذا الخبر تأثير كبير على حياتى فيما بعد ، جعلها أسعد ثم أشقى — أن كل النساء لا يفكرن إلا فى الحب ، وأنه لا توجد امرأة تستطيع أن تقاومنا ، وأكديلى إنه سمع بما لا يقبل البتة أن عنى الكبرى عاشت فى شبها حياة

صاحبة ، وأن الرجال كانوا يتفقون عليها علناً . ولم أستطع أن أمتنع نفسي من ترديد هذا القول على مسامع والدى . لذا ، طردوه عندما عاد . ولما قابلته بعد ذلك في الشارع ، كان في غاية البرود معي .

لكنه كان صادقاً فيما قاله عن برجوت :

في الأيام الأولى ، لم يظهر لي ما أحبته كثيراً بعد ذلك في أسلوبه ، كأنني أمام لحن موسيقى سأولع به ولم أتنبئه بعد . لم أستطع ترك روايته التي كنت أقرأها وظننت أنني مهم بموضوعها فحسب ، كما يحدث في لحظات الحب الأولى ، عندما نذهب كل يوم للقاء امرأة في اجتماع أو سباق مسل ، ظناً منا أنهما يجلباننا . ثم لاحظت العبارات النادرة ، البالية تقريباً ، التي يجب أن يستخدما في بعض اللحظات التي يسمو فيها أسلوبه بموجة خفية من الانسجام ، ومقدمة موسيقية داخلية . في هذه اللحظات أيضاً ، كان يبدأ الحديث عن « حلم الحياة العايب » ، و « شلال للمظاهر الحميلة الذي لا ينضب معينه » ، و « عذاب الوفاق والحب ، وهو عذاب عقيم لذيد » ، و « الصور المؤثرة التي تسمو إلى الأبد بواجهة الكاتدرائيات الخلية الساحرة » . كان يعبر عن فلسفة جديدة كل لحظة على بصور رائعة ، تبدو وكأنها هي التي أيقظت غناء الحارپ الذي علا ، وأعطت لمصاحبته طابعاً سامياً . وأسعدني أحد هذه المقاطع في رواية برجوت ، وهو الثالث أو الرابع الذي عزلته عن بقية النص ، سعادة لا تقارن بتلك التي شعرت بها عندما قرأت المقطع الأول ، سعادة أحسست بها في منطقة أعمق من نفسي ، أكثر توحداً ، واتساعاً ، أزيلت فيها العقبات والقواصل ، فيما يبدو ، تعرفت عندئذ على نفس الحب ، حب العبارات النادرة ، ونفس التدفق الموسيقي ، ونفس الفلسفة المثالية التي كانت سبباً لمتعني ، في المرات الأخرى ، بدون أن أدرك للأمر كنهاً . لذا ، لم أشعر أنني أمام مقطع خاص من كتاب من كتب برجوت يرسم على سطح فكري شكلاً خطياً صرفاً ، وإنما شعرت بالأحرى أنني أمام « مقطع مثالي » ، تشترك فيه كل كتب برجوت ، وقد تعطيه المقاطع المماثلة له التي تختلط به نوعاً من البسلك ، وتوسع فكري ، فيما يبدو .

لم أكن المعجب الوحيد ببرجوت . فلقد كان أيضاً الكاتب المفضل عند صديقة لولادتي مثقفة للغاية . أخيراً ، كان الدكتور بولبون يجعل مرضاه ينتظرون حتى يقرأ آخر كتاب صدر له . ومن عيادة هذا الطبيب ، ومن متنزه قريب من كومبريه ، طارت البذور الأولى للإعجاب ببرجوت ، وكانت من نوع نادر آنذاك ، لكنها



اليوم منتشرة عالمياً ، ونجد زهرتها العالمية المشتركة في كل مكان في أوروبا وأمريكا ، حتى في أصغر القرى . إن ما أحبه صديقة أوى ، وأحبه الدكتور بولون بصفة خاصة في كتب بروجوت ، وأحبته أنا أيضاً ، كان ذلك الفيض الموسيقي ، وتلك العبارات القديمة ، وعبارات أخرى بسيطة جداً وشائعة ، لكن المكان الذي يبرزها فيه الكاتب يكشف عن ذوقه الخاص . أخيراً ، كنا نجد في المقاطع الخزينة شيئاً من المباشرة ، ونبرة تكاد تكون مبهوكة ، ولا شك أنه أحس هو نفسه أن في ذلك تكن أكبر عناية . ففي كتبه التالية ، كان يوقف السرد ، إذا التقى بحقيقة كبرى ، أو اسم كاتدرائية شهيرة ، ودعاء ، أو نداء ، أو رجاء طويل ، يطلق العنان لذلك التدفق الذي كان يظل داخل نثره في كتاباته الأولى ، ولا تكشف عنه إلا موجات السطح ، وربما كانت أرق وأكثر انسجاماً عندما تحجب على هذا النحو ، ولا نستطيع أن نشير بدقة إلى المكان الذي بنشأ فيه همسا ويموت . كانت هذه المقاطع التي يتلذذ بها مقاطعنا المفضلة . كنت أفضيها عن ظهر قلب ، وأشعر بحمية أمل عندما يعود إلى مواصلة السرد . كان في كل مرة يتحدث فيها عن شيء ظل جباله خافياً على ، غابات الصنوبر أو البرد ، أو نوتردام حتى باريس ، أو « آتالي » أو « فيدرا » ، يفجر الجمال بصورة ويوصله إلى . لذا ، أدركت إلى أي مدى توجد أجزاء من الـكون يعجز إدراكي عن تبينها ، لولا أنه قربها إلى . كنت أود أن يكون له رأي في كل شيء ، وأن يعبر تعبيراً مجازياً عن كل شيء ، لا سيما عن الأشياء التي ستتاح لي فرصة رؤيتها بنفسى ، ومن بينها الفكرة الخاصة ببعض المباني الفرنسية القديمة وبعض المناظر البحرية ، لأن التأكيد الذي كان يذكرها به في كتبه يدل على أنه يعتبرها غنية بالمعاني والجمال . لكنني كنت لسوء الحظ أجهل رأيي في كل شيء تقريباً . لم يكن لدى شك في أنه مختلف تماماً عن رأيي ، لأنه بهيئ من عالم مجهول أحاول أن أرثي إليه : كنت متأكد أن أفكارى ستبدو حقايق لهذا الفكر الكامل . وكنت قد ضربت صفحاً منها جميعاً ، وعندما كنت أجد بالصلفة في كتابه هذا أو ذاك ، فكرة سبق أن خطرت لي ، كان قلبي ينشفع ، كان إلماً طيباً ردها لي وأعلن أنها جميلة مشروعة . وكان يحدث أحياناً أن تقول إحدى صفحاته نفس الأشياء التي أكتبها كثيراً في الليل لخلق وأنى ، عندما يستعصى على النوم ، ومن ثم تصبح الصفحة التي كتبها بروجوت أشبه بمجموعة من العبارات التي يمكن أن أضعها أعلى خطاباتي . حتى فيما بعد ، عندما كنت أبدأ في تأليف كتاب ، كنت أجد عند بروجوت معادلاً لبعض الجمل التي لا تكن نوعيتها لكي أقرو الاستمرار فيه . عندئذ فقط ، كنت أستطيع أن أستمع بها ، عندما أقرأها

في كتابه . وعندما كنت أجدها . وأحرص على أن تعكس بالضبط ما في ذهني ، خشية ألا « تكون مشابهة » ، كنت أجد أمامي متسعاً من الوقت لكي أتساءل عما إذا كان ما أكتبه مقبولا . وفي الواقع ، لم أكن أحب حقاً إلا هذا النوع من الجمل ، وهذا النوع من الأفكار . كانت جهودى القليلة التي لا ترضى ، في حد ذاتها ، علامة للحب ، حب بلا متعة لكنه عميق . لذلك كنت ، عندما أجد فجأة جملاً كهذه في كتاب كاتب آخر ، بعد تحليصى من التلقين ، والتشدد ، وبدون أن يكون هناك داع لى ألق ، استسلم أخيراً للذة حي لها ، كأننى طامى أضطر مرة إلى عدم الطمى ، ووجد أخيراً الوقت الكافى لى يكون نهماً . وذات يوم ، وجدت في كتاب من كتب برجوت ، فى معرض حديثه عن خادمة عجوز ، دعاية زادت من بغيرتها لغته الرائعة الراقية . وكانت نفس الدعاية التى كثيراً ما قلها لى وأنا أتحذ عن فرانسواز . وفى مرة أخرى ، أدركت أنه رأى أن ملحوظة تشبه تلك التى أتيت لى فرصة إبدائها عن صديقنا مسيو لوجراندان جديدة بأن ترد فى مؤلفاته التى تعكس الواقع . ( وهى ملحوظات عن فرانسواز ومسيو لوجراندان كان يمكن ، بطبيعة الحال ، أن أضحي بها عن طيب خاطر لاقتناعى بأن برجوت قد يراها بلا أهمية ) . عندئذ ، خيل لى فجأة أن حياتى المتواضعة ليست منفصلة عن ممالك الحقيقة ، كما أظن ، بل تتفق معها فى بعض النقاط ، وبكى على صفحات الكاتب لفرط الثقة والفرح ، وكأننى بن أحضان أب التقيت به ثانية .

تخيلت ، من خلال كتب برجوت ، أنه عجوز ضعيف خائب الأمل فقد أنباه ولم يتعز عن فقدانهم أبداً . لذا ، كنت أقرأ نثره ، وأغنيه داخل ، ربما بطريقة أعذب وأبطأ من الطريقة التى كتب بها . وكانت أبسط جملة تخاطبى بنبرة حنون . كنت أحب فلسفته أكثر من أى شيء آخر ، ووهبت نفسى لها لى الأبد . وكانت تجعلى أتعمل اللحظة التى أبلغ فيها من دخول المدرسة ، والقسم المسمى قسم الفلسفة . لكنى كنت أريد أن تدرس فيه الحياة بفكر برجوت . ولو أنه قيل لى آنذاك : إن علماء الميتافيزيقا الذين سأتعلق بهم يشبهونه فى شيء ، لأحسست بنحية أمل العاشق الذى يريد أن يحب مدى الحياة ، ويحدثونه عن العشيقات الأخريات اللاتى سيعشقهن فيما بعد .

وفى يوم أحد ، بينما كنت أقرأ فى الحديقة ، أزعجنى سوان ، وكان قد جاء لرؤية والدى :

— « ماذا تقرأ ؟ ممكن أن أرى ؟ آه ، كتاباً لبرجوت ، من الذى أشار عليك  
بقراءة مؤلفاته ؟ »

فقلت له : « بلوك » .

— « آه ! الصبي الذى رأيته هنا مرة ، ويشبه كثيراً الصورة التى رسمها بالينى  
لمحمد الثانى . إنه لشيء ملفت للنظر ، فهو يشبه بحاجبيه المرفوعين ، وأنفه المقوس .  
ووجنتيه البارزتين . وسيكون نفس الشخص ، عندما تنبت لحيته . ذوقه حسن ، على  
أية حال ، لأن برجوت كاتب ذو فكر ساحر » . وإذا رأى سوان إلى أى حد أحب  
برجوت ، خالف القاعدة التى تجعله لا يتحدث أبداً عن الناس الذين لا يعرفهم :  
وقال لى :

— « أعرفه معرفة وثيقة ، وإذا كان يسرك أن يكتب لك كلمة فى مقدمة كتابك ،  
يمكن أن أطلب منه ذلك » .

لم أجزؤ على القبول ، لكنى سأته عن برجوت : « هل تستطيع أن تقول لى أى  
نمطين يفضل ؟ »

— « لا أدرى ، لكنى أعرف أنه لا يقارن أى فنان بالفنانة لا برما التى يضعها  
فوق الجميع . أسمعتها ؟ »

— « لا ياسيدى ، فوالدى لا يسمح لى بالذهاب إلى المسرح » .

— « شيء مؤسف . يجب أن تطلب منهما ذلك . فى « فيدرا » و « السيد » ،  
لا برما ممثلة ليس إلا ، إذا شئت ، لكنى لا أومن كثيراً « بتدرج » : الفنون كما تعلم  
( ولأحظت ، وكثيراً ما لفت نظرى فى أحاديثه مع أخوات جلتى أنه ، عندما يتحدث  
عن الأشياء الجادة ، أو يستخدم عبارة تتضمن رأياً فى موضوع هام ، يعنى بعضها  
ببيرة خاصة ، آلية ساخرة ، كأنه يضعها بين قوسين ، ويتظاهر بأنه لا يريد أن تحسب  
عليه ، فيقول : « التدرج كما يقول السفهاء » لكن ، إذا كان ذلك سفهاً ، لم استخدم  
كلمة التدرج إذن ؟ وأضاف قائلاً ، بعد ذلك بلحظة : « سيقدم لك ذلك رؤية تعادل  
فى سموها أى عمل رائع ، قد يكون . . . وأخذ يضحك — « ملكات شارتر » . كانت  
كراهيته للتعبير جديداً عن رأيه قد بدت لى حتى هذه اللحظة وكأنها شيء أتيقن بأورس  
حتماً ، شيء يتعارض مع النزعة العقائدية الرفيعة عند أخوات جلتى . وأحسنت أيضاً

أنها شكل من الأشكال اللعنية السائدة في الزمرة التي يعيش فيها سوان ، تلك التي تبالغ في رد الاعتبار إلى الوقائع الصغيرة المحددة التي قبل فيها معنى إنها مبتكرة ، وتحرم « الجمل » . لكني أجد الآن شيئاً يصلني في هذا الموقف الذي يتخذه سوان أمام الأشياء . كان لا يجرؤ ، فيما يبدو ، على إبداء رأيه ، ولا يترشح إلا إذا استطاع أن يعطي بعض المعلومات المحددة بدقة . لكن ، أو لم يكن يدرك إذن أن هذا يعني المجاهرة بالرأى ، والتسليم بأن صحة هذه التفاصيل ذات أهمية ؟ فكرت عندئذ مرة أخرى في ذلك العشاء الذي حزننت له كثيراً لأن أي لم تتمكن من سببه من الصعود إلى غرفتي ، والذي قال أثناءه إن الحفلات الراقصة عند الأميرة دي ليون ليست لها أية أهمية . ومع ذلك ، كان يشغل حياته بهذا النوع من المتع . رأيت أن كل هذا متناقضاً . لأى حياة أخرى كان يحتفظ بإبداء رأيه جديداً في الأشياء ، وإصدار الأحكام التي لا يستطيع وضعها بين قوسين ، وعدم الاستسلام بأدب جم لمشاكل يعلن ، في الوقت نفسه ، أنها ضئيلة ؟ لاحظت أيضاً ، في الطريقة التي حدثني بها سوان عن برجوت ، شيئاً لم يكن خاصاً به ، بل كان ، على عكس ذلك ، مشتركاً بينه وبين كل المعجبين بهذا الكاتب ، وصديقه أوى ، والدكتور بولبون . كانوا يقولون عن برجوت ، كما يقول سوان : « إنه صاحب فكر ساحر ، وخصائص للغاية ، وله طريقة فريدة في قول الأشياء » ، طعنة بعض الشيء ، لكنها لطيفة جداً . لسنا بحاجة إلى رؤية التوقيع ، فنحن نعرف على الفور أن الكتاب من تأليفه . لكن ما من أحد منهم كان يلعب إلى حد قول « إنه كاتب كبير ، ذو موهبة فائقة » ، بل كانوا لا يقولون حتى أنه موهوب . كانوا لا يقولون ذلك لأنهم لا يعرفونه . فنحن لا نتعرف ، في الوجه الخاص بكاتب جديد ، على النموذج الذي يقال إنه موهوب جداً ، في متحف أفكارنا العامة ، إلا بعد فترة طويلة جداً . ولأن هذا الوجه بالذات جديد ، لا نرى تماماً أنه يشبه ما نسميه موهبة ، بل نقول بالأحرى إنه ابتكار ، أو سحر ، أو قوة . وذات يوم ، ندرك أن كل هذا هو الموهبة . سألت سوان :

— « هل كتب برجوت كتباً تحدث فيها عن لايرما ؟ »

— « اعتقد أنه تحدث عنها في كتيب صغير عن راسين ، لكن طبعته فلفتت بلاشك . وربما أهداه طبعه . سأسأل عن ذلك . فضلاً عن أنني أستطيع أن أطلب من برجوت كل ما تريد . فلا يخفى أسبوع بدون أن يتناول العشاء عندنا . إنه صديق عزيز لإبنتي وها يلعبان معاً لزيارة المدن القديمة ، والكاتدرائيات ، والقصور » .

؛ وبما أننى كنت افتر إلى أية فكرة عن السلم الإجتماعى ، كانت استحالة مخالفتنا لمدام ومدموازيل سوان ، فى رأى أبى ، قد أدت ، من مدة طويلة ، إلى إعطائهما شيئاً من الحرية فى نظرى ، وجعلتنى أنجلى مسافات كبيرة بينهما وبيننا . وندمت لأن أبى لا تصبغ شعرها ، ولا تضع أحمر الشفاه ، عندما سمعت جارتنا مدام سيزراه تقول إن مدام سوان تفعل ذلك لتعجب مسيو دى شارلوس لا زوجها . وظننت أنها تحتقرنا بلا شك . وكان هذا يؤلمنى بصفة خاصة بسبب مدموازيل سوان ، التى قبلت أنى أنها فتاة حلوة ، وكثيراً ما كنت أحلم بها وأعطيتها فى كل مرة نفس الوجه الساحر . لكن ، عندما علمت فى ذلك اليوم أن الآتسة سوان مخلوق نادر إلى هذا الحد ، وأنها تسبح وسط كل هذه الامتيازات كما لو كانت فى بيتها الطبيعية ، وأن والدتها يقولان لها ، عندما تسألها عما إذا كان أحد قد دعى إلى تناول العشاء ، بخروف مليئة بالنور ، إن الضيف الغالى ليس سوى صديق قديم للأسرة : برجوت ، وإن الحديث الحميم حول المائدة ، وهو يقابل حديث عمى الكبرى بالنسبة لى ، هو كل ما سبقوله برجوت فى الموضوعات التى لم يتطرق إليها فى كتبه وكنت أود سماع رأيه فيها ، وإنه يسير بجانبها ، مجهولاً ، فخوراً ، عندما تذهب لزيارة بعض المدن كالألة التى تنزل بين البشر ، كنت أحس فى آن واحد بقيمة مدموازيل سوان كإنسان ، وأننى قد أبدوا لها فقطراً جاهلاً . وتمكننى شعور قوى بحلاوة مصادقنى لها واستحالتها ، لدرجة أننى امتلأت بالرغبة واليأس فى نفس الوقت . وبحيث فى أغلب الأحيان الآن ، عندما أفكر فيها ، أن أراها أمام مدخل كاتدرائية وهى تشرح لى معنى التماثيل ، وتقلمنى لصديقها برجوت بابتسامة تقول عنى خيراً . ودائماً مصر الأفكار التى تولدها فى الكاتدرائيات ، ومصر متحدرات ليل دى فرانس وسبول نورماندى ، مصر تنعكس ظلالة على الصورة التى كوتبتها عن الآتسة سوان : وكان هذا يعنى الاستعداد التام لحبها . وأن نعتقد أن إنساناً يساهم فى حياة مجهولة قد يلخنها فيها حبه هو أكثر شئ يحرص عليه الحب ، من بين كل ما يتطلبه لكى يولد . هو الشئ الذى يجعله يتفاضى عن كل ما تبقى . حتى النسوة اللاتى يزعمن أنهن لا يمكن على الرجل إلا من شكله ، يرين فى الشكل انبثاقاً لحياة خاصة . لذا ، يشعرون بالحب نحو الصكربين ، ورجال الحطافى . فازرى الموحد يجعلهن أقل تشدداً بالنسبة للوجه ، ويعتقدن أنهن يقبلن تحت الدرع قلباً مختلفاً ، مغامراً ، رقيقاً . والعاقل الشاب أو ولى العهد ليس فى حاجة إلى الشكل المتسق المنسجم ، وبما كان لابد منه لسمسار فى البورصة لكى يقوم بأنجح غزواته فى البلاد الأجنبية التى يزورها .

وبينما كنت أقرأ في الحديقة ، وهو عمل لم تكن عني الكبرى تفهم أن أقوم به في يوم غير يوم الأحد ، أى يوم ممنوع فيه على المرء أن يقوم بعمل جاد ، وتوقف فيه عن الحياة (ولو أننى فعلت ذلك في يوم من أيام الأسبوع لقلت لى : « ماذا ؟ أما زلت تلهو بالقراءة ، مع أن اليوم ليس الأحد ؟ » وهى تعطى كلمة تلهو معنى التصرف الصياني وضياح الوقت ) ، كانت العمة ليونى تتحدث إلى فرانسواز وهى فى انتظار أولالى ، وأخبرت أنها رأت لتوها مدام جوىي عمر « بلا مظلة ، فى الثوب الحريرى الذى فصلته فى شاتودان . وإذا كان لديها مشوار طويل قبل صلاة العصر ، فمن الممكن جداً أن تهمل من المطر » .

— « يمكن ، ( وربما كانت تقصد « لا » ) ، هذا ما قالت فرانسواز ، لكى لا تستبعد نهائياً إمكانية اختيار أفضل من هذا . قالت العمة وهى تضع يدها على جبينها :

— « آه ! يذكرنى ذلك بأننى لم أعرف ما إذا كانت قد وصلت إلى الكنيسة بعد رفع كأس القربان أم لا . يجب أن أسأل أولالى عن ذلك . . . انظرى ، يا فرانسواز ، إلى هذه السحابة السوداء خلف برج الأجراس ، وهذه الشمس الكريمة فوق الأردواز . طبعاً ، لن يمر النهار بدون أن يسقط المطر . لم يكن من الممكن أن يظل الجو على هذا الحال لأنه كان حاراً جداً . ولو أن المطر سقط فى وقت مبكر ، لكان ذلك أفضل ، لأن ماء فيشى لن ينزل طالما أن العاصمة لم تنفجر . هذا ما أضافته عنى ، وكانت رغبتي فى التسجيل بنزول ماء فيشى تفوق كثيراً ، فى ذهني ، خوفها على ثوب مدام جوىي من الجلب .

— « ربما ، ربما » .

وصاحت عني فجأة وقد شحبت لونها : « وعندما يسقط المطر على الميدان ؟ لا توجد ظلة كبيرة . ماذا ؟ الساعة الآن الثالثة ؟ ؟ بدأت صلاة العصر إذن ؟ ونسيت البيس ؟ فهمت الآن لماذا ظل ماء فيشى فى معلقى ! »

وصارعت إلى كتاب القديس الجبل بالمخمل البنفسجى الملعب . وفى عجلتها ،

سقطت منه بعض هذه الصور التى يحيط بها شريط من الورق المقرغ المضفر وتشير إلى صفحات الأعياد . وفى الوقت الذى ابتلعت العمة فيه دواءها ، أخذت تقرأ بأسرع ما يمكن ، للتصويع المقلسة التى ازدادت غموضاً فى نظرها ، إلى حلما ، لأنها لا تعرف

ما إذا كانت اليبسين لا تزال قادرة على اللحاق بماء فيثى وإنزاله ، بعد أن شربها  
بعده مدة طويلة : « الساعة الثالثة ؟ غير معقول ! كم يمر الوقت بسرعة ! »

ضربة خفيفة على الزجاج ، كأن شيئاً قد اصطدم به ، تلاها سقوط خفيف ،  
كأن حبات من الرمال قد سقطت من نافذة عليا ، ثم امتد السقوط ، وانتظم ، واتخذ  
ابقاعاً ، وأصبح منساباً ، رناناً ، موسيقياً ، لا يحصى ، عالمياً : سقط المطر . —

— « أ رأيت يا فرانسواز ؟ ماذا قلت لك ؟ كم هو غزير ! لكنى اعتقد أننى سمعت  
جرس باب الحديقة . اذهبى ، وتبينى من يمكن أن يكون خارج داره فى جو كهذا . »  
عادت فرانسواز .

— « إنها مدام أميديه ( جلتى ) . قالت إنها ستقوم بجولة ، مع أن المطر غزير . »  
قالت عمتى وهى ترفع عينها إلى السماء :

— « تصرفها هذا لا يدهشنى . لقد قلت دائماً إنها لا تفكر كسائر البشر . افضل  
أن تكون فى الخارج الآن بدلا منى . »

قالت فرانسواز برفقة « واحتفظت للحظة التى تفرد فيها بالخدم الآخرين بقولها  
إن جلتى « مجنونة » إلى حد ما :

— « مدام اميديه تناقض الآخرين دائماً . »

وتنهبت العمة وقالت : « ها هو ذا السلام قد انتهى ! لن نحضر أولالى . لاشك  
أن الجو هو الذى أخافها . »

— « لكن الساعة لم تبلغ الخامسة ، يا مدام أوكتاف ! الساعة الآن الرابعة والنصف  
فقط . »

— « والرابعة والنصف فقط ؟ واضطرت أن أرفع الستائر الصغيرة لأرى شعاعاً  
باهتاً من النهار ؟ فى الرابعة والنصف ؟ وقبل صلوات الربيع بثانية أيام ؟ آه ، يا مسكيتى  
فرانسواز لاشك أن الله غاضب جداً علينا . كما أن الناس يبالون اليوم . وكما قال عزيزى  
أوكتاف نسى الناس الله كثيراً . لذا ، فهو ينتقم . »

علا وجنتى عمتى احمرار واضح . وجاءت أولالى ، ولسوء الحظ ، لم تكد  
تدخل حتى عادت فرانسواز . وبابتسامة تهدف بها إلى الإشتراك فى الفرحه التى ستبعتها

كلماتها في نفس عتي بلا شك ، نقلت ، وهي تلفظ مقاطع الكلمات بوضوح لتثبت أنها ، رغم استخدامها الأسلوب غير المباشر ، تنقل كخادمة ممتازة ، نفس الكلمات التي تنازل للزائر واستخدمها :

— « سيكون الخورى سعيداً ومسروراً ، لو أن مدام أوكثاف استقبلته ، هذا إذا كانت لم تخلد إلى الراحة بعد . فالخورى لا يريد أن يزعجها . الخورى تحت ، وقلت به أن يدخل إلى الصلاة » .

في الواقع ، كانت زيارات الخورى لا تمتع عتي كما تظن فرانسواز . والفرح التي كانت فرانسواز تعتقد أن لا بد من ارتسامه على وجهها ، في كل مرة تعلن فيها عن قدومه لم يكن مثقلاً كل الاتفاق مع مشاعر المريضة . فالخورى ( وهو رجل ممتاز أنتم لأنني لم أتعهد معه كثيراً ، لأنه لا يفقه شيئاً في الفنون ، ويعرف الكثير عن أصول الكلمات ) الذي اعتاد أن يقدم لكبار الزوار معلومات عن الكنيسة ( بل كان ينوي أن يكتب كتاباً عن أبراشية كومبريه ) ، كان يرق عتي بالتفاصيل التي لا تنتهي ، فضلاً عن أنها كانت هي هي دائماً . كانت زيارته تنقل على نفس عتي صراحة إذا ما اتفقت زمناً مع زيارة أولالي . فلقد كانت تفضل أن تستفيد من أولالي ، وألا يأتي الاثنان في وقت واحد . لكنها لا تجرؤ على عدم استقبال الخورى ، وكانت تكني بالإشارة إلى أولالي حتى لا تلهب عنهما يلهب ، وتبقى قليلاً معها على انفراد ، بعد رحيله .

— « ياسيدي الخورى ، أصبح ما قيل ، إن فناناً وضع حامله في كنيسةك لينقل زجاجية ؟ يمكن أن أقول إنني لم أسمع عن شيء كهذا طوال حياتي . ما الذي يبحث عنه الناس اليوم ؟ فضلاً عن إنها أفجع شيء في الكنيسة ! »

— ولن أذهب إلى حد القول إنها أفجع شيء في الكنيسة ! فإذا كانت توجد في سانت هيلم ، كنيسة المسكينة ، أجزاء جديدة بالزيارة ، فإن فيها أيضاً أجزاء قديمة للغاية ، إنها الوحيدة في الأسقفية كلها التي لم ترمم . أصبح أن منخلها قذر قديم ، لكنه جليل الطابع . دعنا من اللوحات التي تمثل « استبر » ، ولا يمكن أن أدفع شخصياً مليونين ثماناً لها ، وإن كان الخبراء يضعونها بعد لوحات سانتس مباشرة . وأعترف بأن فيها بعض التفاصيل التي تشهد على قدرة حقيقية على الملاحظة ، إلى جانب تفاصيل واقعية إلى حد ما . لكن ، بالله عليكم ، لا نخلشوني عن الزجاجيات ! هل يعقل أن



ترك نوافذ لا يدخل منها النور ، بل تخدع البصر بالانعكاسات لون لا أستطيع أن أحدهه في كنيسة لا توجد فيها بلاطان في نفس المستوى ، ويرفضون استبدال بلاطها بآخر بحجة أنه يغم رفات قساوسة كومبريه وسادة جرمونت وآل دى براهون ؟ وهم الأسلاف المباشرين لدوق جرمونت والدوقة ، مادام زوجها ابن عمها ( كانت جدتي قد انتهت إلى خلط كل الأسماء لعدم اكترائها بالأشخاص الذين يحملونها . وفي كل مرة كانت تسمع فيها اسم الدوقة دى جرمونت ، كانت تزعم أنها بلا أدنى شك . قريبة لمدام دى غلياريزيس . عندئذ ، كان الجميع ينجحون في الضحك ، وتحاول هي أن تدافع عن نفسها ، وتصحج بدعوة تلقاها وتقول : « يخيّل لي ، على ما أذكر ، أن كان فيها شيء عن جرمونت . عندئذ فقط ، كنت اتفق مع الآخرين ولا اتفق معها ، لأنني لا أستطيع أن أسلم بوجود أي علاقة بين زميلتها في الدراسة وسليبة جشيف دى براهون ) . انظروا إلى روسانفيل . لم تعد اليوم إلا ابراشية مزارعين ، مع أنها كانت فيما مضى مدينة بشهرتها لتجارة القبعات المخوخ وساعات الحائط ( لست متأكداً من أصل كلمة روسانفيل ، وأميل إلى اعتقاد أن اسمها الحقيقي كان « روفيل — رادولفي فيلا » ، لكن ، سأجبتكم عن ذلك في مقام آخر ) . زجاجيات كنيسها رائعة ، وكلها تقريباً حديثة ، وانظروا إلى اللوحة المهيبة المسماة « دخول لوى فيليب إلى كومبريه » ! قد تكون كومبريه مكاناً أكثر ملاءمة لها ، ويقال إنها تعادل زجاجيات شارتر الشهيرة . لقد رأيت بالأمس فقط أخص الدكتور برسييه ، وهو هاوى ، ينظر إليها باعتبارها عملاً رائعاً . لكن ، كما قلت لذلك الفنان الذى يبدو مؤدياً جداً ، ويقال إنه رسام بارع حقاً : أى شيء مخارق للعادة ترى في هذه الزجاجية التي تفوق قناتها تمامة الآخرين ؟ »

قالت عتي براخى ، لأنها بدأت تعتقد أنها ستعجب : « أنا متأكدة أن الأسقف لن يرفض إعطائك زجاجية جديدة ، إذا طلبت منه ذلك » . ورد الخورى قائلا : « ذلك من الآمال يا مدام أوكتاف ! فالأسقف بالنات هو الذى يادر بلغت النظر إلى هذه الزجاجية النعسة ، عندما أثبت أنها تمثل بجيلير لى موفيه ، سيد جرمونت ، للسليل المباشر لخفيف دى براهون التي كانت من آل جرمونت ، وهو يتلقى غفران سانت هيلير .

— « لكنى لا أرى سانت هيلير .. أين هو ؟ »

— في ركن الزجاجة . أو لم تلاحظي أبدأ سيدة تلبس ثوباً أصفر ؟ إنها سانت هيلير ، الذي يدعى أيضاً ، كما تعلمون ، في بعض المقاطعات ، سان ايليه وسان إلييه ، بل وسان ايلي ، في مقاطعة إلخوراه . وهذا التحريف لعبارة « Sanctus Hilarius » ليس أغرب تحريف طرأ على أسماء القديسين . على سبيل المثال ، أنعرفين باعيززي أولالي إلى أي اسم تحول اسم راعيتك ، القديسة أولاليا ، في مقاطعة بورجونى ؟ أصبح اسمها سان ايلواه ، بكل بساطة : القديسة أصبحت قديساً . هل تصورين يا أولالي تحوُّلك إلى رجل بعد مماتك ؟ — « سيدى إلخورى دائم المزاج » — « كان شارل لى بييج ، أخو چلير ، أميراً ثقيلاً فقدته والده — ببيان المعتبر الذى مات نتيجة لإصابته بمرض عقلى — وهو بعد صغير ، فارس السلطة العليا بتهور الشباب الذى يفتقر إلى النظام . فعندما كان لا يروقه وجه شخص في إحدى المدن ، كان يأمر بقتل كل من فيها ، حتى آخر سكانها . أراد چلير أن ينتقم من شارل ، فأمر بإحراق كنيسة كومبريه ، الكنيسة الأولى ، الكنيسة التى وعد تيودور ، وهو يغادر مع رجال بلاطه بيته الرئفى القريب من هنا ، في تيرزى ، ببنائها فوق قبر سانت هيلير ، إذا كتب له هذا القديس النصر . ولم يبق منها إلا القبر الذى نزلت فيه مع تيودور بلا شك ، مادام چلير قد أحرق ما بنى منها . وبعد ذلك ، هزم شارل المسكين ، بمساعدة غيوم لى كونيرون ، لنا ، يأتى كثير من الانجليز للزيارة . لكن ، يبدو أنه لم يعرف كيف يكسب ود سكان كومبريه . لذلك ، انقضوا عليه وهو خارج من القداى وقطعوا رأسه . ثم إن تيودور بعبر لمن يريد كتاباً صغيراً يفسر كل هذا . لكن ، أغرب شيء فى كنيسةنا بلا جدال هو ذلك المنظر الذى يرى من برج الأجراس . إنه منظر رائع . وبما أن صحتك ليست على ما يرام ، لن أنصطح طبعاً بصعود درجات السلم ، وعددها سبعة وتسعين ، أى نصف قبة ميلانو الشهيرة بالضبط . حتى الشخص الذى يتمتع بصحة جيدة يمكن أن يتعب منها ، لا سيما أنه يجب أن ينحن تماماً إذا أراد ألا يتحطم رأسه ، ويجمع ملباسه خيوط عنكبوت السلم . على أية حال ، لابد أن تتدثرى — أضاف هذا بدون أن يرى الغضب الذى استولى على عنى لحد تفكيرها فى إمكانية صعودها إلى برج الأجراس — ، لأن تيارات الهواء تشتد عندما يصل المرء إلى أعلى البرج . ويؤكد البعض أنهم أحسوا فى هذا المكان ببرودة الموت . لا أهمية لهذا . فأيام الأحد ، تأتى دائماً مجموعات ، ولو من بعيد جداً ، لتأمل جمال البانوراما ، وتعود وهى مفتونة . ويوم الأحد القادم ، إذا ظل الجو جميلاً ، ستجدين بالتأكيد كثيراً من الناس ، لأنه يوم صلوات الربيع . علاوة على ذلك ،

لا بد من الاعتراف بأن العين تستمتع من هنا بمنظر ساحر ، فيه أماكن ينقل منها البصر إلى السهل ولها طابع خاص للغاية . وإذا كان الجو محمواً ، يمكن أن تمتد البصر حتى فرنوى وبصفة خاصة ، يلم المرء في آن واحد بأشياء لا يستطيع أن يراها عادة إلا منفردة ، مثل مجرى الشيفون وخنادق سان اسيرى كومبريه ، ويصطل عليها وبين انهـر ستار من الأشجار . العالية ، أو قنوات جوى لى فيكونت المختلفة . وفى كل مرة ذهبت فيها إلى جوى لى فيكونت ، رأيت فعلاً طرفاً من القناة ، ثم رأيت قناة أخرى ، بعد انعطافى فى أحد الشوارع ، وعندئذ ، غابت القناة الأولى عن بصرى . ولم أكن أحصل على أثر يذكر ، كلما حاولت أن أضعهما معاً ذهنياً . أما من أعلى برج أجراس سانت هيلير ، فكان الأمر مختلفاً تماماً ، لأن الناحية تدخل فى شبكة كاملة . كل ما هنالك أن العين لا تميز المياه ، كان شقوقاً كبيرة تقسم المدينة إلى أحياء ، وتجعلها تشبه كمكة تماسكت أجزاؤها ، وإن كان قد سبق تقطيعها . ولكى يكون كل شيء على ما يرام ، كان لا بد أن يكون المرء فى آن واحد فى برج أجراس سانت هيلير وجوى لى فيكونت .

كان الخورى قد أجهـد عني لدرجة أنه لم يكـد يرحل حتى اضطرت إلى أن تطلب من أولالى الانصراف . وقالت بصوت خافت ، وهى تأخذ قطعة نقود من كيس صغير قريب منها : « خلى يا عزيزتى أولالى ، لا تنسى فى صلواتك ! »

— « لا يا مدام أوكتاف ! لا أدرى ما إذا كان يجب أن آخذها ، فأنت تعلمين حق العلم أننى لا آتى من أجل هذا ! » هذا ما كانت تقوله أولالى فى كل مرة ، بنفس التردد ونفس الحرج ، كأنها تفعل ذلك لأول مرة ، وبغضب ظاهرى كان يفرح عني ويروق لها . وكانت عني تقول ، إذا أهلت أولالى يوماً قدراً من الخجل أقل من العادة وهى تأخذ قطعة النقود :

— « لا أعرف ماذا أصاب أولالى ، مع أننى أعطيها ما أعطيه لها عادة ، لم تكن مبرورة فيها يبدو . »

فكانت فرانسواز تنهد وتقول : « اعتقد أنه ليس لديها أى سبب للشكوى ، لأنها تميل إلى اعتبار كل ما تعطيه عني لها ولأولادها « فكة » ، وقطع النقود الصغيرة التى توضح كل يوم أحد فى يد أولالى ، بطريقة لا تمكن فرانسواز من رؤيتها أبداً ، كنوزاً تبدجنون من أجل إنسانة ناكرة للجميل . ولا يعنى هذا أن فرانسواز كانت

تريد أن تعطى لما عمتى النقود التي تعطىها لأولاي . فقله كانت تستمتع بما تملك عمتى بما فيه الكفاية ، لأنها تعرف أن ثروة السيدة ترفع في الوقت نفسه من شأن خادمتها ، وتحميها في نظر الجميع . وأنها ، أي فرانسواز ، عظيمة وعجيبة في كومبريه وچوى لي فيكونت . وأماكن أخرى ، بفضل مزارع عمتى العديدة ، وزيارات الخوروى الممتدة المتكررة ، وعدد زجاجات مياه فيثي التي تسهلها ، وهو عدد لا نظير له . لم تكن بخيلة إلا بالنسبة لعمتى . ولو أن هذه الأخيرة عهدت إليها بالتصرف في ثروتها ، وهذا ما كانت تحلم به ، لحافظت عليها من تعديلات الغير بوحشية الأم . ومع ذلك ، قد لا ترى ضرراً كبيراً في استسلام عمتى للعطاء ، وكانت تعلم أن لا أمل في شفاؤها من هذا الداء ، لو أنه خص الأغنياء على الأقل . فربما ظنت أنه لا شك في حب هؤلاء الأغنياء لعمتى ، لأنهم لا يحتاجون إلى هداياها ، فضلاً عن أن هذه الهدايا كانت تقدم لأشخاص أثرياء ، مدام سيزاه ، ومسيو سوان ، ومسيو لوجراندان ، ومام جوفى ، أى أشخاص من « مرتبة » عمتى « يليق بعضهم ببعض الآخر » . لذا ، كانت فرانسواز تنظر إلى هذه الهدايا على أنها من عادات الحياة الغريبة البراقة التي يحياها الأثرياء الذين يلذبون للصيد ، ويقيمون الحفلات الراقصة ، ويتزاورون ، وتعجب بهم وهي تبسم . لكن الأمر كان يختلف إذا كان المستفيدون من كرم عمتى من أولئك الذين تسميهم فرانسواز « أناساً مثلي ، لا أحسن منى » . كان هؤلاء أكثر من تحقرهم ، اللهم إلا إذا دعوا « مدام فرانسواز » ، واعتبروا أنفسهم « أقل منها » . وعندما رأته عمتى تفعل ما يحلو لها بالرغم من نصائحها ، وتبدد المال — في رأى فرانسواز على الأقل — من أجل مخلوقات لا تستحقه ، بدأت ترى أن المبالغ التي تنهبها لها عمتى قليلة ، إذا ما قورنت بالمبالغ الخيالية التي تنهبها لأولاي . لم توجد في ضواحي كومبريه مزرعة كبيرة لم تقترض فرانسواز أن أولاي قادرة على شرائها بسهولة ، بكل ما تدره عليها زيارتها . والواقع أن أولاي كانت تظن أن فرانسواز تملك ثروة طائلة خفية . وعادة ما كانت فرانسواز لا تترقب بأولاي عندما تتحدث عنها بعد زحيلها . كانت تكرهها ، لكنها تخاف منها ، وتعتقد أن عليها أن تبدو « بوجه بشوش » عندما تحضر . كانت تسترد حقها بعد زحيلها ، لكن بدون أن تتلق باسمها ، بل تتلق بنقود غامضة ، أو أحكام عامة كأحكام سفر العهد القديم ، ولم يكن اسم المقصودة بها يغيب عن عمتى ، بطبيعة الحال . كانت تقول ، وهي ترفع طرف الستار لترى ما إذا كانت أولاي قد أغلقت الباب : « يعرف المنافقون كيف يحوزون الرضا ، ويجمعون المال . لكن ، صبراً فسيترى الله »

بهم المقاب ذات يوم ، بنظرة جانبية وتلميح كأنه تلميح جواس الذى لا يفكر إلا فى آتائى وهو يقول : « سعادة الأشرار تسيل كالشلال » .

ولما كان الحورى يحضر ، وينهك قوى عمى بزياراته التى لا تنتهى ، كانت فرانسواز تخرج من الغرفة خلف أولالى وتقول : « مدام أوكتاف ، سأذهب لكى ترتاحى . يبدو أنك متعبة جداً » . وكانت عمى لا تتكبد مشقة الرد عليها ، وتتلهد تنهيدة تبدو وكأنها التنهيدة الأخيرة ، وهى مغمضة العينين ، وشبه ميتة . لكن ، لا تكاد فرانسواز تهبط الدرج حتى ترن فى البيت أربع دقات عنيفة كل العنف . كانت عمى تنصب فوق فراشها وتصرخ قائلة : « هل ذهبت أولالى ؟ تخيلى أننى نسيت أن أسألها عما إذا كانت مدام جوى . قد وصلت إلى الكنيسة بعد رفع كأس القربان ؟ ! اسرعى والحقى بها ! »

وكانت فرانسواز تعود بحفى حنين ، لأنها لم تتمكن من اللحاق بأولالى .

فتبهر عمى رأسها وتقول : « أنا متناظرة ، فهذا هو الشيء الوحيد المدام الذى كنت أريد أن أسألها عنه ! » .

هكذا كانت تضيى حياة العمة ليونى ، متبائلة دائماً ، فى رتابة هادئة تسميها بازدراء مفتعل وحنان عميق « رتابة بسيطة » . كان الجميع يحافظون على هذه الرتابة ، لا فى البيت فحسب ، حيث أحس الجميع بأن لا جدوى من نصيحها بحياة صحية أفضل ، واستسلموا تدريجياً لاحترام تلك الرتابة ، وإنما فى القرية أيضاً . فلقد كان المكلف بتغليظ الطرود يسأل فرانسواز عما إذا كانت عمى « ترتاح » ، قبل أن يلقى المسامير فى صناديقه ، على بعد ثلاثة شوارع منا . وتكرر صفو هذه الرتابة مرة واحدة فى تلك السنة . ذات ليلة ، جاء فجأة الخلاص للخادمة ، كأنه ثمرة خفية نضجت ولم تر ، وسقطت فجأة . كانت آلامها لا تحتمل . ولأنه لا توجد « نهاية » فى كوميدياها ، اضطرت فرانسواز أن تلعب للإيتيان « بداية » من تيريزى قبل طلوع النهار . ولم تتمكن بحقى من الراحة ، لأن الخادمة كانت تصرخ . ولم تعد فرانسواز إلا فى وقت متأخر جداً ، بالرغم من قصر المسافة . لذا ، افتقدتها عمى كثيراً ، وقالت فى أى فى الصباح : « فإضعد لرى ما إذا كانت حمتك فى حاجة إلى شيء » .

دخلت الغرفة الأولى ، ومن خلال الباب المفتوح ، رأيت عمى ترقد على جنبها وهى نائمة ، سمعتها تنسحر قليلاً . وأوشكت على حودة أدراجى بهلوه . لكن لا شئ

أن صوت دخولي تدخل في نومها و « غير سرعته » ، كما يقال عن السيارات ، لأن موسيقى الشخير توقفت لحظة ، وعادت بدرجة أقل . ثم استيقظت العمة ، وأدارت نصف وجهها الذي استطعت أن أراه عندئذ . كان يعبر عن لون من الرعب . من الواضح أنها كانت تحلم حلماً فظيماً . وكان وضعها لا يسمح لها ببرؤيى . فبقيت في مكانى ، لا أدري هل أتقدم أم أنصرف . لكنها عادت إلى الإحساس بالواقع فيها يبدو ، وأدركت أن الروى التى أفرعها كاذبة . فأضامت وجهها ابتسامة فرح وامتنان تقى لله الذى يسمح بأن تكون الحياة أقل قسوة من الأحلام . وهمست ، كما اعتادت أن تحدث نفسها بصوت خافت كلما اعتقلت أنها بمفردها : « شكراً لله . لا متاعب لدينا ، إلا الخادمة التى تلد . كنت أحلم بأن أوكثاف المسكين قد عاد إلى الحياة وأنه يريد منى أن أقوم بنزهة كل يوم » . ومدت يدها إلى مسبحتها فوق المنضدة الصغيرة ، لكن الثعاس العائد جعلها تعجز عن الوصول إليها : فعاودت النوم وهى مطمئنة . وخرجت بلا ضجة من الغرفة ، ولم أخبرها ، ولم أخبر أحداً أبداً بما سمعت .

وعندما أقول : إن حياة عمى الرتيبة لم تخضع أبداً للتغير ، فما عدا بعض الأحداث النادرة للغاية ، كحادث الولادة هذا ، لا أقصد بقولى هذا التغيرات التى تتكرر دائماً على فترات منتظمة ، ولا تدخل بالتالى إلا نوعاً من الرتبة الثانوية على الرتبة ذاتها . على سبيل المثال ، كان الجميع يتناولون الغداء قبل موعده بساعة ، أيام السبت ، لأن قرائنواز تذهب بعد الظهر إلى سوق روسانفيل لويان . وكانت عمى قد اعتادت هذا الخروج الأسبوعى عن عاداتها ، لدرجة أنها كانت تتمسك به بقدرته ما تتمسك بعاداتها الأخرى . وأصبح الأمر « روتينياً » بالنسبة لها ، على حد قول قرائنواز ، لدرجة أن انتظارها لساعة الغداء المعتادة يوم السبت كان « يزعجها » بنفس القدر الذى تتزعج به إذا اضطرت إلى تناول الغداء بعد موعده بساعة في يوم آخر . علامة على أن تقديم موعد الغداء كان يعطى لوجه يوم السبت ، بالنسبة لنا جميعاً ، وجهاً خاصاً ، طيباً ظريفاً . فى اللحظة التى كان يتبقى لنا فيها ، عادة ، ساعة نحياها قبل راحة الغداء ، كنا نعرف أننا سنجد بعد بضع لحظات ، « يشائر » لعاع ، وعجة خاصة ، « وبفتيك » مخصوص . وكانت عودة يوم السبت الخارج عن التنظيم أحد تلك الأحداث الداخلية المحلية الصغيرة الوطنية تقريباً ، التى تخلف في الحياة الهادئة والمجتمع المغلق ، نوعاً من الرابطة ، وتصبح مادة مختارة للحديث والدعابة والقصص المبالغ فيها بلا داع . ولو أن أحدنا كان ملحمى التفكير ، لأصبح يوم السبت نواة

مهيئة تماماً للقصائد الأسطورية . كان بعضنا يقول البعض الآخر ببساطة ومودة ، بل ووطنية ، منذ الصباح ، قبل أن نرتدى ملابسنا ، بلا داع ، ونحرد الاستمتاع بالإحساس بقوة التضامن : « يجب ألا نضيع الوقت ، وألا ننسى أن اليوم يوم سبت . » بينما يقول حتى لفرانسواز وهي تتباحث معها ، وتذكر أن النهار سيكون أطول من المعتاد : « ما رأيك في طهي قطعة « بتلو » لحم ، بما أن اليوم السبت ؟ » وإذا شرد ذهن أحدنا ، وأخرج ساعته في العاشرة والنصف وقال : « هيه ، علينا أن ننتظر ساعة ونصف قبل تناول الغداء ! » ، كان يسرنا جميعاً أن نقول له : « فم تفكر ؟ هل نسيت أن اليوم السبت ؟ » وكنا نسخر منه بعد ذلك بربع ساعة ، ونعد رواية هذا السهو لعمى لتسليتها . حتى وجه السماء كان يبدو متغيراً . كانت الشمس تتسكع ساعة إضافية بعد الغداء في أعلى السماء ، لأنها تعى أن اليوم السبت . وعندما كان يقول واحد منا ، لاعتقاده أننا تأخرنا عن موعد التزهة : « ماذا ؟ الساعة الثانية فقط ؟ . » ، وهو يسمع دققي ساعة برج سانت بيلير ( وجرت العادة على ألا تلتقيا بأحد في الطرقات المهجورة بسبب وجبة الغداء أو النوم بعد الظهر ، بطول الرعة اللامعة البيضاء التي هجرها حتى الصياد ، وأن تحرا وحيدتين في السماء الخالية إلا من بعض السحب الكسولة ) ، كان الجميع يردون عليه في وقت واحد بقلوبهم : « لقد خدعت ، لأننا تناولنا الغداء قبل موعده بساعة . فأنت تعلم حتى العلم أن اليوم السبت . » وكانت دهشة البرابرة ( كنا نطلق هذا الاسم على الذين لا يعرفون الوضع الخاص ليوم السبت ) الذين يحضرون في الحادية عشرة للتحلل إلى والدي ، ويجدوننا حول المائدة ، من أكثر الأشياء إشاعة للبهجة في حياة فرانسواز . كانت تضحك لأن الزائر الحاضر لا يعرف أننا تناولنا الغداء قبل موعده بساعة يوم السبت . لكنها كانت تضحك أكثر ( وهي متعاطفة من أعماق نفسها مع هذا التعصب ) إذا سمعت والدي ، الذي لا يخطر على باله أن البربري قد يجهل الأمر ، يرد بلا أدنى تفسير على دهشته لرويتنا في غرفة الطعام بقوله : « الله اليوم سبت . » وعندما كانت فرانسواز تصل إلى هذا الجزء من روايتها كانت تسمح دموعها من فرط الضحك ، وتطيل الحوار لتزيد من المتعة التي نحس بها ، وتخلق رد الزائر الذي لا تعنى كلمة « السبت » شيئاً بالنسبة له . وبدلاً من أن نشكو من إضافاتها ، كانت لا تكفيها ونقول : « لكن ، يحل لي أنه قال شيئاً آخر . » كانت القصة أطول عندما رويتها لأول مرة . حتى عمى الكبرى ، كانت تترك ما تطرزه ، وترفع رأسها وتنتظر من فوق نظارتها . وكان ليوم السبت وضع خاص لأننا كنا نخرج فيه بعد العشاء ، في شهر مايو ، ونذهب إلى « الشهر الربيعي » .

وبما أننا كنا نلتقي خلاله ، أحياناً ، بمسيو فانتوى ، وهو صارم للغاية مع هيئة الشبان المهملين الذين يسايرون أفكار العصر ، كانت أرى محرص على ألا يكون في هيتي شيء يؤخذ على ، ثم تذهب إلى الكنيسة . وأذكر أنني بدأت أحب زهرة الزعرور في الشهر المري . لم تكن هذه الزهور توضع فقط على الهيكل ، في الكنيسة المقلمة التي نستطيع الدخول فيها ، ولا تفصل عن الأسرار التي تشترك في الاحتفال بها ، بل كانت تجري بين المشاعر والزهرات المقلمة ، بفرعها التي ربط بعضها ببعض الآخر أفقياً ، استعداداً للاحتفال ، وتزيد من جاهلها أكاليل أوراقها المترجعة التي ثرت عليها بكثرة ، كما تنثر باقات صغيرة من البراعم البيضاء الناصعة على ذيل ثوب العروس . لكنني كنت أشعر ، وأنا لا أجرو على النظر إلى هذه الاستعدادات الفخمة إلا خلصة : أنها حية ، وأن للطبيعة نفسها ، عندما قطعت أوراق الشجر على هذا النحو ، وأضافت إليها الزينة العليا المتمثلة في هذه البراعم البيضاء ، جعلت هذه الزخارف جديدة بما كان عيداً شعبياً واحتفالاً دينياً في آن واحد . وكلما تفتحت تويجاتها هنا وهناك يسحر لا يبالى ، وأمسكت بياقة الأسدية الرفيعة باهمال ، كأنها زينة أخيرة شفاقة ، وكلما تابعت وحاولت أن أفك حركة ازدهارها في أعماق نفسي ، تصورت أنها حركة رأس سريعة شاردة ، ذات نظرة لعوب ، وحدقات ضيقة ، تصدر عن فتاة بيضاء ، حية ، ساهية . جاء مسيو فانتوى مع ابنته ، وجلس بجوارنا . كان ينضم إلى أسرة طيبة ، ودرس البيانو لأخوات جنتي . وبعد أن ماتت زوجته وورثها ، جاء ليمش بالقرب من كومبريه . وكثيراً ما كنا نستقبله في دارنا . لكنه ، لحياته البالغ ، كنف عن زيارتنا حتى لا يلتقي بسوان ، الذي عقد ما أسماه « زيجة غير لائقة » حسب الموضة . ولما عرفت أرى أنه يلحن ، قالت له من باب المحاملة : إنها تود أن تستمع إلى شيء لحنته ، عندما تذهب لزيارته . سر مسيو فانتوى لذلك كثيراً ، لكنه كان يبالغ في الأدب والطيبة لدرجة أنه كان يضع نفسه دائماً مكان الآخرين ، وينشئ أن يصيهم الملل ، أو يبدو لهم أنانياً ، إذا أسلم نفسه لرغبته أو جعلهم يحسسونها فقط . ورافقت والذي عندما ذهب يوماً لزيارته في بيته ، وسمح لي بالبقاء في الخارج . وبما أن منزل مسيو فانتوى ، مونجوفان ، كان يقع أسفل تل صغير كثير الأدغال ، اختبأت فيها ، ووجدت نفسي في مستوى صالون الطابق الثاني ، على بعد خمسين سنتيمتراً من النافذة . رأيت مسيو فانتوى يسرع ، ويضع على البيانو مقفوعة موسيقية في مكان بارز ، عندما قيل له : إن والدتي قد حضرا . لكن بعد أن دخلا ، سحب المقفوعة ووضعها في ركن . لاشك أنه خشي أن يفرضها أنه



لم يسعد برويتهما إلا لكى يعزف لما بعضاً من مؤلفاته . وكلما عادت أرى إلى هذا الموضوع ، أثناء الزيارة ، كرر قوله : « لا أدري من وضع هذه على اليانور ، هذا ليس مكانها » ، ووجه الحديث إلى موضوعات أخرى ، لأن اهتمامه بهذه الموضوعات بالذات أقل . كانت ابنته حبه الوحيد . وكانت تشبه الصبية ، وتبدو قوية لدرجة أن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من الابتسام عندما يرى الاحتياطات التى يحيطها بها والدها . وكان لديه دائماً شألاً إضافياً يلقيه على كفتها . ولاحظت جدى التعبير الهادئ الرقيق ، المتجول إلى حد ما الذى تنسم به ، فى أغلب الأحيان ، نظرات هذه الفتاة المشنة التى نثر الشمس على وجهها . كانت ، عندما تنطق بكلمة ، تسمعها بروح من قبلت له ، وتعلق لأنه قد يسمى فهمها . كان وجه هذا « الشيطان الطيب » للسترجل يخفى وراءه ، تحت ستار شفاف ، ملامع رقيقة ، دقيقة ، مضية ، لفتاة حزينة . ولما ركنتم أمام الهيكل وأنا أتأهب لمحادثة الكنيسة ، أحسست فجأة ، وأنا أنهض برائحة مرة حلوة كرائحة اللوز تنبعث من زهر الزعرور . عثقت ، لاحظت فى الزهر أماكن صغيرة أكثر اصفراراً ، وتصورت أن هذه الرائحة مخفية تحتها بلاشك ، كما يخفى مذاق اللوزية تحت الأجزاء المبروشة ، أو مذاق وجنتى الآتسة فانتوى تحت تمشهما . وبالرغم من ثبات زهر الزعرور الصامت ، كانت هذه الرائحة المتقطعة أشبه بهمس حياته الفاتكة التى يفيض بها الهيكل كما يفيض سور النبات عندما تزوره قرون الاستعمار الحية . وكنت أفكر فيها وأنا أرى أن بعض الأسدية الحمراء تقريباً تبدو وكأنها قد احتفظت بالعنف الربيعى والقوة المثيرة التى تتمتع بهما حشرات تحولت اليوم إلى زهور .

تحدثنا بعض الوقت مع مسيو فانتوى أمام المدخل ، ونحن خارجين من الكنيسة . كان يتدخل بين الغلمان الذين يتشاجرون فى الميدان ، ويدافع عن الصغار ، ويعظ الكبار . وإذا قالت له ابنته بصوتها الخشن : إنها سرت كثيراً لرويتنا ، بدا فى الحال أن أختاً لها أكثر حساسية تحمر خجلاً فى داخلها ، من هذه الكلمات ، كلمات تطلق بها صبي طائش ، وقد نظن أنها طلبت بها دعوتها إلى منزلنا . وضع مسيو فانتوى معطفاً على كتفى ابنته ، وركبا « كارة » تنودها بنفسها ، وعادا إلى منجوثان . أما نحن ، فما أن اليوم التالى كان يوم أحد ، ولن نسيقظ إلا للذهاب إلى القديس الكبير ، جعلنا والدى — حباً فى المجد — نقوم بزمة طويلة ، واعتبرتها أى التى لا نجد وجهتها ولا تعرف طريقها إلا بصعوبة ، عملاً بطولياً يتم عن عقيدة استراتيجية . كنا نلهب أحياناً حتى القنطرة التى تبدأ ذنجانها الحجرية عند المحطة ، وتصور لى

النقى والفضياع خارج العالم المتحضر ، لأنهم كانوا يوضوننا كل عام ، ونحن قادمين من باريس ، بأن ننتبه عندما نصل إلى كومبريه ، وألا تمر المحطة بدون أن نزل فيها ، وأن نستعد مقدماً ، لأن القطار يعاود السير بعد دقيقتين ، ويسير فوق القنطرة ، خلفاً وراءه البلاد المسيحية التي تعتبر كومبريه في نظري حلماً الأقصى . وكنا نعود عن طريق شارع المحطة ، حيث توجد أجمل فيلات المنطقة . كان ضوء القمر ينثر ، مثل هوبر وويبر ، درجاته المرمرية البيضاء المكسرة ، ونافوراته ، وأسواره المواربة في كل حديقة . كان نوره قد هدم مكتب التلغراف ، فلم يبق منه إلا عمود نصف محطم ، احتفظ مع ذلك بجمال الأطلال الخالدة . سرت بخطى ثقيلة ، وكدت أسقط الحاحتي إلى النوم ، وكانت رائحة التليو التي تعمق الجو تبدو لي ككفاة لا يمكن الحصول عليها إلا بكثير من التعب الذي لا تستحق أن يبذل من أجلها . أسوار بعضها بعيد جداً عن البعض الآخر ، وكلاب أيقظها خطانا المنفرده ، يتناوب نباحها الذي ما زلت أسمعه أحياناً في المساء ، ولا شك أن شارع المحطة ( عندما أنشئت حديقة كومبريه العامة مكانه ) قد وجد ملجأً بين نباح الكلاب . فأينما كنت ، أراه ، بأشجار الزيزفون التي كانت فيه ، ورصيفه الذي يضيئوه القمر ، كلما دوى نباح الكلاب ، ورد بعضها على البعض الآخر .

فجأة ، أوقفنا أبي ، وسأل أبي : « أين نحن ؟ » كان المشي قد أنهك قواها ، لكنها كانت فخورة بوالدي ، فاضترفت له بخنان بأنها لا تعرف عن ذلك شيئاً قط . فهز كتفيه وضحك ، وعندها ، أشار إلى الباب الخلفي لحديقتنا ، الواقف أمامنا ، وكأنه أخرجه من جيب سترته مع المفتاح ، وكان الباب قد جاء مع ناصية شارع الروح القدس لينتظرنا في طرف هذه السبل المجهولة ، وقالت له أبي باعجاب : « أنت رائع » . ومنذ تلك اللحظة ، لم يعد لي أن أخطو خطوة واحدة . كانت الأرض تسير بدلاً مني في هذه الحديقة التي لم يعد يصحب أفعالي فيها أي انتباه إرادي منذ زمن طويل : كانت العادة قد جاءت وأخذتني بين ذراعيها ، وحملتني إلى فراشي كما يحمل الطفل الصغير

كان يوم الأحد ، الذي يبدأ ساعة قبل الميعاد ، ومحرم فيه عني من تفرانسواز ، يمر ببطء أكثر من غيره بالنسبة لها . ومع ذلك ، كانت تنتظر عودته بفارغ الصبر ، منذ بداية الأسبوع ، باعتبارها مشتملاً على الحدة والتسلية التي لا يزال جسمها الضعيف قادراً على احتمالها . لكن هذا لا يعني أنها لم تتطلع أحياناً إلى مزيد من التغيير ، وأنها لم تعرف تلك المساحات الاستثنائية التي يتعشش فيها المرء إلى شيء آخر ، ويطلب فيها

أولئك الذين يمنهم افتقارهم إلى الطاقة والخيال من استخلاص مبدأ للتجديد من أنفسهم : من اللحظة الآتية ، أو ساعى البريد الذى يندى الباب ، أن يأتي بشئ جديد مهما كان شيئاً ، أو انفعال ، أو ألم ، ساعات يريد فيها الإحساس الذى جعلته السعادة يصمت كالمشارب العاطلة ، أن يرن تحت اليد ، حتى لو كانت غليظة ، حتى لو حطمت ، ساعات تود فيها الإرادة التى اكتسبت بصعوبة بالغة الحق فى استسلامها بلا عوائق لرغباتها ، وآلامها ، أن تلتق بزمامها إلى يد الأحداث القهرية ، مهما كانت قاسية ، ولا شك أن الخزان كان يستغرق وقتاً طويلاً لكي يمتلئ ، لأن قوى عتيق التى ينضب معها لأقل جهد لا ترد إليها إلا قطرة قطرة أثناء راحتها . وكانت تقضى شهور طوال قبل أن يكون لديها هذا الفائض الذى يحوله الآخرون إلى نشاط ، أو تقرر كيف تستخدمه . ولا شك أنها كانت عندئذ — كما كانت رغبتها فى استبدال البطاطس « البورية » التى لا تمل منها يبطاطس « ينشاميل » تنشأ بعض الوقت عن ذات اللذة التى تبعها فيها عودة « البورية » اليومية — تستخلص من تراكم الأيام الرتيبة التى تمسك بها إلى هذا الحد ، كرامة منزلية متوقعة ، لا تستغرق إلا لحظة ، لكنها تجبرها على أن تجري نهائياً أحد هذه التغييرات التى تعترف بأنها ناجعة ، ولا تستطيع أن تقررها من تلقاء نفسها . كانت تحبها حقاً ، وربما سرت للبكاء علينا . أن يطرأ فى لحظة تشعر فيها أنها على ما يرام ولا تنصب فيها عرفاً ، خبر يقول : إن البيت وقع بين يرائن حريق قضى علينا جميعاً ، ولن يبق بعد قليل على حجر واحد من الجدران ، واتسع الوقت أمامها لكي تفلت منه بلا عجلة ، بشرط أن تهض فى الترو والاحظة ، أمر كثيراً ما ألح على آمالها بلا شك ، باعتباره يجمع بين المزايا الثانوية التى تجعلها تتلوق حبها لنا ، فى أمسى طويل ، وتلهل القرية وهى تقود موكب الحداد علينا بشجاعة مثقلة بالحزن ، وتكاد تختصر وهى واقفة ، وميزة أخرى ذات قيمة أكبر ، أن تضطر فى الوقت المناسب ، وبدون أن تضيق الوقت ، وبدون أن تتردد ذلك التردد الذى يثير أعصابها ، إلى قضاء فترة الصيف فى مزرعتها الجميلة فى ميروجران ، حيث يوجد مسقط للمياه . وبما أنه لم يطرأ أبداً حدث من ذلك النوع الذى كانت تفكر بالتأكيد فى تجنبه ، عندما تستغرق فى وحشتها فى ألعاب الورق التى لا تمد ولا تنحصى ( ولسوف يحملها على اليأس إذا تحققت ، أو وقعت واقعة مفاجئة ، أو جاءت كلمة تعلن عن خبر سيء ، ولا يمكن نسيان اللهجة التى قلت بها أبداً ، أو كل ما يحمل بصمات الموت الحقيقى ، وهو مختلف كثيراً عن إمكانية حدوثه المنطقية المجردة ) ، كانت تكفى ، لى تجعل حياتها أكثر جاذبية ، بإدخال بعض الأحداث الخيالية فيها ، من وقت لآخر ، وتتابعها بشغف . كان محلوها أن تترض فجأة أن فرانسواز

تسرقها ، وأنها ملجأ إلى الحيلة لتأكد من ذلك ، وتضبطها متلصة . وبما أنها اعتادت أن تلعب دورها ودور خصمها عندما تلعب الورق بمفردها ، كانت تنطق بأعذار فرانسواز المهرجة وترد عليها بحجة وظيف ، لدرجة أن من كان يدخل منا في هذه اللحظات ، كان يراها تنصيب عرقاً ، ويظهر للشر من عينها ، وتزحزح شعرها المستعار ، وتكشف عن جبهتها الصلعاء . ربما سمعت فرانسواز أحياناً وهي في الغرفة المحاورة عبارات ساخرة لأذعة موجهة إليها . ولو أن هذه العبارات ظلت في حالتها اللامادية الصرفة ، ولولا أن عمي أعطاها مزيداً من الواقع بهمسها بها ، لما ارتاحت لاخترعها لها . كانت عمي لا تكفي أحياناً بهذا العرض « المقدم في الفراش » ، وتود أن تمثل مسرحياتها . لذا ، كانت تطلق الأبواب بطريقة غامضة ، يوم الأحد ، وتفضي إلى أولالى بشكها في أمانة فرانسواز ، ونيتها في التلخص منها . ومرة أخرى ، كانت تفضي إلى فرانسواز بشكها في إخلاص أولالى ، وتقول : إنها ستغلق الباب في وجهها بعد قليل . وبعد ذلك بأيام ، كانت تمشي عن التمتها على سرها بالأمس وتتواطأ مع الحائنة . وكانت الاثنان يتبادلان الأدوار في العرض التالي . لكن الشكوك التي كانت تساورها أحياناً بالنسبة لأولالى لم تكن إلا شكوكاً عابرة سرعان ما تزول لعدم وجود شيء يغلبها ، لأن أولالى لا تسكن المنزل . وكان الأمر مختلفاً بالنسبة لفرانسواز التي تشعر عمي باستمرار أنها تعيش في نفس المنزل . وبما أنها كانت تخشى أن تصاب بالبرد ، كانت لا تجرؤ على التزول إلى المطبخ لتأكد من صحة هذه الشكوك . وشيئاً فشيئاً ، لم تشغل بالها إلا بمحاولة تخمين ما تفعله فرانسواز في كل لحظة وتحقق أمره عنها . كانت تلاحظ أي حركة عابرة من حركات وجهها ، وأي تناقض في كلماتها ، وأي رغبة تخفيها فيها يبدو . كانت تثبت لفرانسواز أنها أزلحت القناع عن وجهها ، بكلمة واحدة يشجب لها وجه الخادمة ، وتسلل بذرسها بقسوة في قلبها . وفي يوم الأحد التالي ، كان ما تكشف عنه أولالى — مثل تلك الاكتشافات التي تفتح فجأة مجالاً غير متوقع أمام علم ناشئ لا يتقدم — يثبت لعمي أن افتراساتها كانت أقل من الحقيقة بكثير . « لا بد أن فرانسواز تعرف ذلك ، ما دمت قد أعطيها عربة ١ » وتصيح عمي : « أعطيتها عربة ؟ » — « أوه ، لا أدري . ظننت ذلك ، لأنني رأيتها تمر الآن في عربة ، وهي مغوشة كالديك الرومي ، في طريقها إلى سوق روسانفيل . ظننت أنك أنت التي أعطيتها لها ، يا مدام أوكناف . » وشيئاً فشيئاً ، كانت كل منهما تحاول أن تتق شر حيل الأخرى ، كما يفعل الحيوان والصيد . وكانت أي تخميني أن تتم في فرانسواز كراهية حقيقية لعمي التي تبينها ما استطاعت .

وعلى أية حال ، كانت فرانسواز تولد أكثر وأكثر انتباهاً خاصاً لأقل كلمة أو حركة تصدر عن عمي . وعندما كانت تريد أن تطلب منها شيئاً ، كانت تردد طويلاً في اختيار الطريقة التي يجب أن تطلب بها ، وتلاحظ عمي خلسة ، بعد أن تقدم بطلبها ، لتحاول أن تستشف من تعبير وجهها ما رأيته وستقرره . وهكذا — في حين أن الفنان الذي يقرأ مذكرات القرن السابع عشر ، ويزيد أن يقترب إلى الملك العظيم ، يظن أنه يسلك هذا السبيل باختلاق نسب يجعله ينحدر من أسرة تاريخية ، أو مراسلة حاكم من حكام أوروبا الحاليين ، في حين أن هذا الفنان يدير ظهره بالذات لما يخطئ ويبحث عنه في أشكال مائلة ، وميتة بالتالي — كانت سيدة رفيعة عجوز — لا تنساق بصدق إلا لبعض العادات المسبحة التي لا تقاوم ولتزرع شريرة ناتجة عن الفراغ — ترى بدون أن تفكر أبداً في لويس الرابع عشر ، أتفه مشاغل يومها المتعلقة باستيقاظها ، وغداها ، وراحها ، ودها تتخذ شيئاً من أهمية ما أسماه سان سيمون « آلية » الحياة في فرساي ، نتيجة لغرابتها الاستبدادية . كان يمكن أن تظن أيضاً أن فرانسواز تعلق على صمتها ، أو اعتدائها مزاجها ، أو شيء من التثالي في وجهها ، تطبيقاً يعادل بما فيه من حماس وخشية ، التعليق على صمت الملك ، أو اعتدال مزاجه ، أو تعاليه ، عندما يقدم له أحد جلسائه أو أحد كبار النبلاء اهتماماً ، عند منعطف يمر ، في فرساي .

وفي يوم أحد ، استقبلت عمي الخجول وأولاد في وقت واحد ، ثم خلعت إلى الراحة . وصعدنا جميعاً لقول لها : مساء الخير . وقدمت لها أبي الغراء ، لأن حفلها السني يجعل زوارها يحضرون دائماً في وقت واحد . وقالت لها برفق :

— وأعرف يا ابني أن الأمور لم تكن على ما يرام ، فلقد جاء كل زوارك في وقت واحد . وقاطعتها عمي الكبرى بقولها : « خير كثير . . . » ، لأنها كانت تعتقد ، منذ أن مرضت أبنتها ، أن من واجبها أن تحسن حالتها المعنوية ، وأن تقدم لها دائماً الجانبات الحسن من الأشياء . لكن والدي قال :

— « أريد أن أستغل فرصة اجتماع الأسرة كلها لأتص عليك شيئاً بدون أن أحتاج إلى تكراره لكل منكم ، أخشى أن يكون بيننا وبين لوجراندان شيء ما . فلقد قال لي بالكاد : صباح الخير اليوم » .

لم أبق للاستماع إلى رواية والدي ، لأنني كنت معه بعد القداس ، عندما التقى لوجراندان . وترلت إلى المطبخ لأسأل عن وجبة العشاء التي تسليق كل يوم ، كالخيار التي تقرأها في الصحف ، وتبثني كبرامج أحد الاحتفالات . وبما أن

مسيو لوجراندان كان قد مر بجوارنا عند خروجنا من الكنيسة ، وبصحبته سيدة نبيلة من الجيران لا نعرفها ، حياه أبى تحية ودودة متحفظة ، بدون أن يتوقف . ورد مسيو لوجراندان بالكاد ، وهو مندهش ، وكأنه لا يعرفنا ، وفي عينه تلك النظرة الخاصة بالأشخاص الذين يعتمدون ألا يظهر الوالد ، ويدون وكأنهم يرونك ، من عمق عيونهم الذى إمتد فجأة ، وكأنك فى نهاية طريق لا ينتهى ، وعلى مسافة بعيدة لدرجة أنهم يكفون بأن يوجهوا إليك هزة رأس خفيفة تناسب مع حجمك ، حجم اللمية .

كانت السيدة التى تسير بصحبة لوجراندان سيدة غاضلة محترمة . لم يكن هناك إذن مجالاً لسوء الظن بعلاقته بها ، والاعتقاد بأنه أخرج لأن أحداً فاجأه . وتساءل أبى كيف استطاع أن يغضب وقال : « ومما زاد من أسئى على غضبه أنه يبدو ، وسط أولئك المتأنقين ، بسترته القصيرة المستقيمة ، ورباط عنقه الرشيق ، قليل التكلف ، بسيطاً حقاً ، بل وساذجاً تقريباً ، مما يجعله جذاباً للغاية » . إلا أن آراء مجلس العائلة أجمعت على أن والدى توهم الأمر ، وعلى أن لوجراندان كان يفكر فى شيء ما فى تلك اللحظة . على أية حال ، تبددت مخاوف أبى مساء اليوم التالى . فمتلما كنا عائلتين من نزعة طويلة ، لحنا ، بالقرب من الحسار العتيق ، لوجراندان ، الذى يبق فى كومبره عدة أيام بسبب الأعياد . فأتجه إلينا ، ماداً يده ، وسألنى : « هل تعرف ، يا سيادة القارئ ، هذا البيت الذى قاله بول ديجردان :

اسودت الغابات ، وما زالت السماء زرقاء ؟

ألا يشير بدقة إلى هذه الساعة ؟ ربما لم تقرأ شيئاً لبول ديجردان . اقرأ له ، يا بنى . فلقد قيل لى : إنه تحول الآن إلى الوعظ ، بعد أن كان رساماً صافياً لفترة طويلة . « اسودت الغابات ، وما زالت السماء زرقاء . فلتظل السماء زرقاء دائماً فى عينيك ، يا صديق . حتى فى الساعة التى حانت لى الآن ، واسودت فيها الغابات ، وحل فيها الليل بسرعة ، تعزى كما أفضل بالنظر إلى السماء » . وأخرج من جيبه سيجارة ، ونظر طويلاً إلى الأفق . وقال لنا فجأة : « وداعاً يارفاقى » ، وذهب .

كان المشاء قد بدأ فى الساعة التى نزلت فيها لأسأل عن قاتمته . كانت هي أنسواز تأمر قوى الطبيعة التى أصبحت مساعداً لها ، كما يحدث فى الحكايات التى يعمل فيها العالقة طهاة . كانت تضرب النسم ، وتقدم البطاطس للبخار ، وتضع على النار

روائع الطهى التى أعدها أولاً فى أوان خزفية تتراوح بين الحوض الكبير ، والمرجل والتقدر ، وأواني طهى السمك ، وطواجن الصيد ، وقوالب الحلوى ، وأوعية الكريمة مروراً بمجموعة كاملة من الطناجر ، من كافة الأحجام . وتوقفت لأنظر إلى المائدة ، حيث فصصت الخادمة لتوها حبات البازلاء المرصوفة ، المدودة ككرات خضراء فى لعبة ما . وتملكنى الإعجاب أمام المليون ، المغموس فى اللونين اللازوردى والوردى ، وكانت سبيلته التى يكسوها لون أزرق بنفسجى رقيق ، تتدرج بطريقة لا تحسب — وهى لا تزال تحمل أثار الأرض التى نبتت فيها — بألوان متفرقة لا تنتمى إلى عالمنا . وخيل إلى أن هذه الألوان السماوية تكشف عن المخلوقات الجميلة التى تسلمت بتحويل نفسها إلى خضروات ، وكشفت ، بتفكرها فى ذلك اللحم التماسك اللذيذ ، وألوانها الناشئة التى تشبه ألوان الفجر ، ووسمها الملبث لقوس قزح ، وأسمائها الزرقاء المتطفنة ، عن ذلك الجوهر القيم الذى ظلت أتعرف عليه عندما كانت تلهو ، فى مسرحياتها الشاعرية الخشنة الشبيهة بمسرحيات شكسبير ، بتحويل مبولتى إلى إناء فيه عطر ، طوال الليلة التى آكل فيها هليوناً على المشاء .

كانت فرانسواز قد كلقت « عذراء جيوتو المسكينة » ، على حد قول سوان ، بتفسير المليون الذى وضعته فى سلة مجوارها ، وكانت تبدو مثالة كما لو كانت تقامى من آلام الأرض كلها . وكانت التيجان اللازوردية الخفيفة التى تحيط بالمليون حول إهابه الوردى مرسومة بدقة ، نجمة نجمة ، مثل الأزهار المفلوكة حول الجبين أو المثبتة فى البلة فى لوحة القضيلة فى بادونا . بينما كانت فرانسواز تحمر دجاجة لا يعرف أحد أن يحمرها مثلاً ، الأمر الذى نقل بعيداً عن كومبريه رائحة مقدورها ، وأعطى الغلبة للرقعة ، فى مفهومى الخاص لطبايعها ، فى الأثناء التى كانت تقدم لنا فيها الطعام ونحن حول المائدة ، لأن نكهة هذا اللحم الذى يعرف كيف يجعله ليناً ولذيذاً إلى هذا الحد لم تكن فى نظرى إلا نكهة إحدى فضائلها الخاصة .

وكان اليوم الذى نزلت فيه إلى المطبخ ، بينما كان والدى يستشير نجس العائلة فى أمر لقائه بلوجراندان ، يوماً من تلك الأيام التى لا تستطيع فيها « عذراء جيوتو » أن تنهض ، لمرضها بعد ولادتها الجديدة . وكانت فرانسواز متأخرة لعدم وجود أحد يساعدها . وعندما وصلت إلى المطبخ ، كانت تذيب دجاجة فى الجزء الخلفى منه ، المثل على حظيرة الدواجن . وكانت الدجاجة ، بمقاومتها الياسة الطبيعية جداً ، المصحوبة ببعض نكات فرانسواز التى استشاط غضباً : « أيتها الطائر القدر ! أيتها الطائر القدر ! » ، وهى تحاول أن تعقب رقبته تحت الأذن ، سبباً فى عدم إبراز رقة خادمتنا القديمة

وعذوبتها، بالقدر الذى يبرزها به جلدتها الخفوف بالذهب كحلة القداس، وعصيرها  
 النفيس الذى يبدو وكأنه يقطر من حقة القربان. بعد أن ماتت الدجاجة، تلقت فرانسواز دمها  
 الذى سال ولم يغطي عازها، وانضضت وهى مفتاة مرة أخرى، وقالت وهى تنظر إلى حقة  
 عدوها : « أيتها الطائر القدر . صليت وأنا أرتجف ، وودت أن تطرد فرانسواز فى  
 الترو واللحظة . لكن ، من يعد لى الحلوى الساخنة ، والقهوة العطرة ، وحق . . . هذا  
 الدجاج ، فى الواقع ؟ » اضططر الجميع إلى حساب هذه الحسبة الحباثة ، مثل ، لأن العمة  
 ليونى كانت تعرف . وكنت لا أزال أجهل ذلك — أن فرانسواز قد تهب حياتها بلا أدنى  
 شكوى لابنتها ، وأولاد أخوها ، وكانت مع الآخرين قاسية قسوة فريدة من نوعها . ومع  
 ذلك احتفظت بها . فهى تعرف قسوتها ، لكنها تقدر خدمتها أيضا . وأدركت شيئا فشيئا  
 أن رقة فرانسواز ، وروصاتها المصطمة ، وفضائلها ، تحق مآس تدور فى خلفيتها المطبخ  
 كما يكشف التاريخ عن ملوك وملكات يرسمهم الرسامون وهم مضموى الأيدى ، على  
 زجاجيات الكنائس ، مع إن حكمهم تسم بالأحداث الدامية . وأدركت أن البشر عند  
 فرانسواز ، باستثناء من يتنول لها حصلة قرابة ، يثرون شفقها كلما كانوا يعيشون بعيدا  
 عنها . كانت شلالات النموع التى تسكبها وهى تقرأ فى الصحيفة مصائب قوم لا تعرفهم  
 تجف بسرعة إذا استطاعت أن تتصور الشخص الذى تيكى عليه بطريقة محددة واضحة  
 إلى حد ما . وفى إحدى الليالى التى تلت وضع الحامسة لمولودها أصيبت هذه الأخيرة  
 بنفص فظيع . سمعها أى تناوه ، فهضت وأيقظت فرانسواز ، التى أعلنت ، وقد انعدم  
 إحساسها ، أن كل هذه الصرخات تمثيل ، وأن من تصدر عنها تريد أن تلعب دور  
 السيدة . وكان الطيب قد خشى هذه الأزمات فوضع ، فى كتاب طب عندنا ، علامة فى  
 الصفحة التى توصف فيها هذه الأزمات ، وأشار بالرجوع إليها لمعرفة الإرشادات الخاصة  
 بالإسعافات الأولية . طلبت أى من فرانسواز إحضار الكتاب ، وأوصتها بعدم إسقاط  
 العلامة منه . وبعد ساعة ، لم تكن فرانسواز قد عادت بعد . فزارت أى ، وظنت أنها  
 عاودت النوم ، وطلبت منى الذهاب بنفسى إلى المكتبة . وهناك ، وجدت فرانسواز  
 التى أرادت أن ترى ما تشير إليه العلامة وأخذت تقرأ الوصف الطبى للأزمة وتكتعب ،  
 ما دام الأمر متعلقا بمرضة نمطية لا تعرفها . كانت تصرخ عند كل عرض ألم يذكره  
 المؤلف : « آه يا مريم ! هل يمكن أن يحتلب الله مخلوقة بائسة كل هذا العذاب ؟ » ،  
 يا لها من مسكينة .

لكن ، لم أكد أناديا ، ولم تكد تعود بجوار فراش عذراء جيو تومحى كنت دموعها  
 عن السيل . ولم تستطع الإحساس لاجله الشفقة ، ولا تهبها الجنان ، وكانت قد عرفتها



جيدا وأحسنت بهما كثيرا من قراءتها للأصحف ، ولا يأى مصة من هذا القبيل نظرا لإحسانها بالضييق والنفيز ، لأن الخادمة أيقظتها من عز نومها .

وعندما رأيت نفس الآلام التى بكت لوصفها ، لم تيد إلا التلثم والتبرم ، بل والسخرية البشعة ، وقالت ، عندما ظننت أننا ذهبنا ، وأنتا لا نستطيع أن نسمعها : وما كان عليها إلا أن تتجنب ما أدى بها إلى هذا الحال . لقد مرت له . وعليها الآن يعلم التثيل ولا شك أن الفتى الذى اجتمع بامرأة مظلها مضروب عليه . أه اصدقت أى المسكينة عندما قالت : القرد فى عين أمه غزال . ولما كان حفيدها يصاب بقليل من الزكام ، كانت تلعب فى الليل ، حتى لو كانت مريضة ، بدلا من أن تنام ، ترى ما إذا كان يحتاج إلى شيء ، وتقطع أربعة فراسخ سرا على الأقدام قبل طلوع النهار لكى تعود إلى عملها . لكنها كانت تترجم حبا لدونها ، ورغبتها فى إعلاء شأن أسرتها مستقبلا ، فى سياستها تجاه الخدم الآخرين ، إلى حكمة دائمة مفادها ألا تدع أحدهم يستقر عند عمى أبدا . علاوة على أنها كانت تضرع بطريقة ما يعلم اقرب أحد غيرها من حمى ، وتفضل ، إذا كانت مريضة ، أن تهض لتعطى ماء فيشى على السباح للخادمة بدخول غرفة سيدتها . لاحظ فابر أن انثى الزنبور الحفار تحمص على أن يأكل صفارها فلما طازجا بعد موتها ، فتطلب من التشريح نخدة قسوتها ، وتتقب المركز العصبي الذى تتوقف عليه حركة أرجل الاختناقس والعناكب التى تطاردها ولا تتوقف عليه وظائف الحياة الأخرى . بفن ومهارة رائعة . ومن ثم ، تقدم الجشرة المشلولة التى تضع الأنثى بيضها بجوارها ، للبرقات عندما يفقس البيض طعاما مطيعا ، لا يؤذى ، ولا يستطيع أن يهرب أو يقاوم ، ولا يفسد أبدا . كذلك ، كانت فرانسواز تهتدى ، إشباعا لرغبتها الدائمة فى عدم إحمال أى خادام الحياة فى منزلنا ، إلى حيل بارعة لا يرحم ، لدرجة أننا عرفنا ، بعد سنوات طوال ، أننا أكلنا المليون كل يوم تقريبا ، فى فعمل من فصول الصيف ، لأن رائحته كانت تصيب الخادمة المسكينة المكلفة بنقشره بأزومات ريوية عنيفة اضطررتها إلى الرحيل ، فى نهاية المطاف .

والأسفاه ! نجمت علينا أن نغير رأينا فى لوجرانلمان نهائيا . فى يوم من أيام الأحد التالية لقلعنا به عند الحسر العتيق ، ذلك اللقاء الذى اذترف به له أبى عطشه ، كان التقدم يوشك على الانتهاء ، عندما دخل الكنيسة مع الشمس وضجة الجراح شيء غير مقلص . جعل مدام جوى ومدام فرسيقته ( وكل الذين نكروا مستغرقين فى صلواتهم عندما دخلت متأخرا معاذ قليل ، ولولا أن أقدامهم دفعت قليلا لمقعد الصغير الذى كان يحول

دون وصولي إلى الكرسي الخاص بي ، لظننت أنهم لم يروني وأنا داخل ) تتحدثان معا بصوت عال عن موضوعات دنيوية خالصة ، وكأننا وسط الميدان . عندئذ ، رأينا لوجراندان عند عتبة المدخل الحارقة ، وقد علا صوته على ضوضاء السوق وأصواته المتناثرة ، وكان زوج السيدة الذي رأيناها معه مؤخرا يقدمه لزوجة مالك كبير آخر في المنطقة . وكان وجه لوجراندان يعبر عن حيوية وحس خارق للعادة ، وحيائية حميقة بحركة ثانوية إلى الخلف أعادت ظهره فجأة إلى وضعه الأول ، وبما لا شك فيه أن زوج أخته هو الذي علمها له . وأعاد هذا الإحتدال السريع أرواف لوجراندان ولم أكن أتصور أنها مكتنزة إلى هذا الحد ، إلى وضعها الأول ، بموجة عاتية من العضلات . ولا أدري لماذا أيقظ فجأة كل من هذا التوج المادى الخالص ، وتلك الموجة اللحمية الصرقة ، الخاليان من أى تعبير عن الروحانية وتعصف بهما ملاطقة مليئة بالخسة ، في ذهنى ، إحتمال أن يكون لوجراندان مختلفا كل الإختلاف عن لوجراندان الذى نعرفه . رجته هذه السيدة أن يقول شيئا لسائق عربتها . فأنجبه إلى العربة ، ووجهه لا يزال محتفظا بأثر الفرحة الخنجولة المخصصة التى أشاعها فيه تقديمه للسيدة . كان يجسم ، وقد فتشنيء أشبه بالحلم ، ثم عاد إلى السيدة مسرعا . وبما أنه كان يسير أسرع مما اعتاد ، كان كثفاه يتأرجحان على التين واليسار بطريقة مضحكة ، وبدلا كلعبة آلية جامدة بين يدي السعادة انطرد استسلامه لما وعدم أكثرائه بكل ما عداها . كنا خارجين من المدخل ، ونوشك أن نمر بجواره . وكان مهذبا للدرجة أنه لم يستطع أن يدير رأسه ، بل ثبت نظرائه التى حملها فجأة بحلم عميق على نقطة فى الأفق بعيدة للدرجة أنه لم يتمكن من رؤيتها ولم يضطر إلى تحيئتنا . وظل وجهه يرفرف فوق سريرة رخوة مستقيمة تبدو وكأنها ضلت وغم أنفها وسط بلذخ مكروه . وظل رباط العنق المنقط الذى يحركه هواء الميدان ، ورفرف فوق لوجراندان وكأنه لواء عزله الفجورة واستقلاله التيبيل . وفى اللحظة التى وصلتنا فيها إلى المنزل أدركت أى أننا نسينا حلوى « سان أونوريه » وطلبت من أبى ومنى أن نعود أدراجنا ونطلب ارسالها حالا . فالتفتينا بلوجراندان بالقرب من الكنيسة ، وكان أبى فى الاتجاه العاكس ويصحب نفس السيدة إلى عربتها . مر بجوارنا ، ولم يتوقف عن الحديث مع رفيقته ، ووجهه لإينا بطرف غيئة الزرقاء إشارة سريعة من داخل جفونه ، ولأن الإشارة لا تبهم عضلات وجهه ، لم تلمحها محدثته قط . ولأنه حاول أن يعوض بقوة الإحساس الجبال للضحك الذى حصر فيه التعبير عنه ، فى ذلك الركن الأزرق الذى خصصناه به ، فحز كل ما فى اللطف من حيوية تجاوزت للإنبهاج واقربت من الحزن . وانطردت رقة الورد إلى أن يلتصق بمنزلة التواضع والإبلاء والتلميح ، وبخباياة التأمير جنونى بالهبة ، امتلح الثقة بالهداية إلى أن بلغت

التصريح بالحلب . وعندئذ ، أضاء أنا وحدنا ، بخدر خفي لا تراه السيدة ، حدة عاشقة في وجه بارد كالثلج .

وكان قد طلب من والدى أمس بالذات لإرسالي لتناول العشاء معه هذا المساء . كان قد قال لى : « تعالى ورافق صديقك العجوز . دعنى أطم من أبعاد شبايك تلك الزهور الربيعية التى مررت بها أنا أيضاً من سنين ، كأنها باقة ورد يرسلها لنا مسافر من بلد لن نعود إليه . تعالى بزهرة الربيع ، وذقن الياسا ، تعالى بالحليون الذى صنعت منه باقة المودة فى نباتات بلزك ، وزهرة يوم البعث ، وزهرة اللؤلؤ ، وكرة ثلج الحدايق التى بدأت تعطر الجو بأريجها فى حديقة عمك الكبرى ، قبل أن تذوب كرات الثلج الأخيرة التى أسقطها عواصف عيد الفصح . تعالى برداء الزنبق ، رداء حريرى مجيد يلىق بسلطان ، وميناء الأفكار المتعددة الألوان ، تعالى بصفة خاصة ومطع النسمة التى رطبها آخر موجات الصقيع ، النسمة التى ستفتح الباب للفرشتين اللتان تنتظران منذ الصباح أولى ورود القلمس » .

تساءل أهل الدار عما إذا كان يجب أن يرسلونى ، رغم ذلك ، لتناول العشاء مع لوجراندان . لكن جلتى رفضت أن تصلى أنه كان قليل الأدب : « تعرفون بنفسكم بأنه يحضر إلى هنا بلباس بسيطة لا تمت إلى رجال المجتمع بصلة . وأعلنت أنه من الأفضل ، على أية حال ، وعلى أسوأ الفروض ، التظاهر بعدم ادراك قلة أدبه ، إن وجدت . وفى الواقع ، كان أبى نفسه ، مع إنه أكثرنا ثورة على موقف لوجراندان ، يحفظ — ربما — يشك أخبر فى المعنى الذى تضمنته . فلقد كان كأبى موقف أو فعل ، يكشف عن طابع الشخص العميقة الخفية : فهو لا يرتبط بكلماته السابقة ، ولا يستطيع أن يؤكده بشهادة المذهب الذى لن يعترف . لذا ، يجب أن نكتفى بالحس وتسامح ، إزاء هذه الذكرى المنفردة غير المتأسكة ، مما إذا كان الهم قد لعب بها . هكذا ، كثيراً ما تخلف فينا مثل هذه المواقف — وهى المواقف الوحيدة الهامة — بعض الشك .

تجاولت العشاء مع لوجراندان فى الشرفة ، وكان التمر مضيقاً . وقال لى : « يوجد نوع جميل من البصل ، أليس كذلك ؟ » يزعم كاتب روائى سيقراً له فيما بعد أنه الظل وللصمت فقط يناسبان القلوب الخرجية التى تشبه قلبى . وأعلم يابى أنه يحين فى الحياة لحظة ، بعيدة جلة عنك الآن ، لا تجعل لعموم المتعة فيها إلا نوراً

واحدًا ، نور تعده ليلة جميلة كهذه ، وتقطره مع الظلمة ، ولا تستطيع الأذن أن تسمع فيها أية موسيقى ، إلا الموسيقى التي يعزفها ضوء القمر على ناي الصمت . انصتت إلى كلمات لوجراندان التي كانت تبدو لي لطيفة جدًا دائمًا . لكن ، اقلقتني ذكرى امرأة أحبها مؤخرًا لأول مرة ، وظننت أنه يعرفها ، ما دمت أعرف الآن أنه كان على صلة بعديد من الشخصيات الأرستقراطية في المنطقة . لذا ، استجمعت شجاعتي ، وقلت له : « هل تعرف ياسينى . . . سيدات جرمونت ؟ » ، وأنا سعيد أيضًا بسيطرتي على هذا الاسم لجورد النطق به ، وإخراجه من حلمي ، وأعطائه وجوداً موضوعياً رناناً .

وعندما سمع صديقنا اسم جرمونت ، رأيت في عينيهِ الزرقاوين حراً صغيراً أسمر اللون ، كان سنًا لا يرى قد نقيهما لتوه ، بينما ردت بقية الحلقة بأفراز موجات من اللازورد . واسودت الدائرة التي تحيط بجفنه وانخفضت ، وكان فمه الذي ارتسمت عليه ثنية مرة أسرع في تمالك نفسه ، فابتسم ، بينما ظلت النظرة أثمة كنظرة شهيد جميل غرست السهام في جسده ، وقال : « لا ، لا أعرفهن ! » لكن ، بدلا من أن يعطى لمعلومة بهذه البساطة ، ورداً لا يلحق إلى الدهشة ، اللمحة الطبيعية العادية التي تناسبهما ، أكد على الكلمات وهو ينحنى ، ويحيى برأسه ، بملك الإصرار الذي نوّده به شيئاً غير محقول ليصدقنا الآخرون — وكان عدم معرفته لآل جرمونت لا يمكن أن ينتج إلا عن الصلابة النادرة — وبلهجة التفخيم التي يعتمد إليها من لا يستطيع تكتم أمر موقف يتقل عليه ، فيفضل الإعلان عنه لكي يظن الآخرون أن اعترافه به لا يسبب له أى حرج ، وأنه سهل ، تلقائى ، عجب إلى النفس ، وأنه لم يخضع للموقف — أى عدم وجود علاقة بينه وبين آل جرمونت — ، بل سعى إليه ، وكان نتيجة لبعض التقاليد العائلية ، أو مبدأ أخلاقى ، أو نذر يحرم عليه مخالطة آل جرمونت بالذات . واستطرد قائلاً ، ومفسراً لهجة الخاصة : « لا ، لا أعرفهن » ، ولم أسع إلى ذلك أبداً ، وحرصت دوماً على المحافظة على استقلالى التام . الحقيقة أننى يعقوبى التفكير ، كما تعلم . وحدائى الكثيرون في نفس الموضوع ، وقالوا لى لىنى عطشى لأننى لا أذهب لى جرمونت ، وإننى أبدو الملك سمجاً ميالاً إلى النزلة . لكن هذه السمعة لا تخفى ، لأنها تطابق الواقع حقاً . في الواقع ، لم أعد أحب في العالم إلا بضعة كتابس ، وثلاثة أو أربعة كتب ، وبعض اللوحات ، وأضواء القمر على تماثيل تسمى شباهات لى برومبة الخدائى التي لا تميزها حلقة حبيى المعجوز . لم أفهم جيداً لماذا يصعب من الضرورى

أن يتسلك المرء باستقلاله ، لكى لا يلهب عند أناس لا يعرفهم ، ولماذا يجعله ذلك يبدو ميالا إلى الوحشة والعزلة . لكن الذى فهمته هو أن لوجرانندان لم يكن صادقا كل الصدق عندما قال إنه لا يجب إلا الكنائس ، وضوء القمر ، والشباب . فلقد كان يحب الناس والقصور كثيرا ، وكان يستولى عليه أمامهم قدر من الخوف من عدم إرضائهم يجعله لا يجرؤ أن يقول لهم إن له أصلا يتمون إلى الطبقة البورجوازية ، وأبناء كتاب العدل والصفارية ، مفضلا أن يكتشفوا الحقيقة فى غيابه ، بعيدا عنه ، « وبالصدفة » ، إذا اكتشفت . كان يقلد أبناء الطبقة الراقية وما لا شك فيه أنه لم يقل شيئا من كل هذا باللغة التى نحبها كثيرا ، أنا والوالدى . فاذا سألته : « هل تعرف آل جرمونت ؟ » ، رد لوجرانندان الليال للحديث بقوله : « لا ، لم أسمع أبدا إلى معرفتهم ! » وسوء الحظ ، كان هذا الرد لا يأتى إلا متأخرا ، لأن لوجرانندان آخر كان يحقيه بمثابة فى أحماق نفسه ، ولا يظهره ، « لأنه يعرف عن لوجرانندان الذى نعرفه نحن ، وعن حبه لتقليد الطبقة الراقية ، قصصا مشبوهة ، قد سبقه ورد بجرح النظرة ، وبسمة العم لمازاة ، وخطورة الرد المبالغ فيها ، والأسمم الألف الى صوبت فى لحظة إلى لوجرانندان الذى نعرفه ، وأضنته ، كأنه سان سبستان وقدراح ضحية لتقليد الطبقة الراقية : « وأسفاه ! كم تؤلى ! لا ، لا أعرف آل جرمونت ، لا توقف ألم حياقي الأكبر ! » وكان لوجرانندان هذا ولدا متعيا ، مزعجا ، نصابيا ، لا ينمق الكلام مثل لوجرانندان الآخر ، لكنه صريح البسمة . وكان رده مكونا مما يسمى « ردود فعل » . وإذا أراد لوجرانندان الهب للحديث أن يفرض عليه الصمت ، يكون قد سبقه وتكلم . ومهما أسف صديقنا للانطباع للشيئ الذى تخلفه تصريحات نصفه الآخر ، لم يكن ليتسنى له بلاشك إلا العمل على تخفيف حدته .

ولا يعنى هذا بالطبع أن لوجرانندان لم يكن صادقا عندما حاجم من يقلدون الطبقة الراقية . لم يكن فى استطاعته أن يعرف إنه كذلك ، بنفسه على الأقل ، ما دمتلا نعرف أهواء الآخرين ، وما دام ما تتوصل إلى معرفته عن أهوائنا ، لا يعرف إلا منهم . فالأهواء لا تؤثر فىنا إلا تأثيرا ثانيا ، بالتحليل الذى يستبدل الدوافع الأولى بدوافع بديلة أنسب منها . وحسب لوجرانندان لتقليد الطبقة الراقية لم ينصحه أبدا بزيارة دوق جرمونت كثيرا . وكان يكلف خياله باظهار هذه الدوقة وهى مزدانة بكافة الفضائل . كان لوجرانندان يتقرب إلى الدوقة ، ويظن أنه يستسلم لحاذية الفكر والفضيلة التى لا يعرفها من يقلدون الطبقة الراقية الأذنياء . الآخرون فقط كانوا يعرفون أنه واحد منهم . ولأنهم كانوا عاجزين عن فهم العمل الوسيط الذى يقوم به خياله ، كانوا يرون نشاط لوجرانندان الأجهامى ، وسببه الأول ، الواحد فى مواجهة الآخر .

أصبح أهل بيتنا الآن لا ينخدعون بلوجراندان قط . وكان اتصالنا به يأتي على فترات متباعدة للغاية . كانت أى تسر سروراً بالغاً عندما تضبطه متلبساً بارتكاب الخطيئة التى لم يعترف بها أبداً ، وظل يسميها الخطيئة التى لا تغفر : تقليد الطبقة الراقية . أما أبى ، فكان من الصعب عليه أن ينظر إلى ازدياد لوجراندان نظرة مريحة لا تبالى . وعندما فكرت الأسرة ، فى سنة من السنين ، فى إرسالى مع جلتى إلى بلبليك لقضاء العطلة الصيفية ، قال والدى : « لا بد أن أخبر لوجراندان أنك ذاهب إلى بلبليك ، لأرى ما إذا كان سيعرض عليك الاتصال بأخته . لا شك أنه لا يذكر أنه قال لنا إنها تسكن على مسافة كيلومترين من هذا المكان » . وكانت جلتى ترى أن المصيف يحتم علينا أن نبقى على البلاج ، ونستشق ملح البحر من الصباح إلى المساء ، وأنه لا ينبغي أن نتصل بأحد فى تلك الفترة ، لأن الزيارات والتزقة تكون على حساب هواء البحر . لذا ، طلبت ألا نحدث لوجراندان عن مشروعتنا ، بعكس أبى . وبين الخيال ، رأيت أخت لوجراندان تصل إلى الفندق فى اللحظة التى تنأهب فيها للخروج للصيد ، وتجبرنا على البقاء محبوسين فى الدخايل لاستقبالها . لكن أى كانت تسخر من مخاوفها ، وترى أن الخطر ليس كبيراً إلى هذا الحد ، وأن لوجراندان لن يتعجل اللحظة التى يتصل فيها بأخته . وبدون أن نحتاج إلى الكلام عن بلبليك ، وضع لوجراندان نفسه فى القف ، ذات مساء ، عندما التقينا به على ضفة التيفون ، ولم تكن لديه أية فكرة عن اعتزامنا الذهاب إلى هناك .

قال لأبى : « فى السحب هذا المساء ألوان جميلة ، بنفسجية وزرقاء ليس كذلك يارقيق ؟ لون أزرق أقرب إلى لون الزهر منه إلى لون الهواء ، لون أزرق يكاد يكون رمادياً ، ويبدو غريباً فى السماء . وهذه السحابة الوردية ، ألا يشبه لونها أيضاً لون الزهرة ، أو القرنفل ؟ على شاطئ المانش فقط ، بين نورماندى وبريتانيا ، استطعت أن ألاحظ هذا النوع من النباتات الجوى ملاحظة غنية . هناك ، بالقرب من بلبليك وهذه الأماكن الموحشة ، يوجد خليج هادئ ساحر ، يصبح غروب الشمس عنده — فى منطقة أوج — ذهبياً وأحمر ، وأنا أبعد ما أكون عن الاستهانة به ، وتافهاً وتغالياً من أى طابع مميز . لكن ، 'تفتتح فى المساء فى بضع لحظات ، باقات سبائية ، زرقاء ووردية ، لانظير لها' ، ولا تدبل فى أغلب الأحيان إلا بعد ساعات طوال ، وتنفذ باقات أخرى أوراقها فى الترو واللحظة . عندئذ ، يزداد جمال السماء التى نثرت فوقها وتبعث برتلات وردية أو صفراء لا تعد ولا تحصى . فى هذا الخليج ، ويقال له الخليج اللبى ، تبدو

البلاجات الذهبية أهدأ ، لأنها معلقة ، مثل اندروميد الشفراء ، في تلك الصخور الرهية التي نجدنا عند الشواطئ المجاورة ، وخلق النشاط المشغول الشهير بحوادث الفرق الكثيرة وفقدان المراكب عنده ، في عرض البحر ، كل شتاء . بليك ! أقدم هيكل جيولوجي في أرضنا ، والبحر ، وطرف الأرض ، والمنطقة الملحونة التي أحسن أناتول فرانس تصويرها بضمها الأرضي — وهو كاتب ساحر يجب أن يقرأ له صديقنا الصغير — وقال إنها البلد الحقيقي الذي سكنه السياريون في « الأوديسة » . يا لثمة التنزه في هذه المناطق البدائية الجميلة ، على بعد خطوتين من بليك ، حيث تبنى الفنادق فوق الأرض القديسة الساحرة ، ولا تشوهاها !

قال أبي : « آه ! وهل تعرف أحداً في بليك ؟ سيحبب إليها هذا الصغير ليقضي شهرين مع جلته ، وربما زوجتي ؟ »

فوجيء لوجرائدان بهذا السؤال ، في لحظة كانت عيناه فيها مثبتتين على أبي . فلم يتمكن من إدارة وجهه ، بل ثبت عينيه ، بين لحظة وأخرى ، بمزيد من القوة — وهو يتسم إقبامة جريئة — على عيني عدته ، بطريقة تنم عن الصداقة ، والصرامة ، وعلم الخوف من مواجهته . وبدأ وكأنه عبر وجهه ، كأن هذا الوجه قد أصبح شفافاً فجأة ، وأنه يرى وراء هذا الوجه ، في هذه اللحظة ، صحابة صارخة الألوان تمكث من اختلاق حجة ذهنية وإثبات انه كان يفكر في شيء آخر ولم يسمع السؤال ، عندما سئل عما إذا كان يعرف أحداً في بليك . وعادة ما تحمل مثل هذه النظرات عدته على أن يقول له : « فيم تفكر ؟ » لكن أبي استطرد قائلاً ، بفضول وحدة وقسوة :

— « هل لك أصدقاء في هذه الناحية ، ما دمت تعرف بليك إلى هذا الحد ؟ »

وفي محاولة أخيرة باتسة ، بلغت نظرة لوجرائدان اليأسه أقصى الود ، والنموض والصلق ، والشرود . لكنه قال لنا ، إذ رأى أن لا مفر من الرد ، بلاشك :

— « ولي أصدقاء حيناً وجلت فرق من الأشجار الجريحة التي لم تهزم ، وتنازلت لتستجدي معاً وباصرار مؤثر سماه لا ترحم ولا تشفق عليها . »

وقاطعه أبي ، الذي كان أكثر إصراراً من الأشجار ، وأقل رحمة من السماء :

— « لم أقصد ذلك . سألتك عما إذا كنت تعرف أحداً ، لاحتمال حدوث أي شيء لحائي ، وحاجتها إلى علم الشعور وهي هناك بأنها في بلد بعيد . »

— وهناك وفي أى مكان آخر ، أعرف الجميع ولا أعرف أحداً — هكذا رد لوجراندان الذى لا يسلم بسرعة — ، أعرف الأشياء كثيراً ، والناس قليلا . لكن الأشياء ذاتها تبدو هناك كالأشخاص ، أشخاص نادرين ، جوهرهم رقيق ، وخيبت الحياة آملم أحيانا ، تلتقى بقصر فوق الشاطئ الصخرى ، أو على حافة الطريق ، حيث توقف ليواجهه حزنه المساء الذى لا يزال وردياً ، ويصعد فيه القمر الذهبى ، وتحمل ألوانه المراكب العائدة ، وترفع شعلته على ساريها وهى ترسم خطوطاً فى المياه المتعددة الألوان . وأحياناً ، ترى متزلاً وحيداً ، أقرب إلى القبح ، خجول الشكل لكنه خيالى ، ويخفى عن الأبصار سراً لا يموت عن السعادة أو خيبة الأمل . وأضاف بركة مكيفيلية : « وهذا البلد الخالى من الحقيقة ، هذا البلد الخيالى الصرف ، يعد قراءة سيئة بالنسبة للطفل ، ولن أختاره أو أوصى به لصديق الصغير الميال بطلعه إلى الحزن . إن أجواء الأسرار العاطفية والندم الذى لا يجدى تناسب شخصاً عجوزاً تحرر من الأوهام مثلى ، لكنها تفر دائماً بالشخصية التى لم تتكون بعد . واستطرد باصرار « صلتقى ، إن مياه هذا الخليج ، وهو بريتانى بنصفه ، يمكن أن تترك أثراً خندراً ، ومشكوكاً فيه بالإضافة إلى ذلك ، فى النفس التى يمكن التأثير عليها ، النفس التى لا يعوض جرحها ، ولا ينصح بكل هذا لمن كان فى مثل سنك يا صغيرى . عثم مساء يا جيران ! » هذا ما أضافه وهو يرحل ، بالطريقة المجازفة التى اعتادها . والتفت إلينا ، ورفع أصبعه كما لو كان طيباً ، ونحس استشارته بقوله : « لا داعى لبليك قبل بلوغ سن الخمسين ، علاوة على أن اللهب إليها يتوقف على الحالة النفسية » .

فى لقاءاتنا اللاحقة ، عاد أبى إلى الحديث معى فى هذا الموضوع ، وعذبه بالأسئلة ، لكن بلا جدوى . وكما يفعل العلامة النصاب الذى يستخلم فى صنع رق مزيف جهداً وعلماً قد يكفى واحد فى المائة منهما ليضمن لنفسه وضعاً مادياً مجزياً ومشرفاً ، كان يمكن أن يبنى لوجراندان ، فى نهاية المطاف ، لو أننا زدنا من أصرارنا ، بحثاً كاملاً عن المناظر الطبيعية ، والجغرافيا السبوية فى المنطقة المنخفضة من التورماندى بدلا من أن يعرف لنا بأن أخته تسكن على مسافة كيلومترين من بليك ، ويضطر إلى إعطائنا خطأً يقدمنا لها فيه . ولو أنه تأكد تماماً — وكان يجب أن يتأكد — لأنه يعرف عن خبرة طبايع جدتى — من أننا لن نسهل الخطاب ، لما أوتاع إلى هذا الحد .



كنا نعود دائماً ميكرين من نزهتنا ، لنتمكن من زيارة العمة ليونى قبل العشاء .  
فى بداية الفصل ، حيث كان النهار قصيراً ، كنا نرى ، عندما نصل إلى شارع الروح القدس ، ظل الغروب باقياً على زجاج المنزل ، وشريطاً أرجوانياً فى أعماق غابات كالفير ، شريط ينعكس فى البركة البعيدة . وكان هذا الإحمرار ، الذى يصحبه فى كثير من الأحيان برد شديد إلى حد ما ، يرتبط فى ذهنى بإحمرار النار التى تحمر فوقها الدجاجة ، والى ستجمل متعة الطعام اللذيذ والدفء والراحة تلى متعة النزهة الشعرية . أما فى الصيف ، فعلى عكس ذلك ، كانت الشمس تظل مشرقة بعد عودتنا وأثناء زيارتنا للعمة ليونى . وكان نورها الذى يهبط ويلبس النافذة يتوقف بين الستائر الكبيرة وأربطها ، وينقسم ، ويتفرع ، ويقطر ، ويرصع بقطع ذهبية صغيرة خشب شجرة الليمون الذى صنع منه الصوان ويقضي "الغرفة بميل ، وبفس الرقة التى يتم بها تحت أشجار الغابة . وفى أيام قليلة جداً ، كنا نرى أن الصوان فقد ترصيعه الموقوت من مدة طويلة ، عند عودتنا ، ولا نرى ، عند وصولنا إلى شارع الروح القدس ، أى انعكاس للشمس الغاربة فوق زجاج النوافذ ، ونرى أن البركة فقدت احمرارها ، وانحلت لوناً لئلياً أحياناً ، وأن شعاعاً قمرياً طويلاً عبرها واتسع ، بعد أن أحدث فيه تجمعات المياه شقوقاً صغيرة . وعندئذ ، كنا نلمح عندما نصل بجوار المنزل ، ظلاً واقفاً عند الباب . وكانت أى تقول لنا : « يا إلهى ! ها هى ذى فرانسواز تراقبنا . عمتك قلقة ، لقد تأخرنا ، فى الواقع » .

وبدون أن نتاح لنا فرصة خلع معاطفتنا ، كنا نصعد بسرعة إلى غرفة العمة ليونى لتعلمنها ، ونثبت لها أنه لم يحدث لنا شئ ، بعكس ما تصورت ، لكننا ذهبتا « ناحية جرمونت » . وكانت حتى تعلم حقي العلم أنه لا يمكن أبداً أن نحدد الساعة التى سنعود فيها ، عندما نقوم بهذه النزهة . فقالت :

— « أو لم أقل لك يا فرانسواز أنهم ذهبوا ناحية جرمونت؟ يا إلهى ! ألا شك أنهم جوعانين ؟ والخبز الذى اهدته تجهد بلا شك من طول الانتظار . أهذه ساعة يعود الناس فيها ؟ أذهبتم حقاً ناحية جرمونت ؟ » وقالت أى :

— « ظننت أنك تعرفين ذلك ، يا ليونى ، وأن فرانسواز وأنتا ونحن خارجين من باب الستان الصغير » .

كانت توجد حول كومبريه « ناحيتان » للترهه ، وكانتا متعارضتين للدرجة أننا كنا نخرج دائماً من باب مختلف ، حسب ما إذا كنا نريد الذهاب إلى هذه الناحية أو تلك : ناحية ميزجليز لا فينوز ، وتسمى أيضاً ناحية بيت سوان لأنها تمر أمام ضيعة مسيو سوان ، وناحية جرمونت . لم أعرف أبداً من ميزجليز لا فينوز إلا « الناحية » ، والغرباء الذين يأتون إلى كومبريه يوم الأحد للترهه ، وهم أناس لا نعرفهم نحن ، بل ولا نعرفهم حتى نفسها . لذا ، كنا نعتبرهم « أناساً قلموا من ميزجليز » . أما جرمونت فعرفت المزيد عنها ، ذات يوم ، لكن بعد ذلك بكثير . وإذا كانت ميزجليز قد ظلت في نظري ، طوال فترة صباي ، شيئاً لا يمكن الوصول إليه كالأفق ، وتجبجه عن النظر ، مهما ابتعدنا عنه ، ثانياً أرض لا تشبه أرض كومبريه ، فإن جرمونت بدت لي نهاية مثالية أكثر منها حقيقية لناحيتهما ، بدت كنوع من التعبير الجغرافي المبرد ، مثل خط الاستواء ، أو القطب ، أو الشرق . لذا ، كانت عبارة « الذهاب إلى ميزجليز عن طريق جرمونت » أو العكس تبدو لي خالية من المعنى كعبارة لا اتجاه شرقاً للذهاب إلى الغرب . وبما أن أبي كان يتحدث دائماً عن ناحية ميزجليز باعتبارها أجمل منظر يطل على السهل ، وعن ناحية جرمونت باعتبارها نموذجاً للمنظر الطبيعي الذي تشقه الترهه ، كنت أعطيها ، بتصوري أنهما كيانين مستقلين على هذا النحو ، التماسك والوحدة اللذين لا تنقسم بهما إلا تخيلات العقل . كانت أقل قطعة من كل منهما تبدو لي ثمينة ومعبرة عن امتيازها الخاص ، في حين كانت الطرقات المادية الصرفة المحاورة لهما ، قبل أن تصل إلى الأرض المقدسة لهذه الناحية أو تلك ، والتي وضعت بينهما كنكال للمنظر المطل على السهل ومثال للمنظر المطل على الترهه ، لا تستحق النظر إليها ، كما لا تستحق الشوارع الصغيرة المحاورة للمساوح أن ينظر إليها المتفرج كلولع بالفن الدرامي . وكنت أضع بينهما بصفة خاصة شيئاً أكثر من المسافات التي تقاس بالكيلومترات ، أضع المسافة التي تفصل بين جزئي عقلي ، بحيث أفكر فيهما ، ومسافة من تلك المسافات التي لا تكفي بالإبعاد ، والفصل ، والوضع في مستوى آخر . وكان هذا الفصل مطلقاً ، لأننا اعتدنا ألا نذهب إلى الناحيتين في يوم واحد أثناء زهرتنا ، بل كنا نذهب مرة ناحية ميزجليز ، ومرة ناحية جرمونت ، مما كان يحبس كل منهما بعيداً عن الأخرى ، ويجعل أحدهما لا يعرف الآخر ، في آيتين مستطرفتين فيهما فترتي بعد ظهر غنطقتين .

وعندما كنا نود الذهاب إلى ميزجليز ، كنا نخرج ( ولا نكرر كثيراً ، حتى إذا كانت السماء غائمة ، لأن الترهه لم تكن طويلة ، ولا تجذبنا كثيراً ) ، وكانا ذاهبين إلى أي مكان

من الباب الكبير ليت عني الذي يقضى إلى شارع الروح القدس . كان صانع الأسلحة  
 حينئذ ، وكنا نضع الخطابات في صندوق البريد ، ونقول لتيودور إن فرانسواز تبغ  
 أنها في حاجة إلى زيت وبن ، ثم نخرج من المدينة ، من الطريق الذي يسير بمحاذاة  
 السور الأبيض الذي يحيط بمنزلة مسيو سوان . وكنا ، قبل أن نصل إليه ، نلتقي برائحة  
 الليلك التي تستقبل الغرباء . وكانت زهوره ترفع بطريقة غريبة ، بين قلوب أوراقها  
 الصغيرة الخضراء النضرة ، وفوق سور المنزه ، ريشها النيفسجي أو الأبيض الذي لمحه  
 الشمس بعد أن سبحت فيها ، حتى في الظل . وكان بعضها الذي حجبه قليلا البيت الصغير  
 المسمى « بيت الرماة » ، حيث يسكن الحارس ، يطل بمثلثته الوردية من فوق واجهة  
 غوطية . وقد تبدو حوريات الربيع عادية ، إذا قورنت بالهوريات الشابة التي احتفظت  
 في هذه الحديقة الفرنسية بالألوان الزاهية الصافية التي نجدها في منمنمات فارس . ورغم  
 رغبتني في احتضان خصرها الرشيق ، وجذب خصلات رؤوسها العطرة ذات النجوم ،  
 كن عمرها ولا تنوق ، لأن والدي لم ينهها إلى تونس فليل منذ أن تزوج سوان .  
 ولكي لا يبدو أننا ننظر إلى المنزه ، كنا لا نسلك الطريق الذي يسير بمحاذاة السور  
 ويصعد إلى الحقول مباشرة ، بل نسلك طريقاً آخر يصل إلى نفس المكان ، لكن بجبل ،  
 وينهب بنا بعيداً . وذات يوم ، قال جلي لوالدي :

— « هل تذكر أن سوان قال أمس إن زوجته وابنته ستسافران إلى رانس ،  
 وإنه سينتظر القرصة وينهب لقضاء أربع وعشرين ساعة في باريس ؟ يمكن إذن أن  
 نسير بمحاذاة المنزه ، ما دامت السيدات قد ذهبت . وهكذا ، نخصر الطريق » .

توقفنا لحظة أمام السور . وكان أو أن الليل يقترب من نهايته . وكان بعضه لا يزال  
 يخلق فقاعات زهوره الصغيرة في ثريات بنسجية عالية . واكتست بزبد أجوف ،  
 خال من العطر ، يذبل ، ويزول ، ويسود ، أجزاء كثيرة من الأوراق ، حيث كانت  
 تتدفق الزهور العطرة من أسبوع واحد فقط . وحدث جلي والدي عما لم يتغير في  
 شكل المكان ، وعما تغير فيه ، منذ تلك التزهة التي قام بها مع مسيو سوان يوم أن  
 ماتت زوجته . وانتهز الفرصة لكي يروي الحادثة مرة أخرى .

كان أمامنا ممر تحف به زهور السليوت ، ويصعد إلى القصر في عز للشمس في حين  
 كان المنزه يمد على أرض مسطحة ، على اليمن . وكان والدي سوان قد حفرا حوض  
 ماء وظله الأشجار الكبيرة المحيطة به . لكن الإنسان يشكل الطبيعة في أكثر أنواع

إبداعه اصطناعاً . فبعض الأماكن تجعل امبراطوريتها الخاصة تسيطر على ما حولها دائماً ، وترفع شعاراتها العريقة في متنته ما ، كما كان يمكن أن تفعل بعيداً عن أى تدخل بشرى ، في عزلة تعود وتحيط بها في كل مكان ، عزلة نابعة من ضرورة عرضها وتضاف إلى عمل الإنسان . وهكذا تكون أسفل الممر الذى يطل على البركة الصناعية ، حل صفيح مجدولين يزهور أذن القار والمانقية ، تاج طبيعى أزرق رقيق يحيط بجبين المياه الظليل . وكان الحلابديولس الذى أمال سيوفه بعقوبة ملكية ، يبسط فوق الغفث والشقيق المائى ذو الرجل الميتة ، ازهار الزنق المهلهلة ، البقسجية والزرقاء ، التى يتكون منها صولحانه البحرى .

كان رحيل الآسة سوان — ولقد حرمنى من فرصة رهيبة ، فرصة ظهورها فجأة في عمر من الممرات ، ومعرقها واحتقارها لى ، وهى الفتاة المخطوطة التى كان يرجوت صديقاً لها ، وكانت تزور الكاتدرائيات معه — قد جعلنى لا أبالى بتأمل تونسونفيل في أول مرة يسمح لى فيها بذلك ، في حين كان يضيف إلى هذه الضيعة ، في نظر كل من جدلى وأبى ، متعة عابرة ، وبعض اليسر ، ويجعل هذا اليوم مناسباً بصفة استثنائية للترهة في هذه الناحية ، كما يتيح غياب السحب القرصة للقيام برحلة إلى البلاد الجبلية . كنت أود أن يكونوا قد أخطأوا في حساباتهم ، وأتمنى أن تحدث المعجزة وتظهر الآسة سوان ووالدها بالقرب منا ، بحيث لا يتسع الوقت لتجنهما ونضطر إلى التعرف . لذلك ، عندما نحت فجأة فوق الحشاش ، كعلامة لإمكانية وجودها ، مقطفاً منسياً وبجوار مسنارة يطقو قلبها فوق المياه ، أسرعت ولقنت أنظار أبى وجدلى إلى الناحية الأخرى . وبما أن سوان كان قد قال لنا إنه سيغيب رغم أنه ، لأن بعض أقربائه كانوا في البيت ، يمكن أن تكون المسنارة ملكاً لأحد الضيوف . لم نسمع وقع أى خطوات في الممرات . وقسم طائر لا يرى ارتفاع شجرة مشكوك فيها ، وحاول جاهداً أن يشعرتا بأن النهار قصير ، واستكشف العزلة المحيطة بنفحة ممتدة ، ولكنه تلقى منها رداً جماعياً ، ورد فعل أضيف إلى الصمت والجمود إلى حدٍ قد نقول معه إنه أوقف لتوه إلى الأبد اللحظة التى حاول أن يجعل بها . وكان النور يسقط بلا رحمة من السماء التى أصبحت ثابتة بحيث يود المرء ألا يكون متنبهاً . حتى المياه الراكدة التى تزورق الحشرات نومها باستمرار ، تعلم بالاشك بلوامة خيالية ، يكتلك التى زادت من الاضطراب الذى تملكنى عندما رأيتها تبحر الفلين ، فيما يبدو ، بأقصى سرعة ، فوق المساحات للصامنة للعاكسة للسماء . كانت قطعة للفلين ، وهى في وضع رأسى تقريباً ، تبدو مستعدة للغوص .

وتساءلت ، بدون أن آخذ في الاعتبار الرغبة في معرفة الآتية سوان والجوف من تلك المعرفة ، عما إذا كان يجب أن أخبرها أن الستارة « غمزت » ، عندما اضطرت أن ألقى وأنا أعلو بأى وجلى ، اللذان كانا يتأديان ، ويدهشان لأثنى لم أتبعهما في الطريق للضييق الصاعد إلى الحقول الذى ملكاه. وجلت الطريق بطن برائحة الزعرور .

وكان السياج يكون شيئاً أشبه بسلسلة من المصليات المنخفضة تحت زهورها المتوفرة المكسدة في شكل مذبح . وكانت للشمس تضع تحفا ، على الأرض ، مربعات من النور ، تبدو كأنها عبرت إحدى الزجاجيات توأ . وكان عطرها يفوح وينتشر ناعماً ، مهم الشكل ، حتى أننى تخيلت أننى أمام هيكل للعنزة. كانت كل وردة من الورود ، التى تزييت أيضاً ، تمسك وهى شاردة باقة أسديتها للتلألؤ ، وهى عروق دقيقة مشعة ، مشتعلة الطراز ، تشبه تلك التى تفرغ درازين المنبر في الكنيسة أو معينات الزجاجيات ، وتكشف عن لحم أبيض كلحم زهرة شجرة القراولة. وقد تبدو أزهار النسرين ريفية ساذجة ، إذا قورنت بهذه الزهور ، وقد تصعد أيضاً ، بعد بضعة أسابيع ، إلى نفس الطريق الريفى ، فى عز الشمس ، فى ثوبها الحريرى الأحمر الذى تحله النسمة .

وبهما طال وقوفى أمام زهور الزعرور ، واستنشقت رائحتها اللطيفة التى لا ترى ، أتى بها أمام فكرى للذى لا يعرف ماذا يفعل بها ، وأقلدها ، واعتز عليها ثانية ، واتخذ مع الإيقاع الذى يلى بها هنا وهناك ، مجبور فى ، على فترات غير متوقعة كبعض الفواصل الموسيقية. كانت تقدم لى إلى مالا نهاية نفس السحر بفيض لا ينضب معينه ، لكنه لا يتيح لى فرصة للتمعق ، شأنه شأن تلك الألحان التى تنزف مائة مرة متتالية ، ولا تتقدم فى معرفة سرها . أدت ظهرى للزعرور لحظة ، لأقرب منه بعد ذلك بقوى أكثر نضرة . ولا حقت حتى المنحدر الوعر الصاعد إلى الحقول ، وراء السياج ، بعض الأزهار البرية الضالة ، وزهور الترنجان الكسولة التى ظلت فى المؤخرة ، وكانت تزخره هنا وهناك كحافة لوحة جدارية نثرت فيها الوحدة النباتية التى سيكتب لها النصر . كانت هذه الزهور القليلة ، المتباعدة كالمنازل المتفرقة التى تعلن عن قرية قريبة ، تعلن لى عن المساحة الشاسعة التى يتدفق فيها القمح ، وتموج السحب . كان قلبى يندق لرؤية زهرة خشخاش واحدة وهى ترفع شعاعها الحمراء فى طرف وثرها وتسلمها لصفعات للرياح ، فوق طوقها الذهبى الأسود ، كما يندق قلب المسافر الذى يلوح على أرض منخفضة أول مركب جانحة يصلحها جنفاط . ويصبح قاتلاً ، قبل أن يراها : « البحر ! » .

عدلت إلى زهور الزعرور ، وكأني أمام واحدة من تلك الأعمال الرائعة التي نظن أننا سنحسن النظر إليها إذا توقفنا عن النظر إليها لحظة . وعبثاً حاولت أن أجعل من يدى شاشة لكي لا أرى سواها . فلقد ظل الإحساس الذي أيقظته في غامضاً مبهماً ، وعبثاً حاول أن يخلص نفسه وينضم إليها . لم يساعدني الزعرور على تفسير ذلك الإحساس ، ولم يكن في استطاعتي أن أطلب من زهور غير زهوره إشباعه . عندئذ ، بعث في جدي تلك الفرحة التي تشعر بها عندما نرى عملاً لرسامنا المفضل مختلفاً عن أعماله الأخرى التي نعرفها ، أو نقف أمام لوحة لم نر منها إلا رسماً مبدئياً بالقلم الرصاص ، أو ترتدى المقطوعة الموسيقية التي سمعتها تحزف مائة مرة على البيانو فقط ملابس الأوركسترا ، منحني إياها عندما ناداني ، وأشار إلى سياج توتسوفيل وقال : « أنت يا من تحب الزعرور ، انظر إلى هذه الزهرة الوردية ، يا جمالها ! » وكانت زهرة وردية بالفعل ، أجمل من الزهور البيضاء . كانت قد ارتدت هي أيضاً حلة العيد — عيد من تلك الأعياد الحقيقية المتمثلة في الأعياد الدينية ، ما دامت للتروة العابرة لا تطابق بينها وبين يوم لم ينحصر لها كما تفعل الأعياد الاجتماعية ، يوم ليس فيه شيء يجعله يوم عطلة أساساً — ، بل حالة أخفى منها ، لأن الزهور ثبتت في الغصن ، بعضها فوق البعض الآخر ، بحيث لا تترك مكاناً خالياً من الزخرف ، كأنها شرابات تزين عصا « روكوكو » ، فضلائع أنها . كانت « ملونة » ، ومن نوعية راقية بالتالي ، وفقاً لمفهوم كومبريه للجمال ، هذا إذا احتكنا إلى جنول الأسعار في « محل » الميدان ، أو عند كامو ، حيث كان البسكويت الوردى أغلى أنواع البسكويت . وكنت أنا نفسي أحب الحين بالكريمة الوردية ، الحين الذي يسمح لي بدهك الفراولة فيه . وكانت هذه الأزهار قد اختارت بالذات لوناً من ألوان الأشياء التي توكل أو الزينة الحنون التي تجعل ثوباً يليق في حفل كبير . وتبدو هذه الألوان جميلة وواضحة ما أمكن لعيون الأطفال ، لأنها لا تقدم لهم سبب تفوقها على غيرها . ولهذا ، تحفظ دائماً في نظرهم بشيء أكثر حيوية وطبيعة من الألوان الأخرى حتى بعد أن يدركوا أنها تعد نهمهم بشيء ، وأن الخطيئة لم تغتفرها . وطبعاً ، أحسست فوراً ، كما حدث لي أمام الزهور البيضاء ولكن بزيد من الإعجاب أن تعبر الأزهار عن ثمة الاحتفال لم يكن مصطنعاً ، وناتجاً عن حيلة من صنع البشر ، بل عبرت عنه الطبيعة تلقائياً بسلاجة تاجرة قروية تعمل للمبج للكنيسة ، عندما حملت الشجيرة بزهور ذات لون ريفي حنون . وفي أعلى الأغصان ، مثل أشجار الورد الصغيرة التي توضع في أواني ينفخها ورق « الدانتيل » ، وتضع سهامها النارية الرقيقة فوق الهيكل ، في الأعياد الكبرى ، انتشر ألف برعم صغير فاتح اللون . وكانت البراعم ، عندما

تفتح ، تظهر ورداً أحمرأ دعوى فبا يشبه قاع كأس من الرخام الوردى ، وتكشف أكثر من الزهور عن جوهر زهرة الزعرور النحاس ، جوهر لا يقاوم ، يشغل اللون الوردى فقط في كل مكان تظهر فيه وتوشك على الإزدهار . كانت الشجيرة الكاثوليكية الجميلة داخلة في السياج ، لكنها كانت مختلفة عنه اختلاف الفتاة التي تلبس ثياب العبد بين أناس في ثياب المتزل ، ومستعدة تماماً للشهر المريمى ، وتبدو سلفاً كجزء منه ، وتلمع وهي تلبس في زيتها الوردية النضرة .

ظهر خلف السياج ، داخل المتزه ، ممر يحف به الياسمين ، والبانسيه ، ووعى الحمام الذى يفتح بينه المشور كيه النضر بلونه الوردى المعطر ، الباهت كقطعة جلد قديمة من قرطبة ، بينما بسط خرطوم رى طويل مطلى باللون الأخضر دوائر فوق الحصى ، ورفع مروحة رأسية منشورية مكونة من قطراته الصغيرة المتعددة الألوان في الأماكن التي تقب فيها ، فوق الزهور التي يبلل أريجها . وفجأة ، توقفت ، ولم أستطع الحركة ، كما يحدث عندما لا تخاطب الرؤية أنظارنا فقط ، بل تتطلب إدراكاً أعق ، وتحكم في وجودنا كله . كانت هناك صبية شقراء ، تكاد تكون حمراء الشعر ، تبدو كأنها عائدة من التزه ، وتمسك يدها معزقة بستانى ، نظرت إلينا ، ورفعت وجهها الذى ثرت فيه بقع وردية . كان عيناها السوداوان يلعبان ، وبما أنى لم أكن أعرف آنذاك ، ولم أعرف بعد ذلك ، كيف أحول أى انطباع قوى إلى عناصره الموضوعية ، وبما أن قدوتى على الملاحظة لم تكن كافية ، كما يقال ، لاستخلاص فكرة لونها ، ظلت ذكرى يريقهما تقدم نفسها لى ، فترة طويلة ، كلما فكرت فيها مرة أخرى ، على أنها ذكرى لون أزرق صارخ ما دامت الفتاة شقراء : ولولا أن عيناها كانتا بهذا السواد — وبلغت هذا النظر كثيراً عندما يراها المرة لأول مرة — ، لما أصبحت عاشقاً لعينها الزرقاوين بصفة خاصة .

وجهت إليها أولاً تلك النظرة التي لا تكتفى بأن تكون لسان حال العينين ، بل تطل من نافلتها كل الحواس القلقة . المتحجرة ، النظرة التي تود أن تلمس ، وتأسر ، وتقود الجسد للذى تنظر إليه والروح أيضاً . ثم وجهت إليها نظرة ثانية ، لفرد خوفى من أن يعمدنى أبى وجلى ، بين لحظة وأخرى ، عندما يلعبان الفتاة ، ويقولان لى أن أسبقهما بقليل . وكانت هذه النظرة الثانية نظرة متوسلة لا شعورياً ، نحاول أن نجبرها على الانتباه لى ومعرفى ! وجهت حلقى عينها لى الأمام وجانباً لتعرف على أبى وجلى ، ولا شك أن الفكرة التي عادت بها قالت إننا ضففاء ، لأنها أدارت ظهرها

بازدرام ولا مبالاة ، ووقفت وقفة جانبية لتلقى وجهها من الدخول في حقاها البصرى .  
واصل الاثنان السير ولم يرياها ، وتخطيانى ، في الأثناء التي تركت فيها عيئها تجريان في  
اتجاهى ، بدون أن يكون فيهما تعبير خاص ، أو يبدو أنها دائئى ، لكن كان فيهما  
ثبات وإتسامة خفية لا يمكن أن أفسرها ، وفقاً للمفاهيم التي لقيت في عن حسن التربية ،  
إلا بأنهما دليل على الاحترار المهين . وفي الوقت نفسه ، رسمت يدها حركة بلدية  
لا يعطيها قاموس الأدب الذي أحمله في نفسي إلا معنى واحداً ، إذا وجهت علناً  
إلى شخص لا نعرفه : معنى النية الوقحة .

— هيا يا جلبرت ، تعالى ، ماذا تفعلين ؟ —

هكذا صاحبت بصوت حاد أمر سيدة ترتدى ثوباً أبيضاً لم أرها ، ويبعد عنها  
قليلاً سيد يرتدى ملابس قطنية لا أعرفه ، ثبت على عيني نرجان من وجهه . فتوقفت  
للغداة فجأة عن الابتسام ، وأخلت معزقها ، وابتعدت بدون أن تلفت ناحيتي ، بطريقة  
مطبعة ، غامضة ، مأكرة .

هكذا مر بالقرب منى هذا الإسم : جلبرت ، كفأل قد يمكننى يوماً من العثور  
على تلك التي جعل منها شخصاً حقيقياً ، ولم تكن ، قبل ذلك بالهظة ، إلا صورة  
مشكوك فيها . هكذا مر ، عتلمنا تم للتلق به ، فوق الياسمين والمثور ، حاداً ونضراً  
كقطرات مياه الرشاشة الخضراء ، وشبح ، ولون منطقة الهواء التي التي مر بها — وعزها  
بسر حياة من إختارها ، للسعداء الذين يعيشون ويسافرون معها . وبسط ، تحت شجرة  
الزعرور الوردية ، في مستوى كفى ، خلاصة الألفة ، ولكم هي أئمة بالنسبة لي ، بينهم  
وبينها ، بينهم وبين ما أجعله من حياتها التي لن أدخل فيها أبداً .

واللهظة ( بيننا كنا نبتعد ، وكان جلدي يهمس قائلاً : « يا لسوان المسكين ! أى دور  
يلعب ! نجعله يرحل ، لكى تبقى بمفردها مع عشيقها شارلوس ، لأنه هو بلا شك !  
لقد عرفته ! وهذه الصغيرة التي يزجون بها في هذه القضيحة ! » ) سكن الإحساس  
الذي خلفته في الهمجة الاستبدادية التي تحدثت بها والدة جلبرت إلى ابنتها ، ولم ترد عليها  
هذه الأخيرة ، وأثبتت أنها مجبرة على الطاعة ، وليست فوق كل شيء ، سكن عذابى  
قليلاً ، ورد لي بعض الأمل ، وقلل حبي . لكن ، سرعان ما زاد هذا الحب من جديد  
في نفسي ، كرد فعل أراد به قلبي المهان أن يرتفع إلى مستوى جلبرت أو يتزل بها إلى  
مستواه . أحييتها . ونلت على أن الوقت لم يسمح لي بإهانتها ، والإساءة إليها ، وإجبارها



على أن تذكرنى ، وعلى عدم شكيرى فى كل هذا . رأيها جميلة للدرجة أننى وددت أن أعود أدراجى ، وأصرخ وأقول لها وأنا أهر كتنى : « كم أنت قبيحة ! ومضحكة ! كم أشمت منك ! » ومع ذلك ، ابتعدت ، حاملا معى إلى الأبد ، كنموذج أول لسعادة لا يمكن أن يبلغها أطفال مثلى ، نتيجة لبعض القوانين الطبيعية التى يستحيل الخروج عليها ، صورة فتاة حمراء الشعر ، نثرت على وجهها بقع وردية ، تمسك ممزقة وتضحك وهى توجه إلى نظرات جانبية مأكرة خالية من التعبير . وكان السحر الذى هطربه اسمها هذا المكان تحت الزهور الوردية ، عندما سمعته معاً أنا وهى ، قد أخذ يغزو ، ويكسو ، ويعطر كل ما يقرب منه ، أجسادها للذين سعد أهلى بمعرفتهم ، ومهنة الصراف السامية ، وحى الشانزليزيه الألم الذى تسكنه فى باريس .

قال جدى ، عندما عدنا إلى المنزل : « وددت أن تكونى معنا ، يالبنى ، منذ قليل ! ولو أن ذلك كان ، لما عرفت وتونسوفيل . ولو أننى تجمرات ، لقطعت لك غصناً من ذلك للزعرور الوردى الذى نحبينه كثيراً ! » وهكذا حدث جدى العمة ليونى عن نزهتنا ، إما لتسليتها ، إما لأنه لم يفقد تماماً الأمل فى إخراجها من الدار . وكانت فيها مضى نحب هذه الضيعة كثيراً . وكانت زيارات سوان آخر زيارات قبلها ، فى الأثناء التى أخذت فيها تغلق بابها فى وجه الجميع . ولما كان يحضر للسؤال عنها ( وكانت الشخص الوحيد ، بين أفراد أسرتنا ، الذى ظل سوان يطلب رؤيته ) ، كانت ترسل من يقول له إنها متعبة ، كما تفعل الآن ، وإنها ستستقبله فى المرة القادمة . وفى ذلك المساء ، قالت : « نعم ، سأذهب بالعربة حتى باب المتزه يوماً ، إذا كان الجو جميلاً . » وكانت صادقة فى قولها هذا ، لأنها تود أن ترى سوان وتونسوفيل مرة أخرى . لكن رغبها فى ذلك كانت تكفى ما بقى لها من قوى ، أما تحقيقها فقد يتجاوزها . أحياناً ، كان الجو الجميل يرد إليها شيئاً من القوة ، فكانت تنهض ، وترتدى ملابسها ، لكن التعب كان يحل قبل أن تصل إلى الغرفة الأخرى ، فطلب الذهاب إلى فراشها . كانت قد بدأت — لكن فى وقت مبكر أكثر مما يحدث عادة — ذلك التنازل الهائل الذى تسلم به الشيخوخة التى تستعد للموت ، وتلتحف بشرقتها ، ويمكن أن نلاحظها فى آخر أيام من يطول بهم العمر ، حتى بين العشاق القدامى الذين هاموا ببعضهم بعضاً ، والأصدقاء الذى تربط بينهم روابط متينة ، ويتوقفون ، ابتداء من سنة معينة . عن الخروج أو السفر لرؤية بعضهم بعضاً ، ومراسلة بعضهم بعضاً ، ويعرفون أن الاتصال بينهم فى هذه الدنيا سوف يتقطع . ولا شك أن همتى كانت تعلم حق العلم أنها لن ترى

سوان ولن تغادر البيت أبداً ، لكن ، كان ييسر اعتزالها التهاى ، بلاشك ، نفس السبب الذى كان يجب أن يجعله أكثر إيلاها ، من وجهة نظرها ، أقصد أن إدراكها لضعف قواها يوماً بعد يوم كان يفرض عليها هذا الاعتزال . وعندما كانت تجمل من أى عمل ، وأى حركة ، شيئاً متعباً ، إن لم يكن عذاباً ، كانت تعطى لاتعلم الفعل ، والعزلة ، والصبى ، حلاوة الراحة التوضيفية المباركة .

لم تذهب عني لرؤية سياج الزعرور الوردى ، لكنى كنت أسأل والدى فى كل لحظة عما إذا كانت تذهب ، لأنها كانت تذهب كثيراً إلى تونسوفيل ، ، فيما مضى ، محاولاً بذلك حلها على الحديث عن آباء الآئمة سوان وأجدادها ، الذين كنت أتصورهم عظماء كالآلهة . وكان هذا الاسم ، سوان ، يصبح أسطورياً فى نظرى ، وعندما كنت أتحدث إلى والدى ، كانت تضمننى الحاجة إلى سماعهم ينطقون به ، ولا أجروا أنا على النطق به ، لكنى كنت أجلبهم إلى موضوعات قريبة من جلبرت وأسرته ، تخصها ، ولا أشعر إزاعها أننى منى بعيداً عنها . كتبت أجبر والدى فجأة ، وأنا أنظأه ، على سبيل المثال ، بأننى اعتقد أن فى أسرته من شغل وظيفة جدى من قبل ، أو أن سياج الزعرور الوردى الذى تريد العمة ليونى أن تراه يوجد فى أرض الحكومة ، أجبره على تصحيح قولى ، وعلى أن يقول لى ، كأنه يقول من تلقاء نفسه ، ورغماً عني ، « لا ، كان والد سوان يشغل هذه الوظيفة ، وهذا السياج جزء من منتزه سوان » . عندئذ ، كنت اضطر إلى التقاط أنفاسى ، لأن هذا الإسم كان يقل على للدرجة الحق ، إذ يحيط فى المكان الذى ظل مكتوباً فيه ، فى نفسى . وفى اللحظة التى كنت أسمعها فيها ، كان يخيل لى أنه أكثر امتلاء من أى اسم آخر ، لأنه مهمل بعدد المرات التى نطقت به فيها ، بينى وبين نفسى . وكان يبعث فى متعة أخجل ولا أجروا على طلبها من والدى ، لأنها بالغة ، ولا شك أنها تطلبت منهما كثيراً من العناء ، بلا مقابل ، ما دام لا يعتبر أنها متعة . لذا ، حولت الحديث ، بدافع للتقدير والشك أيضاً . وكنت أجد فى هذا الإسم ، سوان ، كل الإغراء الغريب الذى أضعه فيه ، حالما ينطقون به . وكان يخيل لى عندئذ ، فجأة ، أن والدى لابد أن يحسا به ، ويثبنا وجهة نظرى ، وأنهما يريان أيضاً أحلاى ، ويتفقان معها ، ويضفانها لى . وكنت أشقى ، كما لو كنت قدعزمتها وأقسدتها .

فى تلك السنة ، حدد والدى يوم عودتنا إلى باريس قبل الموعد المتأخر بقليل . ويوم السفر ، صفقوا لى شمرى لى تلتقط لى صورة ، وألبسوا بناية بقعة لم أضعها من

قبل على راسي ، ومعطفاً مبطناً بالخمل . وبعد أن بحثت عنى فى كل مكان ، وجئتنى أبكى فى الطريق المنحدر الضيق المحاور لتونسوفيل ، وأودع الزعرور ، وأحيط الفصون وأشواكها بلراعى . وكما تفعل أميرة إحدى المائى ، التى تنقل عليها الزينات العائبة ، تتكررت ليد المزجة التى وضعت الأربطة فى شعري ، وعينت بجمعه فوق جبيني ، ونزعت قصاصات الورق التى لقوا بها شعري لتجعيده ، وحسبها بقدى هى والقبعة الجديدة . لم تتأثر أى بدموعى ، لكنها لم تنالك نفسها ، وصرخت عندما رأت القبة المثقوبة والمعطف الذى ألفتته . لم أسمعها ، وقلت وأنا أبكى : « أى زهورى الصغيرة المسكينة ، أنت لا تريدن تكديرى ، وإجبارى على السفر . أنت لم تحزنى أبداً وسأجلك دائماً من أجل هذا ، ومسحت دموعى ، ووعدت زهور الزعرور بالأقلد الحياة الخنونة التى يحياها الآخرون ، عندما أكبر ، وبأن أذهب إلى الريف ، فى أيام الربيع ، حتى لو كنت فى باريس ، لأرى أول زهور الزعرور ، بدلا من القيام ببعض الزيارات أو الاستماع إلى بعض المسخافات .

كنا لا نبتعد عن الحقول قط ، بعد أن نصل إليها ، طوال التزهة التى نقوم بها ناحية ميزجلير . وكانت تطوف بها باستمرار ، كأنها شخص يتجول ولا يرى ، ربح تمثل فى نظري كوبريه الخاصة . فى كل عام ، كنت لا أشعر أننى فى كوبريه حقاً ، يوم وصولنا إليها ، إلا إذا صعدت للقائها وهى تجرى فى عباة الرعاة ، وجريت وراءها .

كانت الريح تظل بجانبنا ، ناحية ميزجلير ، فى ذلك السهل المغطى الذى لا تلتقى فيه بأى أرض مرتفعة ، على بعد عدة فراسخ . وكنت أعرف أن الأنسة موان تختلف كثيراً إلى لاوون لقضاء بضعة أيام فيها . ورغم أن هذا المكان كان بعيداً ، كان خياب أى حائق يعوض بعد المسافة . وكنت عندما أرى ، فى الأيام الحارة بعد الظهر ، هبة ربح واحدة قادمة من أقصى الأفق ، وهى تميل القمح ، مهما كان بعيداً ، وتنتشر كاللوجة فوق المساحات الشاسعة ، وتعود لترقد ، هامة دافقة ، بين للشب والبرسيم ، تحت قدمي ، وكان السهل المشترك يبدو وكأنه يقرب بيننا ، ويجمع بيننا ، أفكر فى أن هبة الريح هذه مرت بجوارها ، وأنها رسالة منها تهمنى لى الريح بها ولا أستطيع تفسيرها ، وأقبلها عند مزورها . كانت توجد على اليسار قرية تسمى شامبيو ، وكنا نرى على اليمين ، وراء القمح ، برجى أجرام سان أندريه دى

شون ، وهما برجان ريفيان ، متوشان وممشوقان ، بهماً قشور ، وتشابكت فيهما  
خلالها كقرص العسل ، مصفران ومحببان كسبلتي قمح .

وعلى مسافات متساوية ، وسط زينة أوراقها التي لا تضاهي ، ولا يمكن الخلط  
بينها وبين أوراق شجرة فاكهة أخرى ، كانت أشجار التفاح تفتح بتلاتها العريضة  
الشفية بالساعات الأبيض ، أو تعلق باقات براعمها الحمرة اللجولة . ولاحظت لأول  
مرة ، ناحية ميزجلز ، الظل المستدير الذي ترسمه أشجار التفاح على الأرض المشمس ،  
وذلك الحرير الذهبي الذي لا يدرك إلا باللمس ، وتشفه الشمس الغاربة بميل تحت  
الأوراق . وكنت أرى أبي يوقفه بعصاه ، ولا يجمله بتحرف أبداً .

وكان القمر الأبيض يمر أحياناً كالسحاب ، في سماء بعد الظهيرة ، عابراً وخالياً  
من البريق ، كمثلة لم يحن وقت أذانها لدورها بعد ، وتنتظر لحظة إلى رملتها ، وهي  
بملابسها العادية في الصلاة ، وتنزوي ، ولا تريد أن يلتفت إليها أحد . كنت أحب العنور  
على صورة القمر في اللوحات والكتب . لكن هذه الأعمال الفنية كانت مختلفة تماماً —  
على الأقل في السنوات الأولى ، قبل أن يعود بلوك عيني وفكرى على أشكال أدق من  
الانسجام — عن تلك التي قد يبدو لي فيها القمر جميلاً اليوم . على سبيل المثال ، كانت  
هذه الأعمال الفنية رواية لساعتين ، أو منظرًا طبيعيًا للجليد ، يرسم فيه القمر بوضوح  
منجلا فضياً في السماء ، أي أنها كانت أعمالاً ساذجة وناقصة كانطباعاني ، تثير أخوات  
جلتي عندما كن يرين حبي لها . فلقد كن يعتقدن أنه يجب أن توضع أمام الأطفال —  
ويثبتون جهنم لها — الأعمال التي قد يعجب المرء نهائياً ، عند بلوثة سن النضج  
ولا شك أنهم كن يتصورون أن المزاج الجمالية أشياء مادية لا يمكن إلا أن تراها العين  
المفتوحة ، بدون أن يحتاج المرء إلى امعان التفكير في نظرها ، في نفسه .

كان مسيو فانتوى يسكن ناحية ميزجلز ، في مونجوفان ، بيتاً يقع على شاطئ  
بركة كبيرة ويستند إلى منحدر كثير الدغال . لذا ، كان الناس يقابلون ابنته كثيراً  
على الطريق ، وهي تقود « كارتة » بمنتهى السرعة . وابتداء من سنة معينة ، لم ير الناس  
الابنة بمفردها ، وإنما بصحبة صديقة تكبرها سنًا ، سيدة السمعة في المنطقة ، استمرت  
يوماً بصفة نهائية في مونجوفان . وقيل : « لاشك أن فانتوى المسكين قد أعماه الحب ،  
مادام لا يدرك ما يقال ، ويسمح لابنته ، وهو الذي يستنكر أى كلمة خارجة ، بالحياة  
تحت سقف واحد مع امرأة كهذه . بل يقول إنها امرأة راقية ، كبيرة القلب ، كان  
لديها استعداد خارق لعزف الموسيقى ، لكنها لم تنمه . وليناكد أنها لا تشغل بالها بالموسيقى

حتماً تكون مع ابنته . كان مسيو فانتوى يقول ذلك . ونلاحظ بالفعل إلى أى مدى يعجب والدى شخص ما بالصفات المعنوية التى يتمتع بها شخص آخر تربطه بابنهم أو ابنتهم علاقة جسدية . وحسب الجسد ، الذى يحيط الناس من شأنه بغير حق ، يجبر أى شخص على أن يظهر إلى أقصى حد ما فيه من طيبة واستسلام ، مما يجعله يتألق ، حتى فى عيني من يحيطون به مباشرة . وكان الدكتور برسييه ، الذى يسمح له بصوته الجمهورى وحاجباه الكثيفان بأداء دور الخائن ، وإن كان شكله لا يصلح لذلك ، بدون أن يخاطر بحال من الأحوال بالسمة الراضية التى لا يستحقها ، أى أنه إنسان طيب خشن ، يعرف كيف يجعل الخورى والجميع يضحكون حتى تلمع صيونهم ، عندما يقول بلهجة جافة : « آه ! يبدو أن الأنسة فانتوى تعزف الموسيقى مع صديقها . ويبدو أنكم مندهشون لذلك . أنا لافهم . الأب فانتوى هو الذى قال لى هذا أمس ، مرة أخرى على أية حال ، من حق هذه الفتاة أن تحب للموسيقى . فأننا لا أوافق على معارضة مواهب الأبناء الفنية . وفانتوى أيضاً ، لا يوافق على ذلك لها يبدو . هو أيضاً يعزف الموسيقى مع صديقة ابنته . يالها من موسيقى ، تلك التى تعزف فى هذا البيت ! لم يضحكون ؟ يبالغ هؤلاء الناس فى عزف الموسيقى . وقابلت أخيراً الأب فانتوى بالقرب من المقابر ، وكان يكاد لا يقوى على الوقوف على قدميه . »

وربما كان يصعب على الذين رأوا ، كما رأينا فى الفترة الأخيرة ، أن مسيو فانتوى يتجنب الذين يعرفهم ، ويدير ظهره عندما يراهم ، ويصاب بالشيخوخة فى بضعة شهور ، وينغمس فى الحزن ، ويعجز عن بذل أى جهد لا يهدف إلى إسعاد ابنته مباشرة ، ويقضى أياماً كاملة أمام مقبرة زوجته ، ألا يفهموا أنه فى سبيله إلى الموت حزناً ، ويفترضوا أنه لا يدرك الشائعات : ربما كان يعرفها ، بل يصلقها . ولا يوجد شخص ، مهما كان فاضلاً ، لا يجعله تعقيد الظروف يعيش يوماً فى ألفة مع الرذيلة التى يدينها صراحة ، ولا يتعرف عليها تماماً تحت ثوب الوقائع الخاصة الذى تذكر فيه لتصل به وتعذبه : كلمات غريبة ، ومواقف لا تقبل التفسير ، يتخللها ذات مساء شخص يحبه لأسباب كثيرة ، بالإضافة إلى ذلك ، لكن ، بالنسبة لرجل مثل فانتوى ، كان الاستسلام لموقف من هذه المواقف التى تخطئ ونظن أنها وقف على عالم البوهيميين ، يتضمن عذاباً أكثر بكثير من عذاب أى شخص آخر . وتطراً هذه المواقف فى كل مرة تحتاج فيها الرذيلة إلى الاحتفاظ لنفسها بالمكانة والأمان اللازمين لها . والطبيخه ذاتها تجعل الرذيلة تتمتع عند الطفل ، لجرد خطيئها بين خواص الأب والأم أحياناً ، فى لون عينيه ملال . لكن احتمال معرفة فانتوى لسلوك ابنته لم يكن ليقابل من عبادة لها ، فالوقائع لاتنقل إلى العالم الذى تعيش فيه معتقداتنا ، ولا توجد هذه المعتقدات ، أو تقضى عليها .

فهي تستطيع أن تخضعها للتكذيب المستمر، لكن بلون أن تضعفها. وسيل المصائب والأمراض المتتالية الذي لا ينقطع في أسرة ما، لن يجعلها تشك في رحمة الله أو موهبة طبيعتها الخاصة. وعندما كان فانتوى يفكر في ابنته، وفي نفسه، وفي سمعتها، من وجهة نظر الناس، عندما كان يحاول أن يجد موقعه وموقعها من المرتبة التي كانا يحتلانها في تقدير الآخرين عامة، كان يصدر هذا الحكم الاجتماعي كما كان يمكن أن يصدره ألد أعدائه ممن يسكنون كومبريه بالضبط، ويرى نفسه مع لبنة في أسفل السافلين. واتسم سلوكه مؤخرًا، نتيجة لذلك، بذلك التواضع وذلك الاحترام الذي يشعر بها المرء تجاه الذين يوجدون في مرتبة أعلى وإيراهم هو من أسفل (وإن كانوا من قبل في مرتبة أدنى منه بكثير، والميل إلى محاولة الارتقاء إلى مستواهم وهو نتيجة تكاد تكون آلية لكافة أنواع الانحطاط). كنا نسير ذات يوم مع سوان في أحد شوارع كومبريه، ووجد مسيو فانتوى نفسه فجأة أمامنا، وهو خارج من شارع آخر، ولم تسع الوقت لكي يتجنبنا. ولا يرى رجل المجتمع المتكبر المحسن، عندما تتحلل كل آرائه الأخلاقية المسبقة عن فضيحة الآخرين إلا سبيلًا للعطف عليهم، ويدغدغ التعبير عن هذا العطف كبرياء من يديه، كلما أحس بقيمته عند من يبذل له. لذا، تحدث سوان طويلا إلى مسيو فانتوى، وكان لا يوجه الكلام إليه من قبل، وطلب منه، قبل أن نترق، أن يرسل ابنته يوماً لتلعب في تونسوتفيل. ولو أن هذه الدعوة وجهت إليه قبل ذلك بعامين، لأفادت غضبه. لكنها الآن تملؤه بالشعور بالامتنان، لدرجة أنه ظن أنه مضطر إلى رفضها، لكي لا يكون متطفلا. كانت حفاوة سوان بابنته تبدو له، في حد ذاتها، سنداً مشرفاً ومتمماً لدرجة أنه رأى من الأفضل ألا يستخذه، يشعر بمتعة الاحتفاظ به، وهي أطلاطونية محبة. وقال لنا :

— «يا له من رجل لطيف ! يا له من رجل لطيف ! من سوء الحظ أنه عقد هذه الزيجة التي لا تليق به» عندما ابتعد سوان عنا بنفس التيجيل المحمسن الذي يجعل البورجوازيات الجحيلات الذكيات يحترمن الدوقات، حتى لو كن قبيحات حمقوات، ويسحرن بهن. وعندئذ، لأن أصدق الناس فيهم شيء من النفاق، ولأنهم يكشفون وهم يتحللون إلى شخص ما عن رأيهم فيه، ويعبرون عن هذا الرأي حاملًا يذهب، ابدي والذي كما أبدى مسيو فانتوى أسفها على عقد سوان هذه الزيجة، باسم مبادئ وتقاليد (لأنهما يذكرانها بالاشتراك معه، باعتبارهما أناساً على شاكلته) تظاهرا بعدم مخالفة أحد لهما في مونجوفان. لم يرسل مسيو فانتوى ابنته عند سوان. وكان هذا الأخير أول من ندّم على ذلك، لأنه كان يتذكر، في كل مرة يفارق فيها مسيو فانتوى، أنه يريد من فترة أن يسأله عن شخص يحمل نفس الاسم، هو أحد أقاربه، فيا ظن .

وفي هذه المرة ، كان قد اعترم ألا ينسى ما يريد قوله لـمسيو فانثري ، عندما يرسل ابنته إلى تونس وتقييل .

وبما أن التزهة ناحية ميزجليز كانت أقصر التزهتين اللتان تقوم بهما حول كومبريه ، كنا نبقيا للوقت الذي يكون فيه الجو مشكوكاً فيه ، لأن الجو ناحية ميزجليز كان ممطراً إلى حد ما . ولم يرغب عن أنظارنا أبداً طرف غابات روسافيل التي يمكن أن نخشى بكثافتها .

وكثيراً ما كانت الشمس تخفي خلف سحابة تشوه شكلها البضاوي ، وتصبغ هي حافتها باللون الأصفر . كان البريق ، لا النور ، يحطف من الريف ، حيث تبدو الحياة معلقة ، بينما ترسم قرية روسافيل الصغيرة في السماء بروز أضلاعها البيضاء ، بدقة وإتقان بالغين . وكان الهواء القليل يرفع غراباً يسقط بعيداً ، وكانت الغابات البعيدة تبدو أكثر زرقة في السماء الملبسة ، ومرسومة بتلك الألوان المتدرجة التي تزين دعائم السواكف في المنازل القديمة .

وفي مرات أخرى ، كان يسقط المطر الذي هدّدنا به تمال الراهب الذي وضعه النظارات في فريضة عمله . كانت قطرات الماء تطير كلها في وقت واحد ، كالطيور المهاجرة ، وتسقط من السماء في صفوف متلاحقة متلاصقة . كانت لا تفرق ، ولا تسير على غير هدئ في رحلتها السريعة . كانت كل واحدة منها تبقى في مكانها وتجذب إليها القطرة التي تليها ، وكانت السماء تظلم لسقوطها أكثر مما تظلم عندما ترحل الخطاطيف . عندئذ ، كنا نلجأ إلى الغابة . وعندما تنتهي رحلة القطرات فيها يبدو ، تصل قطرات أخرى أبداً وأضعف منها . لكننا كنا نخرج من ملجئنا ، لأن القطرات تسعد بالأوراق — وكانت الأرض قد جفت تقريباً — وتظل أكثر من واحدة منها تلتصق ، وتلعب على عروق ورقة ، وتتملق بطرفها ، وترتاح ، وتلمع في السماء ، وفجأة ، تدع نفسها تنزل من أعلى الغصن ، وتسقط على أنفنا .

وكثيراً ما كنا نخشى أيضاً من المطر بنائيل القديسين والبطاركة الموجودة في سقف مدخل سان أنثريه ديشون . كم كانت هذه الكنيسة فرنسية الطابع ! فوق الباب ، ومشاهد كل القديسين ، وللملوك للفرسان اللذين يسكنون بزهرة الزئبق في أيديهم ، ومشاهد الأفراح والمآتم ، وصور كل هذا كما يمكن أن تصوره فرانسواز . وكان المثال قد روى أيضاً بعض اللعنات عن أرسطو وفريجيل ، بنفس الطريقة التي تتحدث بها فرانسواز في المطبخ طواحة عن القديس لويس ، كأنها قد عرفت شخصياً . فعادة ما كانت تفعل ذلك لكي ينجعل جدى وجلى اللذان يقلان عنه حلقة ، إذا ما قورنا به . وكان المرء يشعر أن مفهوم فنان المصور الوسطى وفلاحة المصور الوسطى ( الذي بقي حتى القرن

التامع عشر ) للتاريخ القديم أو التاريخ المسيحي ، وهو مفهوم يتميز بقلتر مساو من السلاجة وعدم الدقة ، مستمد لا من الكتب ، وإنما من روايات قديمة وحديثة في آن واحد ، شفوية ، ومشوهة ، وحية ، ولم تنقطع ، لا يمكن التعرف عليها بسهولة . وكانت هناك شخصية أخرى من كوميديه ، افترض الفنان وجودها وتنبأ به ، وتعرفت عليها في نحت الكنيسة النوطى ، وأقصد بها الفتى تيودور الذى يعمل عند كامو . كانت فرانسواز تشعر أنه من بلدها وعصرها بحيث كانت تطلب من تيودور أن يساعدها ، عندما تعرض غنى للدرجة تعجز معها عن ثقلها في الفراش بمفردها أو نقلها إلى مقعدها بدلا من أن تجعل الخادمة تصعد لكي تنظر إليها غنى « بعين الرضا » ، كان هذا الفتى الذى اشتهر بفساده غن وجه حق ، ممتلئاً بالروح التى زينت سان أنلريه ديشون ، وبصفة خاصة بمشاعر الاحترام التى ترى فرانسواز أنها واجبة نحو « المرضى المساكين » ، و « سيدتها المسكينة » ، إلى حد يجعله يرفع رأس غنى من فوق ومساعدتها ، بوجه برئ متحمس كوجه الملائكة المنحوتة في الحجر التى تتراحم والشموع في أيديها حول العلواء الخائفة القوى ، وكان الوجود الرمادية المارحة المنحوتة في الحجر ، والشبيهة بالخشب في الشتاء ، لم تكن سوى إشارة شمس ، واحتياطي مستعد للزهرار في الحياة في وجوه شعبية لا تحصى ، وجوه محترمة وماكرة كوجه تيودور ، لونها حرة التفاحة الناضجة . وكانت قدسية ممثلة الوجه ، لم تلتصق على الحجر كالملائكة الصغيرة ، وإنما انفصلت عن المدخل ، أكبر حجماً من حجم الإنسان . كانت تقف على قاعدة تبدو كالمضلة ، وتقفها من وضع قلميها على الأرض للرطوبة . كان صدرها المتعاسك يرفع ثوبها كمنقود ناضج في كيس من اللباد ، كان جينها ضيقاً ، وأفضها قصيراً متمرداً ، ومقلتها غائرتهن ، وشكلها صحيحاً شجاعاً عديم الإحساس كشكل فلاحات المنطقة . وثبتت هذا الشبه ، للذى بحث في المثال رقة لم يبحث عنها فيه ، فتاة في الحقول جاءت تبحث عن ملجأ مثلاً ، وكان وجودها كوجود أوراق العشب التى نبتت بجوار الأوراق المنحوتة ، يشهد على صدق العمل للفتى ، بمواجهته بالطبيعة . وأماناً ، بعيداً ، الأرض الملعونة أو الموعودة ، روسانفيل التى لم أدخل بين جدرانها أبداً ، روسانفيل التى كانت تظل خاضعة لرماع للماصفة التى تصفع بميل منازل سكانها ، وكان العقاب قد كتب عليها كقرية من قرى التوراه ، بعد أن يكون المطر قد توقف عن السقوط بالنسبة لنا . وأحياناً ، كان الله يفرها ، ويترل عليها السيقان الذهبية المهدبة لشمسه التى عادت إلى الظهور ، سيقان اخلفت أطوالها ، كأنها أشعة معرض للقرنان المقدس .



أحياناً ، كان الجو يسوء تماماً ، ويتحتم علينا أن نعود ونظل محبوسين في المنزل . وكانت تلمع ، هنا وهناك ، بعيداً ، في الحقول التي تجملها الظلمة الرطبة شبيهة بالبحر ، بيوت متفرقة معلقة في جانب تل غارق في الليل والماء ، كأنها مراكب صغيرة طوت فلاعها وظلت واقفة لا تتحرك في عرض البحر طوال الليل . لكن ، ما أهمية المطر ، وما أهمية العاصمة ؟ ! فحالة الجو السيئة في الصيف ليست سوى نزوة سطحية عابرة للجو الجميل الثابت للكامن تحتها ، وهو مختلف تماماً عن الجو الجميل الذي لا يستقر في الشتاء . فراءه ، بعكس هذا الأخير ، يستقر على الأرض التي تجمد عليها في شكل أوراق كثيفة ، يمكن أن يسقط عليها المطر قطراته بدون أن يؤثر في مقاومة فرحتها الدائمة ، ويرفع طوال الفصل كله ، فوق جدران المنازل والحدائق ، بل وفي شوارع القرية ، راياته الحريرية البنفسجية أو البيضاء . كنت وأنا جالس في الصالون الصغير ، انتظر ساعة العشاء وأنا أقرأ ، أسمع قطرات الماء تسقط من أشجار الكستناء في حديقتنا ، لكنني كنت أعلم أن السيل سيلعب أوراقها فقط ، وأنها تعد بأن تبقى هنا ، كضمان للصيف ، طوال الليلة المطيرة ، وتضمن استمرار الجو الجميل ، وأن أوراقاً عديدة صغيرة على شكل قلب ستموج غداً فوق سياج تونسونفيل الأبيض ، مهما أمطرت السماء . وبلون أن أشعر بالحنن أيضاً ، كنت أسمع في عمق الحديقة هديل آخر قصيف للرعد في أشجار الليلك .

وعندما كان يتضح أن حالة الجو سيئة ، منذ الصباح ، كان والدي يصرفان النظر عن التزهم ، ولا أخرج بالتالي . لكنني اعتدت بعد ذلك الذهاب ناحية ميزجلير لافينوز في تلك الأيام ، والسير وحدي ، في فصل الخريف الذي اضطرتنا فيه إلى الهجوع إلى كومبريه من أجل تركة العملة ليوني ، لأنها ماتت أخيراً ، وحقت النصر في آن واحد للذين كانوا يزعمون أن الريجيم الذي تبناه يفضله وسيقتلها في النهاية ، والآخريين الذين أكدوا دائماً أنها تعاني ، لامن مرض وهمي ، وإنما من مرض عضوي ، وأن من يشكون في ذلك سيضطرون إلى التسليم به عندما يقضى عليها ، وأن شخصاً واحداً فقط سيشتعل بالأم بالغ لوتها . في الخمسة عشر يوماً التي مرضت فيها عني أخيراً ، لم تفارقها فرانسواز لحظة واحدة ، ولم تخلع ملابسها ، ولم تلدح أحداً يعنى بها ، ولم تفارق جسدها إلا عندما وورى التراب . عتدله ، فهمنا أن هذا النوع من الخوف للذي عاشت فيه فرانسواز ، الخوف من كلام عني الخفاف ، وشكوكها وغضبها نبي فيها إحساس اعتقدنا أنه إحساس بالكرهية ، بينما كان في الواقع حباً وتبجيلاً . رحلت سينتها الحقيقية ، ورحلت معها

إقراراتها التي يستحيل التنبؤ بها ، وحيلها التي يصعب إحباطها ، ورحل قلبها الطيب للذي تسمل لإماته ، رحلت مليكتها الغامضة القديرة . ولم تكن نسوى إلا للتقليل بالقياس إليها . لكم كان بعيداً الزمان الذي حظيتا فيه ، في نظر فرانسواز ، بنفس الاحترام الذي تحظى به عمي ، عندما بدأنا نأتي إلى كومبريه لقضاء الأجازة . وفي ذلك الحريف ، كان والدي مشغولين تماماً باتمام الإجراءات ، والحديث مع كتاب العدل والمزارعين ، ولم يكن لديهما وقت يخرجان فيه ، فضلاً عن أن الحو كان يماكسهما . لذلك ، اعتادا أن يتركانني أذهب إلى التزهة بلونهما ناحية ميزجلير ، وأنا ملتحف بغطاء كبير يحميني من المطر ، أضعه بارتياح على كتفي ، لاسياً أنني كنت أشعر أن خطو له ومربعاته تثير استنكار فرانسواز . وكان من المستحيل أن يدخل أحد في ذهني انعدام العلاقة بين لون الملابس والحداد . فضلاً عن أن حزننا على موت عمي لم يعجبها إلا قليلاً ، لأننا لم نقم وليمة جنازية كبرى ، ولم نعمل إلى نبرة صوت خاصة ونحن نتحدث عنها ، لأنني كنت أدندن أحياناً . وأنا متأكد أنني ، لو وجدت في كتاب — وكنت في ذلك شبيهاً بفرانسواز — هذا المفهوم للحداد ، في « ملحمة رولان » مثلاً أو صورة سان أندريه ديشون ، لتعاطفت معه . لكن ، حالما كانت فرانسواز تقف بجوارى ، كان الشيطان يدفعني إلى أن أتمنى أن تثور ، وأتلوح بأقل حجة لكي أقول لها أنني حزين على عمي لأنها كانت امرأة طيبة ، رغم حيوبها ، لا لأنها عمي قط ، وإن كان يمكن أن تكون عمي وتبدو لي بغيضة ولا يثير موتها أى حزن في ، وهذه عبارات كانت ستبدو لي حقماً لو وجلسنا في كتاب .

وإذا اعتلرت فرانسواز ، وقد امتلأت كأحد للشعراء بموجة من الأفكار المهمة عن الحزن وذكريات الأسرة ، لأنها تعرف كيف ترد على نظرياتي ، وقالت : « لا أحسن التصبر عن نفسي » ، انتصرت لهذا الاعتراف بحكمة ساخرة خشنة تليق بالذكور برسبييه . وإذا أضافت : « لقد كانت على أية حال من الأقارب ، واحترام الأقارب واجب علينا دائماً » ، كنت أهر كفتي وأقول لنفسي : « ماذا دعا في حتى أتناقص مع إنسانة أمية ترتكب مثل هذه الأخطاء ؟ » وهكذا كنت أتنبئ ، للحكم على فرانسواز ، وجهة النظر الحقيمة التي يبنها أولئك الذين يستطيعون أداء دور من يحقرهم أشد الاحترار ، بتفكير محايد ، عندما يملون مشهداً مبتذلاً من مشاهد الحياة .

كانت نزهتي في ذلك الحريف محبة إلى نفسي لأنني أقوم بها بعد ساعات طوال قضيتها مع الكتاب . كنت أخرج ، بعد أن أضع الغطاء على كتفي ، بعد أن أتمتعني للفترة طوال فترة الصباح في القاعة . وكان جسدي ، للذي أجبر على أن يظل بلا حراك

فترة طويلة ، لكنه شحن وهو في مكانه بالحياة والمرعة الترابين ، يحتاج بعد ذلك إلى ترفيقهما في كافة الاتجاهات ، كالنحلة التي يطلق لها العنان . وكان كل من جدران المنازل ، وسياج تونسوتفيل ، وأشجار غابة روسانفيل ، والشجيرات التي يستند إليها مونجوفان ، يتلقون ضربات عصا أو مظلة ، ويسمعون صرخات فرحة لم تكن ، سواء تماق الأمر بهذه أم تعلق بذلك ، سوى أفكاراً غامضة تثير نفسه ، ولم تبلغ الراحة في النور ، لأنها فضلت على الإيضاح الصعب البطيء ، متعة الانحراف السهل نحو مخرج مباشر . وهكذا ، لا تعمل أغلب الترجمات للزخومة لما نحس به إلا تخليصاً منه ، بانخراجه منا في شكل غير مميز لا يعلمنا كيف نصرفه . وعندما أحاول أن أحصى ما أدين به لناعية ميزجلير ، والاكتشافات المتواضعة التي كانت إطاراً حابراً لها أو أوحى بها حتماً ، أذكر أنه استرعى انتباهي لأول مرة ، في ذلك الخريف ، خلال واحدة من هذه الترهات ، بالقرب من المنحدر ذي الأشواك الذي يحمي مونجوفان ، عدم التوافق بين انطباعاتنا والتعبير المعتاد عنها . وبعد ساعة من الرياح والمطر اللذان كافحتهما يفرح ، وصنت إلى شاطئ بركة مونجوفان ، أمام كوخ صغير مغطى بالقرميد يضع فيه بستانق مسيو فاتتوي أدواته ، عندما عاودت الشمس الظهور ، وكان ذهباً الذي غسله السيل يلعب جديداً في السماء ، وفوق الأشجار ، وجدار الكوخ وسقفه الذي لا يزال مبتلاً وتنتزه دجاجة أعلاه . كانت الرياح التي تهب تجذب بطريقة أفقية الحشائش البرية التي نبتت بجوار الحدار وريش للدجاجة . وكانت الحشائش وكان الريش يسلمون أنفسهم لهبوبها الذي يحركهم كيفما يشاء حتى أقصى طول لهم ، كأنهم أشياء جامدة خفيفة . وكان سقف القرميد يرسم في البركة التي جعلتها الشمس تلمع كالمرآة ، بقعا وردية لم تسترع انتباهي قبل ذلك أبداً . وإذا رأيت على صفحة المياه وواجهة الحدار ابتسامة شاحبة ترد على ابتسامة السماء ، صحت بكل حماس وأنا أشهر مطلق المطوية : « طظ ! طظ ! » لكنني أحسست في الوقت نفسه أن من واجبي ألا أكتفى بهذه الكلمات الممتعة ، وأن أحاول أن تكون رأيي أكثر وضوحاً .

وفي تلك اللحظة أيضاً — بفضل فلاح كان يمر ، ويبدو منحرف المزاج إلى حد ما ، وازداد مزاجه انحرافاً — عندما أوشك أن يتلقى مطلق في وجهه ، ورد بفقر على قولي : « الجو جميل ، أليس كذلك ؟ وللمشي أجمل — » عرفت أن نفس الانفعالات لا تولد في وقت واحد ، بترتيب وضع سلفاً عند كل الناس ، وفيها بعد ، في كل مرة كانت للقراءة لفترة طويلة إلى حد ما تغطي أميل إلى الحديث ، كان الزميل الذي انخرق شوقاً

إلى مخاطبة قد استسلم لثوه لثمة الحديث ، ويريد الآن أن يترك وشأنه ، ويقرأ . وإذا فكرت لتوى في والدى بحب ، وانغذت قرارات يمكن أن تسعدك سعادة بالغة ، يكونا قد استغلا نفس اللحظة لمعرفة هفوة نسبها ، ويلومونى بشدة عليها في الدقيقة التي انطلق فيها نحوهما لتقبلهما .

وأحياناً ، كان يضاف إلى الحماس الذي تبعه في الوحدة ، حماس آخر لم أعرف كيف أفرق بينه وبين الأول بوضوح ، حماس ناشئ عن رغبتي في أن تظهر أمامي فجأة فلاحه أستطيع أن أحضنها . وكانت اللثة التي تصاحبه تولد فجأة ، بدون أن يتسع لي الوقت لإرجاعها إلى سببها بالضبط ، بين أفكار متباعدة للغاية ، ولا تبدو إلا كدرجة عليا من اللثة التي تبعها في تلك الأفكار . وكنت أعطى مزيداً من القيمة لكل ما كان في ذهني في تلك اللحظة ، ظل سقف القرميد الوردى ، والحشائش البرية ، وقرية روسانفيل حيث كنت أريد اللهاب من زمن طويل ، وأشجار غابتها ، وبرج أجراس كنيسها . وكان الانفعال الجديد يزيد من رغبتي فيها فقط ، فما يبدو ، لأنني كنت أظن أن هذه الأشياء هي التي تثيره ، وأنه لا يريد إلا حمل إليها بأقصى سرعة ، عندما يبعث في شراعي نسمة قوية ، مجهولة ، مناسبة . وإذا كانت رغبتي في ظهور امرأة تضيف إلى بحر الطبيعة في نظري شيئاً أكثر إثارة للنفس ، فإن بحر الطبيعة كان يوسع بدوره ما قد يكون في بحر المرأة من ضيق بالغ . كان يميل إلى أن جمال الأشجار هو جمالها ، وأن قلبها مستسلم لروح هذه الآفاق ، وقرية روسانفيل ، والكتب التي قرأتها هذا العام . وإذا كان خيالي يسترد قواه لاتصاله بحصى الجسدي ، وإذا كان حصى ينتشر في كل مجالات خيالي ، فإن رغبتي كانت بلا حدود . ويرجع ذلك أيضاً إلى أن — كما يحدث في اللحظات التي نحلم فيها وسط الطبيعة ، ونؤمن فيها ، لأن تأثير العادة ملق ، ومفهومنا المحدد للأشياء قد وضع جانباً ، إيماناً عميقاً بالابتكار ، والحياة الفردية للمكان الذي نوجد فيه — للمرة التي تنادينا رغبتي ليست ، فما أرى ، نسخة عادية من النموذج العام للمرأة ، وإنما نتاج ضروري وطبيعي لهذه الأرض . ففي تلك الفترة ، كان كل شيء سواء ، الأرض والكائنات ، يبدو لي أقيم ، وأهم ، وحياً حقاً أكثر مما يبدو للباقي . كنت لا أفضل المخلوقات عن الأرض . كنت راغباً في فلاحه من ميزجيز أو روسانفيل ، أو صيادة من بليك ، كما كنت راغباً في ميزجيز أو بليك . ولو أنني غيرت كما أشاء ، ظروف اللثة التي يمكن أن تبعثها في ليدت لي أقل صدقاً ولما آمنت بها . أن أعرف في باريس صيادة من بليك أو فلاحه من ميزجيز ، كان

معناه أن أُلقي قواقع لم أرها على الشاطئ، أو شجرة فوجير لم أجعلها في الغابة، كان معناه أن أحذف من المتعة التي ستمنعها، لى المرأة كل المتع التي أحاطها بها خيالى . لكن ، أن أهيى هكذا على وجهى في غابات روسافيل ، بلا فلاحه أحضنها ، كان معناه جهلى بالكثرة المختبئة في هذه الغابات ، وجمالها العميق . كانت هذه المرأة التي لا أراها إلا غارقة في أوراق الشجر ، في نظرى ، أشبه بنبات على من نوع أرقى من الأنواع الأخرى فقط ، وتسمح بنيتها بالإقتراب أكثر من ملاقى الوطن العميق، كان من السهل أن أومن بذلك (وبأن القبلات التي ستوصلنى بها إلى تلك المتعة ستكون أيضاً من نوع خاص ، وما كنت لأحس بها لوجعات من امرأة غيرها ) ، لا سيما أنى كنت — وظللت لفترة طويلة — في السن التي يتجرد فيها المرء من متعة امتلاك النسوة المختلفات اللاتي تلوقها معهن ، ولا يحولها إلى فكرة عامة يجعله يعتبرهن ، من الآن فصاعداً ، ادواتاً قابلة للتبادل لمتعة لا تتغير أبداً . هذه المتعة غير موجودة ، وهى متعصبة ، منفردة ، أو واضحة في اللحن ، كهدف تسعى إليه ونحن نقرب من المرأة ، وسبب للاضطراب المسبق الذى نشعر به . ولأنكاد نفكر فيها باعتبارها متعة ستكون لنا ، بل نقول بالأحرى أنها بحر نفسها ، لأننا لا نفكر في ذاتها ، بل نفكر في شيء واحد : الخروج من ذاتنا . ولأننا نتظرها باهتمام ، ولأنها متأصلة ومختبئة فينا ، تبلغ الذروة بالمتع الأخرى التي تبشها فينا النظرات الحلوة ، وقبالات المرأة التي يجانبنا ، في اللحظة التي تولد فيها ، بحيث تبدو لنا خاصة كنوع من فورة امتناننا لطيبة قلب رفيقتنا وإثارتها المؤثر لنا ، الذي نقيسه بالنعم والسعادة التي نغمرنا بها .

وأسفاه ؟ عينا توصلت إلى برج روسافيل ، وطلبت منه أن يحضر لى طفلا من قريته ، باعتباره الصديق الوحيد الذى إلتصقته على رغباتى الأولى ، عندما كنت لا أرى ، في أعلا منزلنا فى كومبريه ، في حجرة المكتب الصغيرة التي شاعت فيها رائحة السوسن ، إلا برجه وسط زجاج النافذة المنفرجة ، بينما كنت ، يحذونى تردد المسافر البطولى الذى يقوم باستكشاف أو اليأس الذى تخور قواه ويتحجر ، أشق في نفسى طريقاً مجهولاً ظننته زائلاً ، حتى اللحظة التي أضيف فيها أثر طيى كائر القوقعة إلى أوراق الوشة البرية التي مالت حتى وصلت إلى . عينا توصلت إلى البرج الآن . عينا كنت أجدبه ، وأنا أسلك بالملى في مجالى البصرى ، بنظرأتى التي تريد أن تعود منه بامرأة . كنت أستطيع الذهاب حتى مدخل سان أندريه ديشون . ولم أجد عنده أبداً الفلاحه التي كنت سألتقى بها حتماً ، لو كنت مع جدى ، ويستحيل أن أجتاذب معها أطراف الحديث.

وثبت نظري إلى ما لا نهاية على جذع شجرة بعيدة، ستظهر ورامعا فجأة وتأتي إلى .  
! لكن الأفق الذي كنت أسير أغواره ظل فارغاً . وصبحي الليل . وتعلق انتباهي بلا أمل  
! بهذه الأرض العاقرة ، هذه الأرض المجهدة ، كأنه يريد أن يمتص المخلوقات التي يمكن  
أن تخفيها . كنت أضرب أشجار غابة روسانفيل وأنا مدغوغ بالغضب ، لا الفرح ، ولم  
تخرج من بينها كائنات حية ، بل بدت كأنها رسمت على لوحة بانورامية . لم أستطع  
الاستسلام للعودة إلى المنزل قبل تقبيل المرأة التي رغب فيها إلى هذا الحد . ومع ذلك ،  
كنت مضطراً إلى السير في الطريق المؤدى إلى كومبريه ، وأنا أعترف لنفسى بأن احتمال  
لقائى بها بالصدفة في الطريق يقل تدريجياً . وهل أجرو على الحديث معها إذا وجدتها  
! في الطريق؟ وخيل إلى أنها قد تجربني مجنوناً . وزال اعتقادي أن كائنات أخرى تشاركني  
الرغبات التي تولد في أثناء هذه التزهات ، رغبات لم تتحقق ، ولم تعد تبدو لي إلا  
كاختراع ذاتي بحث ، ووهي ، لزاجي . لم يعد هناك رباط بينها وبين الطبيعة ، بينها  
وبين الواقع ، الذي فقد منذ هذه اللحظة ، كل ما فيه من سحر ومعنى ، ولم يعد سوى  
إطاراً تقليدياً لحياتي شأن شأن عربة القطار التي يترك المسافر على مقعدها الرواية التي  
يقرأها ليقتل الوقت .

وعن إحساس غامض تملكني أيضاً بالقرب من مونجوفان ، بعد ذلك ببضع سنوات ،  
نشأت الفكرة التي كونتها عن الصادبة . وسوف يتضح بعد ذلك ، ولأسباب مختلفة  
تماماً ، أن ذكرى هذا الإحساس لعبت دوراً هاماً في حياتي . حدث ذلك في يوم حار  
للغاية . كان والدي قد اضطر إلى الغياب طول النهار ، وقالوا لي أنه يمكن أن أعود إلى  
البيت متأخراً ما شئت . وبما أنني كنت قد ذهبت حتى بركة مونجوفان ، حيث أردت  
أن أرى مرة أخرى ظلال سقف القرميد ، تمددت في الظل ، ونمت بين شجيرات المنحدر  
المطل على المنزل ، حيث انتظرت أبي فيما مضى ، يوم أن ذهب لزيارة مسيو فانتوى .  
وكان الليل قد حل تقريباً عندما استيقظت . وأردت أن أنهض ، لكنني رأيت أمامي  
الآنسة فانتوى ( بالقدر الذي استطعت أن أعرف به أنها هي ، لأنني لم أرها كثيراً في  
كومبريه ، وعندما كانت طفلة فقط ، في حين أصبحت الآن شابة ) التي عادت لتوها ،  
بلا شك ، رأيها على بعد بضعة سنتيمترات مني ، في تلك الغرفة التي استقبل فيها والديها  
والدي ، وحولتها هي إلى صالون صغير : كانت للنافذة مواربة ، وكان المصباح مضاء ؛  
ورأيت كل حركاتها بدون أن تراقب ، وكان رحيل سيجعل للشجيرات تطلق ، وتسمعي  
بالتالي ، وتظن أنني اختبأت هنا لمراقبتها .

١ كانت ترتدى ملابس الحلداء ، لأن والدتها ماتت من أزمة قلبية . ولم تكن قد ذهبت لزيارتها ، لأن والدتي لم ترغب في ذلك ، نظراً لصفة وحيدة محمد من آثار طبيعتها ، إلا وهي الحياة ، لكنها رثت لحالها رثاء عميقاً . كانت أوى تذكر آخر أيام مسيو فانتوى الحزينة ، إلى قصصها أولاً في العناية بابتنته كالأم أو الخادمة ، ثم الآلام التي سببها له تلك الالبته . وترى مرة أخرى وجه المعجوز المذنب في آخر أيام حياته ، وتعلم أنه صرف النظر نهائياً عن تبييض ما انجزه من أعمال في السنوات الأخيرة ، وهي مقطوعات بائسة لمدرس بيانو عجوز ، وعازف قديم في القرية . كنا نتصور أن لا قيمة لها في حد ذاتها ، لكننا لا ننقل من شأنها ، لأن عدداً كبيراً منها كان غاية في الحياة ، قبل أن يضحى به من أجل ابنته ، وكان أغلب هذه الأعمال غير مدون ، واحتفظ فانتوى به في ذاكرته فقط ، وكان البعض الآخر مدوناً في أوراق مبعثرة لا تقرأ ، تستظل بجهولة . وفكرت أوى في التنازل الآخر ، وتفوق قسوته قسوة ذلك التنازل الذي أجبر عليه مسيو فانتوى ، تنازله عن التفكير في مستقبل سعيد ، شريف لإبنته . وعندما كانت تذكر الشقاء البالغ الذي عاشه مدرس البيانو ، الذي أعطى دروساً في الموسيقى لعاق فيا مضى ، كانت تشعر بحزن حقيقي ، وتفكر وهي خائفة في الحزن الذي تشعر به الآتسة فانتوى الآن ، بلا شك ، إذ يخطط بنيتها على قتل أبيها ، تقريباً . كانت أوى تقول : « مسكين مسيو فانتوى ، لقد عاش ومات من أجل ابنته ، ولم يلق أجراً ، فهل يتلقاه بعد موته ، وكيف لا يمكن أن يأتيه إلا منها » .

كانت الآتسة فانتوى قد وضعت في طرف الصالون ، على المدفأة ، صورة صغيرة لأبيها . ذهبت وأنت بها بسرعة عندما سمعت صوت سيارة قادمة على الطريق . واستلقت فوق أريكة ، وجذبت إليها منضدة صغيرة وضعت عليها الصورة ، كما وضع مسيو فانتوى فيا مضى إلى جواره المقطوعة الموسيقية التي كان يريد أن يعزفها لوالدتي . ودخلت صديقتهما بعد قليل ، واستقبلتا الآتسة فانتوى بدون أن نهض ، وهي تضع يديها خلف رأسها ، وتراجعت إلى الطرف الآخر من الأريكة لتفصح لها مكاناً . لكن ، سرعان ما أحست أنها ، إذ تفعل ، تبدو كأنها تفرض عليها وضعا قد يضايقها ، ورأت أن صديقتهما قد تفضل الجلوس بعيداً عنها على كرسي ، وأنها متعطلة ، وقلق قلبها الرقيق لذلك . فعادت وتمددت على الأريكة ، وأغمضت عينها ، وأخلت تنناب لتثبت أن النعاس كان الداعي الوحيد لتلجأ على هذا النحو . ورغم الألفة الخشنة المسيطرة التي بينها وبين صديقتها ، تعرفت على حركات والدتها المتحفظة الحاملة ، وتلقيقه المفاجئ .

ووقفت بعد قليل ، وتظاهرت بأنها تريد أن تغلق النافذة ، ولم تتوصل إلى ذلك . فقالت لها صديقتها :

— « اتركي كل النوافذ مفتوحة ، فأنا أشعر بالحر » .

وردت عليها الآتسة فانتوى بقولها :

— « سيكون ذلك مزعجاً ، سيرانا الناس » !

لكنها أهدست بلاكك أن صديقتها ستظن أنها لم تقل هذه الكلمات إلا لكي تستغفها وترد عليها بكلمات أخرى تريد بالفعل أن تسمعها ، وترك لها ميادرة انطق بها ، بدافع الاحتشام . لذا ، اغتلت نظرتها التي لا أستطيع أن أتنبأها ، بلاكك ، ذلك التعبير الذي كان يعجب جنني كثيراً ، عندما قالت بلهجة حادة :

— « وعندما أقول يرانا الناس ، أقصد يروننا ونحن نقرأ . إنه لأمر مزعج ، أن يكون المرء نبهة للعيون ، مهما كانت تفاهة ما يفعله » .

وبكرم غريزي وأدب لا إرادى ، كتمت الكلمات التي سبق أن فكرت فيها ورأت أنها ضرورية لتحقيق رغبها تحقيقاً كاملاً . في كل لحظة ، كانت العذراء الحجيولة المتوسلة التي في أعماقها تنضرع إلى إنسان فظ متصنر وتحمله على التراجع . وقالت صديقتها بسخرية :

— « نعم يحتمل أن يرانا أحد في هذه الساعة ، في هذه المنطقة الريفية الآهلة بالسكان » . وأضافت : « وما العيب في ذلك ؟ ( وظنت أن عليها أن ترفق غمرة عين خبيثة حنون بهذه الكلمات التي ألقها وكأنها نص تعرف أنه يعجب الآتسة فانتوى ، بنبرة حاولت جاهدة أن تجعلها ساخرة ) ، حتى لو رآنا أحد ، فسيكون ذلك أفضل » .

ارتجفت الآتسة فانتوى ونهضت . وكان قلبها الحساس يجهل الكلمات التي تتلاهم تلقائياً مع المشهد الذي تطالب به حواسها . كانت تبحث ، في مكان بعيد ما أمكن ، عن طبيعتها المعنوية الحقيقية ، عن لغة الفتاة الفاسدة التي تريد أن تكونها ، لكن الكلمات التي كانت تعتقد أن تلك الفتاة قد تنطق بها في صديق ، كانت تبدو لها كاذبة على لسانها . والقليل الذي كانت تسمح لنفسها بقوله كان يقال بلهجة مفتعلة تشل بها عاداتها الحجيولة



رغبتها الجريئة المترددة ، وتقطع عبارات مثل : « ألا تشعرين بالبرد ، ألا تشعرين بالحر ، ألا تريدان أن تكوني بمفردك وتقرئي ؟ » وانتهى بها الأمر إلى أن تقول :

— وبخيل إلى أن أفكار الآتسة شهوانية للغاية هذا المساء ؟

ولا شك أنها كانت تستعيد بقولها هذا عبارة سبق أن جرت على لسان صديقتها .

أحست الآتسة فانتوى أن صديقتها طبعت قبلة على صدرها ، عند تقوية ثوبها الكريب ، فصدرت عنها صرخة خافتة ، وأفلتت من صاحبها ، ولا حقت كل منهما الأخرى وهي تففز ، وترك أقدام ثوبها الواسعة تطير كالأجنحة ، وأخذت الاثنان تهمهان كطائرين عاشقين ، وفي نهاية المطاف ، ارتحت الآتسة فانتوى على الأريكة ، وغطاها جسد صديقتها . لكن هذه الأخيرة كانت تدبر ظهرها للعائلة الصغيرة التي وضعت عليها صورة مدرس الموسيقى السابق . وأدركت الآتسة فانتوى أن صديقتها لن تراها ، إلا إذا لفتت نظرها إليها . فقالت لها ، كأنها لم تلاحظ ذلك من قبل :

— « أوه ! صورة أبي تنظر إلينا ! لا أدري من استطاع أن يضعها هنا ، مع إنني قاتمة ذرة إن هذا ليس مكانها » !

وعلى ما أذكر ، هذه الكلمات هي التي قالها مسيو فانتوى لأبي عن المقطوعة الموسيقية . ولا شك أن الفتاتين كانتا تستخدمان هذه الصورة عادة لاثباتك الحركات ، لأن صديقة الآتسة فانتوى ردت بكلمات كانت بلاشك جزءاً من ردودهما الطقوسية :

— « دعها حيث هي ، لم يعد صاحبها هنا ليضايقنا ! أتظنين أن هذا القرد القبيح كان يبكي ، ويود أن يلبسك معطفك ، لو رآك هنا ، والنافذة مفتوحة ؟ »

ردت الآتسة فانتوى بكلمات عتاب رقيقة : « دعينا من هنا ، دعينا من هنا ! » ثم عن طبيعتها الطيبة ، ولم تملها عليها ثورتها على الحديث عن أبيها بهذه الطريقة ( بطبيعة الحال ، كانت قد اعتادت كتمان هذا الاحساس في نفسها — بأى منطق معكوس — ؟ — في مثل هذه اللحظات ) ، قالتها لأنها بمثابة فرملة تضعها بنفسها أمام المتعة التي تحاول صديقتها أن تمنحها لها : لكي لا تبدو أنانية . ثم إن هدومها الباسم وهي ترد على هذا السباب ، وهذا العتاب المناق الحنون ، كان يبدو لطيفتها الصريحة الطيبة كشكل فاضح ، ولطيف ظاهرياً ، للفسق الذي تحاول أن تشبه به ، لكنها لم تستطع مقاومة جاذبية المتعة التي تشعر بها إذا عاملها برقة شخص يقسو إلى هذا الحد على ميت لا حول له

ولا قوة . ففترت الآتسة فانتوى، وجلس على حجر صديقها ، وأعطتها جبينها لتطبع عليه قبلة عفيفة كما لو كانت ابنتها ، وأحست الاثنان عندئذ بللة بلوغهما بالقسوة أبعد المدى ، عندما جردتا مسيو فانتوى من أبوته ، حتى وهو في القبر . أخذت صديقها رأسها بين يديها ، وطبعت على جبينها قبلة ، بملك الانقياد اللين الذى كان ييسر كل من حبها الشديد للآتسة فانتوى ، ورغبها في إدخال شيء من التسلية في حياة هذه الفتاة اليتيمة . ولكم كانت حياتها حزينة الآن ! وقالت وهي تأخذ الصورة :

— « هل تعرفين ما أريد أن أفعله بهذا الشيء البغيض ؟ »

وهمست في أذن الآتسة فانتوى بشيء لم أتمكن من سماعه .

— « اوه ! لن تجرؤى على فعل ذلك ؟ »

— « لن أجروا على البصق عليه ؟ على هذا ؟ » قالت الصديقة هذا بلهجة خشنة مقصودة .

ولم أسمع المزيد ، لأن الآتسة فانتوى أغلقت النافذة بطريقة متعبة وخرقاء ، شريفة وحزينة . وعرفت الآن الأجر الذى تلقاه مسيو فانتوى من ابنته ، بعد مجامته مقابل ألوان العذاب التى تحملها في حياتها من أجلها .

رأيت مع ذلك ، منذ ذلك الحين ، أنه لو حضر مسيو فانتوى هذا المشهد ، لما فقد إيمانه بطيبة قلب ابنته ، بل لما أخطأ تماماً في اعتقاده هذا . كان مظهر الشر في عادات الآتسة فانتوى ، بطبيعة الحال ، واضحاً بحيث يتميز وجوده بهذه الدرجة من الكمال إلا عند الصاديين . ويمكن أن نرى الابنة تطلب من صديقها أن تبصق على صورة أبها الذى لم يعيش إلا من أجلها تحت أضواء مسرح البولفار ، لا في ضوء مصباح في بيت رينى حقيقى . والصادية فقط هى التى تعطى أساساً لحمايات الميله دراما ، في الحياة . أما في الواقع ، ففيها عدا حالات الصادية ، قد تقصر الابنة تقصيرا قاسيا كتقصير الآتسة فانتوى في حق ذكرى والدها المتوفى ورغباته ، لكنها لن تلخصه صراحة في فعل بهذه الرمزية البسيطة الساذجة . وقد يكون ما في سلوكها من إجرام أكثر تسرا في نظر الآخرين ، بل وفي نظرها هى التى تفعل الشر بدون أن تعترف به لنفسها ولا شك أن الشر في نفس الآتسة فانتوى ، لم يكن بلا شوائب ، وراء المظهر ، في البداية على الأقل . فالشخص الصادى يتفنن في الشر ، وهذا ما لا يقدر عليه الإنسان الشرير ، لأن للشر لن يكون خارجا ، وقد يبدو له طبيعيا جدا ، بل قد لا يتميز عنه .

ولن تستمتع الآتية فانتوى بتدليس القضية، وذكرى الموتى، وحب الأبناء للآباء لأنها لن تؤمن بهم . فالصاديون أمثالهم أناس عاطفين ، فاضلين بطبيعتهم لدرجة تجعلهم ينظرون حتى إلى المتعة الحسية على أنها شيء سيء وميزة تمنح للأشرار . وإذا تنازلوا وأسلموا أنفسهم لما لحظة ، حاولوا أن يتقمصوا أدوار الشر ، وأن يجعلوا شركاءهم يتقمصونها ، وهكذا يتوهمون لحظة أنهم هربوا من روحهم القلقة الخنونة ، في عالم المتعة اللا إنساني . وأدركت إلى أى مدى كانت ترغب في ذلك ، عندما رأيت إلى أى مدى يستحيل عليها النجاح فيه . ففي اللحظة التي أرادت فيها أن تكون مختلفة عن والدها ، ذكرني بطريقة مدرس البيانو المعجوز في الضكير والكلام . أكثر من صورته ، كان ما تدنسه ، وما تسخره لخدمة متعتها وبطل بينها وبين تلك المتعة ويعتمها من تدوقها مباشرة ، هو الشبه بين وجهها وعينيها الزرقاوين ووجه وعيني أمه هو الذي نقلهم إليها كجوهرة يتوارثها أفراد الأسرة ، وهذه الحركات الرقيقة التي تضع بينها وبين خطيئتها أسلوبا وعقيلة لا تناسب تلك الخطيئة ، وتمنعها من أن تعرفها كشئ مختلف تماما عن واجبات المحاكمة التي تهب نفسها لما عادة . لم يكن الشر الذي يوحى إليها بفكرة المتعة هو الذي يبدو محببا إليها ، بل كانت المتعة هي التي تبدو لها خيئة . وكانت تصاحبها في كل مرة تستسلم لها فيها ، تلك الأفكار الفاسدة التي تغيب عن روحها الفاضلة بقية الوقت وكانت ، في النهاية ، تجد في المتعة شيئا شيطانيا ، وتساوى بينها وبين الشر . وربما أحست الآتية فانتوى أن صاحبها ليست فاسدة في أعماقها ، وأنها لم تكن صادقة عندما نطقت بهذه الشتائم . لكنها إستمتعت على الأقل عندما رأت على وجه صديقتها إبتسامات ونظرات—ربما كانت زائفة!—تعادل بتعبيرها عن الرذيلة وانحطاطها تلك التي يمكن أن تصدر عن إنسان يتمم بالقسوة والميل إلى المتعة ، لا إنسان يتمم بالطيبة والميل إلى الألم . وكان يمكن أن تتخيل لحظة أنها تلعب حقا تلك الألعاب التي يمكن أن تلعبها مع شريكة فاسدة كصديقتها ، أبنة أحست بالفعل بهذه الأحاسيس البربرية تجاه ذكرى أبيها . ولو أنها تبينت في نفسها ، كما تبين في الجميع ، للامبالاة بالألم الذي نسبه للآخرين ، وهو شكل القسوة الدائم المروع ، أيا كانت الأسماء الأخرى التي تعطى له ، لما رأت أن الشر حالة نادرة بعيدة ، خارقة للعادة ، يرتاح المرء للهجرة إليها .

ولو كان الذهاب ناحية ميزجيز سهلا إلى حد ما ، فإن الذهاب ناحية جرمونت كان شيئا آخر ، لأن النزهة كانت طويلة ، ولأننا كنا نسعى إلى التأكد من حالة الجو .

فمنما كنا نلخل في سلسلة من الأيام الصحو ، فيما يبدو ، كانت فرانسواز تأس لعدم سقوط قطرة ماء من أجل « المحاصيل المسكينة » ولا ترى إلا سحبا بيضاء نادرة تسبح على سطح السماء الساكنة الزرقاء ، وتصرخ قائلة وهي تئن : « كأننا نرى كلاب البحر لا أكثر ولا أقل ، تلعب فوقنا وترينا أفواهها آآه إلا يفكر أحد في سقوط المطر من أجل المزارعين المساكين ! وعندما يثبت القمح ، سيسقط المطر ولن ينقطع ، ولن يدري على أي شيء يسقط ، كأنه يسقط في البحر . وعندما كان أبي يتلقى ، بطريقة لا تتغير أبدا ، ردود البستاني والبارومتر المطمئنة ، كنا نقول ساعة العشاء : « إذا ظل الجو على هذا الحال سنذهب غدا ناحية جرموت » . كنا نخرج بعد الإفطار مباشرة من باب الحديقة الصغير ، ونجد أنفسنا في شارع يرشون ، وهو شارع ضيق يزاوية حادة مليء بالنجيليات التي يقضي النهار بينها زنبوران أو ثلاثة . كان ذلك الشارع غريبا مثل اسمه الذي اشتقت منه ، فيما يبدو ، خواصه الغريبة وشخصيته الخشنة ، وعينا نحاول أن نتحدث عنها في كومبريه اليوم ، حيث ترتفع المدرسة فوق تخطيط المدينة القديم ، لكن حلمي ( وهكذا حال أولئك المعارين الذين تلمذوا على يدي فيولييه ليدوق ، فهم يعيدون المبنى كله إلى ما كان عليه في القرن الثاني عشر ، لأنهم يعتقدون أنهم سيجدون خورسا رومانيا تحت منبر يرجع إلى عصر النهضة ، وهيكل يرجع إلى القرن السابع عشر) لا يترك حجرا من المبنى الجديد ، ويشق شارع يرشون من جديد ، ويعيده إلى ما كان عليه . فضلا عن أن لديه — بالنسبة لهذا الترميم — معطيات أدق من تلك التي نجدها عادة عند المرممين : صورا احتفظت بها ذاكرتي ، وربما كانت آخر صور توجد حاليا ، وستمحي عما قريب ، لما كانت عليه كومبريه أيام طفولتي . ولأن كومبريه نفسها هي التي رسمتها في نفسي قبل أن تزول ، فهي مؤثرة — إذا أمكن مقارنة هذه الصور المجهولة باللوحات الشهيرة التي كانت جلتني تحب أن تعطيني صورا لها — كالصور القديمة للعشاء الأخير ، أو اللوحة التي رسمها ج . بليني ، ونرى فيها لوحة دافنشي الرائعة أو باب سان مارك ، في حالة لا وجود لها اليوم .

كنا نمر في شارع لوازو أمام فندق لوازو القديم ، الذي دخلت فناءه الكبير في القرن السابع عشر حربات الدوقة دي مونبونسييه ، ودي جرمونت ، ودي مونوردنسي عندما أتيت إلى كومبريه بسبب نزاع بينين وبين المزارعين أو موضوع يتعلق بالولاء . كنا نصل إلى الممر الذي تظهر بين أشجاره أبراج أنجراس سانت هيلير . كنت أود أن أجلس في هذا المكان ، وأقرأ طول النهار ، وأنا أسمع الأجراس ، فالجو كان جميلا

هادئا ، لدرجة أن الساعة كانت تبدو ، عندما تدق ، لا كأنها تقطع سكون النهار وإنما كأنها تخلصه مما يحتويه ، وأن برج الأجراس كان يعجل — لكن يسقط القطرات الذهبية القليلة التي جمعها الحرفيه جمعا طبيعيا بطيئا — بنفض الصمت ، في الوقت المناسب ، بانقباض شخص متكاسل جاد ، ما عليه إلا أن يفعل ذلك .

يكن أكبر صحر ناحية جرمونت في وجود مجرى الفيون بجوار المرء طول الوقت تقريبا . كنا نعب الرعة مرة أولى ، بعد مغادرة المنزل بعشر دقائق فوق جسر يقال له الجسر العتيق . وفي اليوم التالي لوصولنا ، أى يوم عيد الفصح ، بعد الوعط ، كنت أسرع إلى هذا المكان ، إذا كان الجو جميلا ، لأرى في فوضى الصباح ، صباح يوم العيد الكبير ، الأدوات المنزلية المبعثرة وقد بدت أقلد أمام الاستعدادات الفخمة ، وأرى الرعة تنتزه وقد إنخلت لونا أزرقا ساويا بين الأراضي التي لا تزال عارية سوداء ، ولا ترافقها إلا مجموعة من طيور الوقواق التي وصلت مبكرة ، وزهور الربيع التي جاءت قبل موعدها ، بينما يميل ساق زهرة بنفج زرقاء القم تحت ثقل قطرة العطر التي يجثوها قمعها . وكان الجسر العتيق يقضى إلى ملق تجر منه المراكب بالحبال . وكان الملق يبطن في الصيف بأوراق شجرة جوز زرقاء اللون ، غرس تحتها صياد بلبس قبة من اللصوص . وفي كومبريه حيث كنت أعرف شخصية الحداد ، أو صبي البقال التي تحقت تحت زى الحاجب أو رداء صبي مذبح الكنيسة ، كان هذا الصياد الشخص الوحيد الذي لم أكتشف هويته أبدا . وكان يعرف والذي بلا شك ، لأنه كان يرفع قبعة محييا كلما مررنا به . كنت أريد عندئذ أن أسأله عن اسمه ، لكنهم كانوا يشيرون إلى بالصمت لكنى لا يخاف السمك . كنا نسير في الملق الذي يطل على مجرى الرعة من منحدر يرتفع عدة أقدام . وكان الشاطئ منخفضا في الجانب الآخر ، ويمتد إلى الحقول الواسعة حتى القرية والحطة التي تبعد عنها . وثرت في الحقول بقايا قصر نبلاء كومبريه — الدين كانوا يعملون لقب «كونت» التي غاص نصفها في الحشائش . وكان هؤلاء النبلاء يتحدثون في العصور الوسطى من مجرى اليمون في هذا الجانب خط دفاع ضد هجمات سادة جرمونت وقساوسة مارتيميل ، ولم تكن بقايا القصر سوى بصعة اجزاء من أبراج تحلب المرعى ترى بالكاد ، وبصعة شرافات كان الرماة يلقون منها الحجارة فيما مضى ، ويرافب منها الحارس نوفيون ، وكليز فونتين ، ومارتفيل لي ميك ، وبايوليسكون ، وكلها اراضى كانت مقطوعة لسادة جرمونت ، وحصرت كومبريه بينها ، واصبحت اليوم بمستوى الحشائش ، ويسيطر عليها تلاميذ مدرسة القرير الذين يحضرون هنا لاستكمال دروسهم

أو اللعب أثناء الفسحة — ماضى يكاد يكون قد نزل في الأرض ، ورقد على الشاطئ كن يتزده ويبحث عن النسمة العليقة ، لكنه يدعوني إلى كثير من التفكير ، ويجعلني أضيف إلى اسم كرميره ، والمدينة الصغيرة التي تحمله اليوم مدينة مختلفة للغاية ، تستوقف أفكارى بوجهها الغابر الذي لا يفهم وتخفيه إلى منتصفه تحت البراعم النخيلية . وكانت البراعم كثيرة جدا في هذا المكان الذي أختارته للعب في الحشائش ، زرافات ووحدا ، بلونها الأصفر بصفار البيض ولمعائها ، لاسيا أنني كنت — هكذا خيل إلى — لعجزي عن الإنحراف إلى أية محاولة لتذوق المتعة التي تبعها في رؤيتها ، أكلت تلك المتعة في مساحتها الذهبية إلى أن تقوى ، وتستطيع أن تنتج جمالا لا جدوى منه . وحدث ذلك منذ نعومة أظفاري عندما كنت أمد يدي إليها وأنا في المذق ، ولا أستطيع أن أنطق بأسمائها كاملة ، وهي أسماء مأخوذة عن أسماء أمراء الحكايات الفرنسية ، وربما جاءوا من آسيا من قرون عديدة واستقروا في القرية إلى الأبد راضين بأفقه للتواضع ، يحين للشمس والشاطئ ، مخلصين لمنظر المحطة ، واحتفظوا مع ذلك ببريق شرقي شاعري ، شأنهم شأن لوحاتنا القديمة وبساطها الشعبية .

كنت ألغو بالنظر إلى الأباريق التي يضعها الصبية في الفيون لصيد الأسماك الصغيرة ، وكانت الرعة تملؤها وتحيط بها في وقت واحد ، أي أنها كانت «حايوة» ذات جوانب شفافة كالماء المجد ، ومحتوى غاص في حاوية أكبر من البلور السائل الجارى . وكانت الأباريق تذكر صورة الإلتعاش بطريقة ألد وأكثر إثارة مما لو كانت قد وضعت على مائدة الطعام ، ولا تبيها إلا هاربة في هذا الجناس الدائم بين الماء الذي لا قوام له ولا تستطيع اليد أن تلتقطه ، والزجاج المنعدم السيولة الذي لا يستطيع التمسك أن يستسيغه وهو فيه . ووعدت النفس بالعودة إلى هذا المكان فيما بعد ومعى سنابير . ووافق الصبية على إعطائي شيئا من الخبز كانوا يحتفظون به وللتنصير به وألقيت كرات صغيرة منه في الفيون ، كانت كافية فيما يبدو لإيجاد ظاهرة التشبع المفرط لأن الماء كان يتجمد حول الكرات في الحال مكرنا عقائد بوضوئية الشكل من الضفادع الصغيرة الجائعة ، التي ظلت في حالة تحلل حتى هذه اللحظة ، بلا شك ، لا ترى ، وتوشك أن تلبور .

وسرعان ما تسد مجرى الفيون نباتات مائية ، بعضها منفرد ، كذلك النيلوفر الذي لا يدع له التيار الذي وضع فيه بطريقة خاطئة إلا قليلا من الراحة . كان كاندلية التي تعمل آليا ، لا يرسو على بر إلا لكي يعود إلى البر الذي جاء منه ، ويقوم بعملية العبور الخروجة هذه إلى الأبد . وكانت ساقه للصغيرة تتمدد عندما

يدفع إلى الشاطئ ، وتطول ، وتجري ، وتبلغ أقصى حد لامتدادها حتى الشاطئ حيث يتلفقها التيار ثانية. وكانت الحبال الخضراء تنطوى على نفسها ، وتعيد النبات المسكين إلى ما يمكن أن نسميه نقطة انطلاقه ، لا سيما أنه كان لا يبتنى عندها لحظة ، بل يعود ويكرر المناورة . كنت أجد هذا النبات في نفس الوضع دائماً ، بين نزهة وأخرى ، وكان يذكرني ببعض المصابين بالإجهاد العصبي ، وكان جدى يعتبر العمة ليوفى واحدة منهم ، اللذين يقدمون لنا ، على مر السنين ، بلا أدنى تغيير ، مشهد العادات الغريبة التى يعتقدون فى كل مرة أنهم يوشكون على التخلص منها ، ويحفظون بها دائماً . ولأنهم وقعوا فى دوامة قلقهم وعاداتهم المستهجنة ، لا تنتهى الجهود التى يتخطون فيها بلا جدوى ليتخلصوا منها ، إلا إلى ضمان تشغيل الجهاز الذى يحركها ويقذفها بطريقة حتمية غريبة . هكذا كان هذا النيلوفر ، شيئاً بواحد من أولئك البؤساء الذى كان قلقهم الفريد المتكرر إلى ما لا نهاية ، يثير فضول دانتى . وربما طلب هذا الأخير من المقلب نفسه أن يروى له باستفاضة خواص ذلك القلق وسببه ، لولا أن فيرجيل الذى ابتعد عنه بخطى واسمة أجبره على اللحاق به ، بأسرع ما يمكن ، كما حدث لى مع والدى .

لكن التيار يبطئ بعد ذلك ، ويعبر ضيقة فتحها مالكها للجمهور . وكان قد حلا لهذا المالك أن يزرع زهوراً مائية ، مما أوجد فى البرك الصغيرة التى تكونها القيقون ، حداائق حقيقية تملؤها زهور النيلوفر . وبما أن شاطئ الرعة كانا كبيرى الغابات فى هذا المكان ، كانت ظلال الأشجار الكبيرة تغطي الماء عمقاً لونه أخضر قائم عادة ، لكن عندها كنا نعود أحياناً فى بعض الأمسيات الصافية إثر فترة بعد ظهر عاصفة ، كنت أجد أن لونه قد تحول إلى الأزرق الفاتح الصاوخ المائل إلى البنفسجى ، أزرق مجزع الشكل ويأبأنى اللوق . وكانت زهرة النيلوفر الارجوانية القلب ، ذات الحواف البيضاء ، تحمر كحبة القراولة هنا وهناك ، عند السطح . وفى مكان أبعد من هذا ، كانت الأزهار تزداد عدداً ، وتصبح أكثر شجوباً ، وتحبباً ، وتثنيًا ، وأقل نموة . وكانت الصدفية قد رتبها فى التماثلات جميلة ، لدرجة أن العين تخال أن وروداً رغوية حلت أكاليها تطفو وتتحرف ، كما يحدث عندما تنساقط أوراق العيد الحزينة الواحدة تلو الأخرى . وفى مكان آخر ، خصص فيها يبدو ، ركن للأشواغ العادية التى يظهر فيها اللونان الأبيض والوردى النقيان ، وتتميز هما الخضمر . بعد ذلك ، كانت زهور البنسيه تتراحم ، وتكون حواشى

عائمة حقاً ، جاءت وحطت أجنحتها الباردة المائلة للزرق ، كأنها الفراشات ، على ميل هذه الأرضية المائية الشفاف ، وهي أرضية سماوية أيضاً : فلقد كانت تعطي للزهور تربة لونها أقيم وأكثر إثارة من لون الزهور ذاتها . وسواء جعلت ، في فترة بعد الظهر ، مشكال السعادة اليقظة ، الصامتة ، المتحركة ، يلعب تحت النبلوفر ، أو امتلأت في المساء ، كاللبناء البعيدة ، بلون الغروب الوردى وحلمه ، وظل يتغير ليبيق ، حول التويجات ذات الألوان الثابتة ، على الانسجام مع أكثر ما في الساعة من عمق وزوال ونحوض ، ولا نهائية ، كانت تبدو وكأنها جعلت الزهور تفتتح في عرض السماء .

وعندما تخرج الفيون من هذا المنتزه ، تعاود الجريان . كم رأيت ، ووددت أن أحاكي ، عندما أصبح حراً في العيش كما أشاء ، شخصاً يجدف ، ويترك الحدايف ، ويستلقي على ظهره ، ورأسه إلى أسفل ، في قاع مركبته ، ويدعها تسبح أينما شاءت ، ولا يستطيع أن يرى إلا السماء التي تمرق ببطء فوقه ، ويحمل على وجهه إحساساً يني بالسلام .

كنا نجلس بين السومين على شاطئ للترعة . وكانت صحابة لا عمل لها تسلك طويلاً في السماء العاطلة . وأحياناً ، كان الملل يقهر سمكة الشبوط ، فتخرج من الماء ويصدر عنها شيق قلبي . حانت ساعة وجبة بعد الظهر الخفيفة . كنا ، قبل أن نرحل ، نقضي فترة طويلة نأكل خلالها الفاكهة ، والخبز ، والشيكولاتة ، على الحداثش ، حيث كانت تصل إلينا ، أفقية ضعيفة ، لكنها لا تزال معدنية كثيفة ، أصوات أجراس سانت هيلير التي لم تختلط بالهواء الذي عبرته من مدة طويلة ، وترتشم وهي تمر فوق الزهور تحت أقدامنا ، وقد ضلعتها نبض خطوطها الرنانة المتتالي .

وكنا ناتي أحياناً ، على شاطئ المياه التي تحيط بها الغابات ، ببيت منزل ، ضائع ، لا يرى من العالم شيئاً إلا التربة التي تسبح فيها دعائمه . وقفت امرأة شابة لا يتدى وجهها المأمل وغطاء رأسها الأنيق إلى هذا البلد ، ولا شك أنها جاءت « نندفن نفسها هنا » ، كما يقال بالعامية ، وتتلوق المتعة المرة التي تجعلها تشعر أن اسمها ، وبصفة خاصة اسم الشخص الذي لم تستطع الاحتفاظ بقلبه ، مجهول فيه ، وقفت في إطار للنافذة التي لا ترى منها مكاناً أبعد من المركب الراسية بالقرب من



الباب . كانت ترفع حينئذ شاردتين عندما تسمع صوت المارة ، خلف أشجار الشاطئ . وكانت متأكدة ، حتى قبل أن تلمح وجوههم ، إنهم لم يعرفوا الخافن أبداً ، وإن يعرفوه ، وأن ما من شيء في ماضيهم احتفظ بآثر له ، وأن ما من شيء في مستقبلهم سيتيح لهم فرصة تلقى ذلك الأثر . كان المرء يشعر أنها تركت وغادرت بمحض إرادتها أما كان كان يمكن أن تلمح فيها من تحب ، على الأقل ، وجاءت إلى هذه الأماكن التي لم تره أبداً . كنت أنظر إليها ، وهي عالة من نزهة قامت بها في طريق تعرف سلفاً أنه لن يمر به ، وتخرج يديها المستسلمتين من قفاز طويل صبي الحمال .

لم تتمكن أبداً ، ونحن نتنزه ناحية جرمونت ، من الذهاب إلى المكان الذي تنبع منه الفيغون . وكنت قد فكرت فيه كثيراً ، وكان وجوده في نظري مجرداً مثالياً للدرجة أنني دهشت عندما قيل لي : إنه في المقاطعة ، على مسافة بضعة كيلومترات من كومبريه ، كما دهشت يوم أن علمت أن في العالم نقطة أخرى كانت تفتح عندها أبواب الجحيم ، في قديم الزمان . كذلك ، لم تتمكن أبداً من الوصول إلى الحد الذي طالما تمنيت الوصول إليه ، وأقصده به جرمونت . كنت أعرف أن بعض اللبلاء ، ودوق ودوقة جرمونت يسكنون هذا المكان ، وأعرف أنهم شخصيات حقيقية موجودة حالياً . لكن في كل مرة فكرت فيهم فيها ، تخيلهم إما في لوحة جدارية ، وهكذا كانت الكونتيسة جرمونت في «توبيج استير» في كنيسةنا ، إما مرسومين بألوان متدرجة متغيرة ، وهكذا كان جيلبير لي موفيه في الزجاجية . فلقد كان ينقل من الأخضر الكرمي إلى الأزرق البرقوق ، حسباً إذا كنت تأخذ الماء المقدس أم أصل إلى مقاعدنا ، إما في شكل غير محسوس كما كانت صورة جنيفيف دي بربايون ، التي يمررها الفانوس السحري على ستائر خرقى أو يصعد لها إلى السقف— وكانت هذه الشخصيات تلتحف دائماً بغموض الأزمنة الميروفنجيانية ، وتسيح في النور البرتقالي المتيقن من هذا القطع — «مونت» كما لو كانت في غروب الشمس . وإذا كان دوق ودوقة جرمونت قد ظلوا رغم ذلك ، في نظري ، شخصيتين حقيقيتين ، رغم غرابتهما ، فإن شخصيتهما «للدوقية» كانت تتمدد إلى ما لا نهاية ، وتفقد طابعها للمادى ، لتتمكن من احتواء جرمونت التي كانت دوقاً ودوقة لها ، وكل ناحية جرمونت المشمسة ، ومجرى الفيغون ونيلوفازه وأشجاره الكثيرة ، وعديد من قرأت بعد الظهر الخفيفة . وكنت أعرف لهم لا يحملون لقب دوق ودوقة جرمونت فقط ، بل يحملونها ،

منذ القرن الرابع عشر ، مع سادة كومبريه عن طريق الزواج ، بعد أن حاولوا أن يهزمهم بلا جدوى ، وأصبحوا يحملون لقب كونت دى كومبريه ، وأصبحوا بالتالى أول مواطنى كومبريه ، مع أنهم الوحيدين الذين لا يسكنون فيها . أصبحوا يحملون لقب كونت دى كومبريه ، وأصبح هذا الاسم مثالا فى أسماهم ، وشخصتهم ، ولا شك أن كان فيهم بالفعل ذلك الحزن الغريب الورع الذى اقتص به كومبريه . أصبحوا يملكون المدينة ، ولا يملكون بيتاً خاصاً ، ويسكنون خارجها بلا شك ، فى الشارع ، بين السماء والأرض ، مثل جيلبير لى موفيه ، الذى لم أكن أرى ، فى زجاجيات صدر كنيسة سانت هيلير سوى ظهره المصبوغ بالاك الأسود ، إذا رفعت رأيتى وأنا ذاهب لإحضار بعض الملح من عند كامر .

حدث بعد ذلك أفنى مررت أحياناً ، فى ناحية جرمونت ، أمام بعض الضياع الصغيرة المسورة الرطبة ، حيث تتصاعد أزهار قائمة اللون . وتوقفت ، ظناً منى أننى أكتسب فكرة قيمة ، عندما خيل لى أن أمام عيني جزء من تلك المنطقة النهرية التى تمتعت كثيراً أن أعرفها ، منذ أن وصفها أحد كتابي المفضلين . وتطابقت جرمونت معها ، ومع أرضها الخيالية التى تعبرها مجارى مائية تظلى ، عندما تغير شكلها فى ذهني ، وسمعت الدكتور برسييه يحدثنا عن الزهور والمياه الجميلة الحية التى توجد فى حديقة القصر . وحلمت أن منام دى جرمونت طلبت منى الذهاب إليه ، إثر نزوة عابرة . كانت تصطاد السمك طول اليوم معى . وفى الماء ، تمسك بيدي ، وهى مارة أمام حقائق اتباعها الصغيرة ، وتشير على الحدران الواطئة ، لى الزهور التى تسند عليها مغازلها البنفسجية والحمراء ، وتعلمنى أسماءها . كانت تطلب منى أن أحدثها عن موضوعات القصائد التى أنوى تأليفها . وكانت هذه الأحلام تنهينى لى أن الأوان قد آن لكى أعرف ما أنوى أن أكتبه ، ما دمت أريد أن أكون كاتباً يوماً . لكن ، طالما كنت أسمع عن ذلك ، وأحاول أن أجد موضوعاً يمكن أن أضمنه معنى فلسفياً لانهائية له ، كان ذهني يتوقف عن العمل ، ولا أرى إلا الفراغ ، وأشعر أننى أفقر لى العبقريّة ، أو أن مرضاً ذهنياً يحول دون ميلادها . وكنت أعتمد على أبى أحياناً لتسوية الأمر . فلقد كان يتمتع بسلطان وحظوة عند أصحاب المناصب الهامة ، بحيث كان يتوصل لى مخالفتنا للقوانين التى علمتنى فرانسواز اعتبارها حمية أكثر من قوانين الحياة . والموت ، وتأجيل أعمال « بياض » مثلنا حاماً ، دوناً عن منازل الحى كله ، وحصول ابن منام

مميزاره ، الذى يريد أن يذهب للاستشفاء ، على إذن من الوزير بأداء امتحان البكاوريا قبل موعده بشهرين ، ضمن الطلبة الذى تبدأ أسماؤهم بحرف الألف ، بدلا من أن ينتظر دور الطلبة الذى تبدأ أسماؤهم بحرف س . وإذا أصبت بمرض خطير ، أو أمرنى قطاع الطرق ، انتظرت فى هدوء الساعة الحتمية للعودة إلى الواقع ، ساعة الخلاص أو الشفاء ، ليقينى أن والدى متفاهم للغاية مع السلطات العليا ، وأنه يحظى بخطابات توصية لا تقاوم ، موجهة إلى الله ، مما يجعل من مرضى أو أسرى شيئا مختلفا عن الصور الخيالية العابثة التى لإخطار منها على . وربما كان افتقارى إلى العبقرية ، وكانت الهوة السوداء التى تحفر فى ذهنى عندما أبحث عن موضوعات كتاباتى المستقبلية ، مجرد وهم لا أساس له من الصحة ، ميزول نتاجه لتدخل أبى الذى اتفق بلا شك مع الحكومة « العناية الإلهية على أن يكون أول كتاب عصرى . وفى أحيان أخرى ، بينما كان والدى يقلقان لأننى أتخلف عنهما ولا أتبعهما كانت حياتى الحالية لا تبدو لى شيئا صناعيا اخترعه أبى ويوسعه أن يغيره كما يشاء ، بل واقعا لم يجعل لى ، ولا حول ولا قوة لى أمامه ، لا حليف لى فيه ، ولا يحق شيئا وراءه . كان يحيل لى آنذاك أننى موجود بنفس الطريقة التى يوجد بها الآخرون ، وأننى سأبلغ الشيخوخة وأموت مثلهم ، وأننى من أولئك الذين لا يمكن أن أى استعداد للكتابة . لذا ، أصبت باليأس ، وتخلت عن الأدب إلى الأبد ، رغم تشجيع بلوك لى . وكان هذا الإحساس المباشر الحميم بأن فكرى أصبح عدما ، يتغلب على كلمات التفاف التى تجزئ لى ، كما يتغلب تأنيب الضمير فى النفس الشريرة التى يمتدح الجميع أعمالها الطيبة .

و ذات يوم ، قالت لى أمى : « ما دمت لا تكف عن الحديث عن مدام دى جرموت وبما أن الدكتور برسييه عاجلها بتحتاج من أربنة أعوام ، أعلم أنها ستأتى لى كومبريه لتحضر زواج ابنه . وتستطيع عندئذ أن تراه فى الحفل » . وبالفعل ، كان الدكتور برسييه أكثر من الحذيث عن مدام دى جرموت ، بل وأطلعنا على عدد من مجلة مصورة ظهرت فيه بالبدلة التى ارتدتها فى حفلة تنكرية حضرتها عند الأميرة دى ليون .

فجأة ، أثناء قداس الزواج ، سمعت لى معركة صليوت بين حاجب الكنيسة عندما تغير مكانه ، بأن أرى فى إحدى المصليات سيده شقراء ذات أنف كبير ، وهينين زرقاوين حادثين ، ووياط عبق متفخ ، أملس ، لامع ، جديد ، من الحرير

البنفسجى ، وحة صغيرة عند ركن أنفها. ولأننى تينت على مساحة وجهها الخمر كما لو كانت تشع بالخمر ، أجزاء صغيرة ذابت وتكاد لا ترى ، من الشبه بالصورة التى سبق أن رأيتها ، ولأن اللامع الخاصة التى تينتها فيها ، يمكن الإشارة إليها ، إذا حاولت أن أسميها ، بالمبارات الآتية بالذات : أنف كبير ، وعينان زرقاوان ، التى استخدمها الدكتور برسييه عندما وصف النوقة دى جرمونت ، قلت لنفسى : هذه السيدة تشبه مدام دى جرمونت . وكان المصلب الذى تتابع فيه القديس مصلب جيلبير لى موفيه ، حيث يرقد تحت قبوره المسطحة الملهبة المتباعدة كخلايا العسل ، من حملوا لقب كونت دى برايون فيما مضى . وأذكر ، حسب ما قيل لى : إنه كان مخصصاً لأسرة دى جرمونت ، عندما يحضر أحد أفرادها احتفالاً فى كومبريه. لم يكن من الممكن أن توجد اليوم فى هذا المصلب — حيث يجب أن تأتى بالذات — إلا امرأة واحدة تشبه صورة مدام دى جرمونت. كانت هى إذن . كانت خيبة أسمى كبيرة ، وكان مرجعها أننى لم أنتبه أبداً ، عندما كنت أفكر فى مدام دى جرمونت ، إلى أننى أتخيلها بألوان اللوحة الجدارية أو للزجاجية ، فى عصر آخر ، وبطريقة أخرى غير الطريقة التى أتخيل بها الأحياء . لم أنتبه أبداً لى أن وجهها يمكن أن يكون أحمر ، أو لى أنها تلبس رباط عتق بنفسجى مثل مدام سيزاره. وعندما رأيت وجهها البيضاء ، تذكرت بعض الذين رأيتهم فى منزلنا للدرجة أننى بدأت أشك — وسرعان ما تبدد هذا الشك — فى أن هذه السيدة ، من حيث المبدأ الذى أوجدتها وبكل جزئ فيها ، هى النوقة دى جرمونت مادياً ، وفى أن جسدها الذى يجنهل الاسم الذى أعطى له ، ينتمى إلى نوع معين من النساء ، يشتمل على زوجات الأطباء والتجار أيضاً . « هذه هى إذن مدام دى جرمونت ؟ » هكذا قال الوجه المثني المندش الذى تأملت به هذه الصورة ، ولم تكن لها ، بطبيعة الحال ، أية علاقة بالصورة التى تحمل نفس الاسم وظهرت لى مراراً فى أحلامى ، ما دمت لم أرسماها بطريقة تصفية كالأخريات ، بل استوقفت نظرى لأول مرة ، من لحظة فقط ، فى الكنيسة . لم تكن لهذه الصورة طبيعة تلك الصور ، ولم تكن لتقبل أن نلونها كيفما نشاء ، كذلك الصور التى تستسلم للتشيع بلون مقطع يرتقى من كلمة ، بل كانت حبقية لدرجة أن كل شيء فيها ، حتى هذه الحبة الصغيرة التى تشتمل بجوار الأنف ، يؤكد لاستبعاد قوانين الحياة لها ، كما تم ثانياً ثوب الساحرة أو رجة بصرها عن وجود المثلة الحية مادياً ، فى حين كنا نشك فى أن ما تراه العين مجرد عرض ضوئى بحت.

وحاولت ، في الوقت نفسه ، أن أطبق الفكرة الآتية على الصورة الحديثة التي لا تقبل للتغيير ، وثبتتها في رؤيتي الأنف البارز والعينان الثاقبتان ( ربما لأنهم أول من مسها وأوجد فيها أول حر ، في اللحظة الذي لم يتسع لي الوقت فيها لكي أفكر في أن المرأة التي ظهرت أمامي يمكن أن تكون مدام دى جرمونت ) : « إنها مدام دى جرمونت . » ولم أتوصل إلا إلى قيامها بمناورة أمام الصورة ، وكان الإثنيتان اسطوانتان تفصل بينهما مسافة . لكن مدام دى جرمونت التي طالما حلمت بها ، ورأيت الآن أنها موجودة بالفعل لكن خارج نفسي ، زادت من سلطانها على خيالي الذي شل لحظة عندما اتصل بواقع مختلف جداً عما توقعه ، فأخذ يرد ويقول لي : « كان لآل جرمونت الأعياد ، قبل شارلمان ، حق الحياة والموت على أتباعهم ، ودوقة جرمونت تتحدر من جنيفييف دى برابون . وهي لا تعرف ، ولا توافق على أن تعرف أى من الأشخاص الموجودين هنا » .

وبالاستقلال النظرات البشرية الرائع ، نظرات يربطها بالوجه جل طويل مطاط ، لم يشد للدرجة أنها تستطيع أن تروح وتغفو وحدها بعيداً عنه — بينما كانت مدام دى جرمونت تجلس في الصل فوق قبور موتاها ، كانت نظراتها تسكع هنا وهناك ، وتصعد بطول الأعمدة ، بل وتتوقف عندى أنا ، كأنها شعاع من الشمس هام على وجهه في جناح الكنيسة ، لكنه بدا لي واعياً في اللحظة التي تلتقي فيها قبيلته . أما مدام دى جرمونت نفسها ، فظلت بلا حراك ، وجلست كألم لا ترى فيما يبدو الأفعال الخبيثة الماكرة ، والمحاولات المتطفلة التي يقوم بها أولادها الذين يلعبون وينادون أناساً لا تعرفهم ، واستحال على أن أعرف ما إذا كانت توافق على شروذ نظراتها أم تلومه ، في نفسها المتفرغة .

وجدت أنه من المجهول ألا ترحل قبل أن تتمكن من النظر إليها بما فيه الكفاية ، لأنني تذكرت أنني اعتبرت رؤيتها ، لسنوات عديدة ، شيئاً أرغب فيه إلى أقصى حد ، ولم أحول نظري عنها ، كما لو كانت كل نظرة من نظراتي تستطيع أن تأتي مادياً ، وتخزن في نفسها ذكرى أنفها البارز ، ووجعها المحمرتين ، وتلك الخواص التي عيّل إلى أنها معلومات قيمة ، وأصيلة وفريدة عن وجهها . والآن ، بعد أن جعلتني كل الأفكار التي علقها بهذا الوجه أراه جميلاً — وربما كان للدافع إلى ذلك هو رغبتي الدائمة في ألا تشع بخيبة الأمل ، وهي شكل من أشكال الاحتفاظ بأفضل عناصرنا — وأعدت دوقة جرمونت ( ما دامت هي اللوكة التي ذكرتها حتى

الآن) إلى مكان خارج عن بقية البشر، وكانت قد اختلطت بهم لحظة لمجرد رؤيتي  
 جسدتها، أحسست بالضيق عندما قبل حولي: «إنها أجمل من مدام سيزاره،  
 ومدموازيل فانتوى».، وكأنه يمكن أن تقارن بهما. وعندما توقفت نظراتي على  
 شعرها الأشقر، وعينيها الزرقاوين، ورباط عنقها، وأغفلت الملامح التي قد  
 تذكرني بوجوه أخرى، صحت قائلاً أمام هذا الرسم المبدئي الناقص لإرادياً:  
 «يا لجمالها! يا لسموها! إنها حقاً سليلة ج. دي براون، وتنتمي إلى آل جرمونت  
 بغير.». وكان الاهتمام الذي أضىء به وجهها يعزله للدرجة أنه يستحيل على،  
 حتى اليوم، إذا تذكرت هذا الاحتفال، أن أرى شخصاً واحداً ممن حضروه،  
 باستثناء هي والحاجب الذي رد بالإيجاب عندما سأله عما إذا كانت هذه السيدة  
 حقاً مدام دي جرمونت. أما هي، فأراها مرة ثانية، لاسياً عندما مر العرض  
 أمام الموهف الذي تضيئه الشمس إضاءة مقطعة حارة، كما يحدث في الأيام التي  
 تهب فيها الريح وللعاصفة، وتواجبت فيه مدام دي جرمونت وسط سكان كومبريه  
 اللذين تجهل حتى أسماءهم، وتعلن مرتبتهم الأدنى عن مرتبتها الأعلى، بقدر يعتد  
 معه ألا تشعر بالود الصادق نحوهم، وتأمل، علاوة على ذلك، أن توحى إليهم  
 بمزيد من الاحترام، لفطرت طينتها وبساطتها. لذا، لم تتمكن من توجيه تلك النظرات  
 الإرادية المحملة بمعنى محدد التي توجهها لمن تعرفهم، واكتفت بترك أنكارها  
 للشاردة تهرب باستمرار منها، في موجة من النور الأزرق لم تستطع احتواءها،  
 ولا تريد أن تضايق بها أحداً، أو تحترقها يبدو صغار للقوم اللذين تلتق بهم لقاء  
 عابراً، وتصيبهم في كل لحظة. وما زلت أرى، فوق رباط عنقها البنفسجي  
 الأملس المتشقق، دهشة عينيها الخلوة التي أضافت إليهما، بدون أن يجرؤ على أن  
 تخص بها شخصاً معيناً، وبحيث يأخذ الجميع منها نصيبهم، ابتسامة عجيولة إلى  
 حد ما، ابتسامة السيدة الثيلة التي تتظاهر بالاعتذار لأتباعها وتخبهم. وسقطت  
 هذه الابتسامة على، ولم أغض الطرف. وعندئذ، تذكرت تلك النظرة التي ثبتتها  
 على للدوقة أثناء القداس، نظرة زرقاء كشعاع شمس احترق زجاجية جيلبر لي موفيه  
 وقلت: «لا شك أنها مهتمة بي.». وطننتها معجبة بي، وأنها تستظل تفكر في،  
 حتى بعد أن تغادر الكنيسة، وربما شعرت بالحزن بسببي، مساء، في جرمونت.  
 أحببتها في الحال. وإذا كان يكنى أحياناً، لكي تحب امرأة، أن تنظر إلينا باحترار  
 كما فعلت مدموازيل سوران، فما أظن، وفكرنا في أنها لن تكون ملكاً لنا أبداً،  
 قد يكنى أحياناً أيضاً أن تنظر إلينا نظرة طيبة كما فعلت مدام دي جرمونت، وأن

نفكر في أنه يمكن أن تكون لنا . ازرق عيناها كمنافية يستحيل قفطها ، وإن كانت أهدتها في . والشمس التي تهددها بحماية ، لكنها تصب أشعتها بكل قوة على الميدان والموهف ، كانت تعطى لون الجيران يوم للسجاجيد الحمراء التي بسطت في الأرض لهذه المناسبة الخلية ، وتقدمت عليها مدام دى جرمونت وهي تبسم ، وتنصفي على صوفها لوناً مخملياً وردياً ، وبشرة مضببة ، ونوعاً من الحنان والرقه الحادة ، في جو الأبهة والفرح الذي تتميز به بعض صبهحات لوهنجرين ، ولوحات كاربانشيو ، وتجعلنا نفهم كيف استطاع بودليز أن يصف صوت البوق بأذه المديد .

كم بدا لي أكثر من ذي قبل ، منذ ذلك اليوم ، أثناء التزهات التي قمت بها ناحية جرمونت ، أن عدم استعدادي للآداب ، واضطراؤى إلى صرف النظر عن أن أكون كاتباً مشهوراً ، شيء عزن.والكنى الأسمى الذي أحسست به عندئذ ، وأنا أحلم قليلا على انفراد ، في مكان بعيد إلى حد ما ، للدرجة أن ذهني توقف تماماً عن التفكير في الشعر ، والروايات ، والمستقبل الشعارى الذي معنى انقضى إلى الموهبة من الاعتماد عليه ، توقف من تلقاء نفسه ، نتيجة لنوع من الشلل أمام الألم ، كى لا أشعر ولا يشعر بهذا الأسمى . واستوقفنى فجأة سقف ، وانعكاس للشمس على حجر ، أو رائحة الطريق ، وهم يعيدون كل البعد عن المشاغل الأدبية ، ولا يربطهم بها أى شيء ، ومتحوفى متعة خاصة ، استوقفونى لأنهم يخفون أيضاً ، فيما يبدو ، وراء ما أراه ، شيئاً يدعونى إلى أخذه ، ولا أتوصل إلى اكتشافه ، رغم جهودى . وبما أننى كنت أحس أن هذا الشيء موجود فيهم ، وقفت بلا حراك ، انظرًا ، واستشقق وأحاول أن أذهب بفكرى أبعد من الصورة أو الرائحة ، وكنت أسمى إلى الشعور عليهم مرة أخرى ، وأنا أغمض عيني ، إذا اضطرت إلى اللحاق بجهدى ومواصلة السير . كنت أحاول جاهداً أن أتذكر بالفيض خط السقف ، ولون الحجر ، وخيل إلى أنهما ممثلتان ، ومستمدتان للإنتفاخ ، والكشف عما يغطياه ، بنون أن أدرك لذلك سبباً . ولم تكن انطباعات كهذه لتستطيع أن تردى الأمل الذي قدته ، الأمل في أن أكون يوماً كاتباً أو شاعراً ، لأنها كانت ترتبط دائماً بشيء خاص خالى من القيمة الذهنية ، ولا يتعلق بأى حقيقة مجردة . لكنها كانت تولد في ، على الأقل ، متعة لا تتجمل ، والإيهام بنوع من الخصوبة ، وهن ثم ، تملأ من الملل والإحساس بالعجز الذي شرعت بها في كل مرة بحث فيها عن موضوع فلسفى ليعمل أدنى هام . لكن واجب الوعي الذي تفرضه على هذه الانطباعات الخاصة بالشكل واللون والرائحة

ومحاولة الوقوف على ما يتخفى وراءها، كان شاقاً ، بحيث كنت أبادر إلى تلمس الأعداء التي تمكنني من الهرب من هذا الجهد وعدم تكبد هذا العناء . لحسن الحظ ، ناداني والدي ، وشعرت أنني افترقت حالياً إلى الهدوء اللازم لمواصلة السعي مواصلة مفيدة ، وأنه من الأفضل ألا أفكر في الأمر إلى حين عودتي إلى المنزل ، وألا أجهد نفسي سلفاً بلا داع أو نتيجة . لذا ، لم أهتم بهذا الشيء المجهول الذي يلتف حوله شكل أو رائحة وأنا هادئ النفس ، ما دمت أعود به إلى المنزل ، تحمية الصور التي تكسوه ووجدته حياً تحبها ، شأنه شأن السمك الذي عدت به في سبلي ، وغطيته بطبقة من الحشائش ظل بفضلها طازجاً ، يوم أن سمحوا لي بالذهاب للصيد ، وبعد عودتي إلى المنزل ، فكرت في شيء آخر . وهكذا ، تكلس في ذهني ( كما تتكلس في غرفتي الزهور التي قطعتها والأشياء التي أعطيت لي ) حجر يتلاعب به شعاع ، وسقف ، وبرتة جرس ، ورائحة أوراق شجر ، وكثير من الصور المتباينة التي ماتت تحبها ، من مدة طويلة ، الواقع الذي أحسست به ، ولم أتوصل إلى اكتشافه ، لأن الإرادة عازتني .

ومع ذلك ، تملكني ذات يوم إحساس من هذا النوع ، ولم انصرف عنه إلا بعد تعميقه قليلاً : كانت تزهتتا قد تجاوزت مدتها المعتادة بكثير . لذا ، سررنا للغاية عندما التقينا في منتصف الطريق ، بينما كانت فترة بعد الظهر تقرب من نهايتها ، بالدكتور برسييه ، الذي مر مسرعاً في عربة ، وعرفنا ، وجعلنا نركب معه . طلب مني أن أصعد وأجلس بجوار الحوضي ، وانطلقنا كالريح ، لأن الدكتور كان عليه أن يتوقف في مارتنفيل لي سلك ، قبل أن يعود إلى كومبريه ، عند مريض اتفقنا على أن نتنظره أمام بابه . وفي منتصف الطريق ، أحسست فجأة بمتعة خاصة لا تشبه أي متعة أخرى ، عندما رأيت برججي أجرام مارتنفيل التي تطل عليهما الشمس الغاربة ، وغمرت مكانهما حركة عربتنا وتعرجات الطريق ، ثم برج أجرام فيوفيك ، ويفصل بينه وبينهما تل ووادي ، ويقع حل هضبة بعيدة أعلى ، وإن كان يبدو قريباً جداً منهما .

ولذا رأيت ولاحظت شكل سهميهم ، وتغير مكان خطوطهم ، وأشعة الشمس على سطحهم ، شعرت أنني لا أبلغ بانطباعي مداه ، وأن شيئاً لا يمكن وراء هذه الحركة ، وهذا النور ، شيء يحتويه الأبراج وينقيه في آن واحد ، فيما يبدو .

يبدو أن برججي الأجرام كانا بعيدين وأتينا كنا تقرب منهما ببطء ، للدرجة أنني دهشت عندما توقفت أمام كنيسة مارتنفيل ، تبعد ذلك بضع خطوات ، ولم أدرك سبب التمتع الذي أحسست به عندما تحبهما في الأفق ، وتوضح لي أن محاولة اكتشاف هذا السبب



شيء شاق للغاية. كنت أريد أن أحفظ في رأسي هذه الخطوط التي تتحرك في الشمس  
والأفكر فيها الآن. ولو أنني ضللت، لكان من المحتمل أن يلحق برجي الأجراس إلى  
الأبد بكم الأشجار، والأسقف، والروائع، والأصوات، التي ميزتها عما عداها، نظراً  
للمتعة الغامضة التي ولدناها في، ولم أعقها أبداً. ونزلت لأتحدث مع والدي، ونحن  
ننتظر الطيب، ثم عاودنا السير، وعدت إلى مكاني بجوار الحوض، والتفت لأرى  
مرة أخرى برجي الأجراس الذي لخصهما مرة أخيرة بعد ذلك بقليل، عند منعطف أحد  
الطرقات. وكان الحوض لا يميل إلى الكلام، فيما يبدو؛ لذا، رد بالكاد على كلامي،  
واضطرت أن أصاحب نفسي وأحاول أن أتذكر للبرجين، لعدم وجود صاحب.  
وسرعان ما تمزقت خطوطهما وتمزق سطحهما للشمس، كأنه قشرة وظهر في شيء  
كما كان محتباً فيهما. وخطرت لي فكرة لم تخاطر لي في اللحظة السابقة، وتحولت إلى  
كلمات في رأسي، وزادت من المتعة التي بعثها في رؤية للبرجين منذ قليل، للدرجة  
أنني انتشيت ولم أستطع للتفكير في شيء آخر. وفي هذه اللحظة، وبما أننا كنا قد  
ابتعدنا عن مارتفيل، لخصهما مرة أخرى عندما أدت رأسي، وكنا في هذه المرة  
سوادوين لأن الشمس قد غربت. كانت منحنيات الطريق تخفيهما عن نظري أحياناً.  
ثم ظهرا مرة أخرى، وأخيراً، غابا عن الأنظار. ويدون أن أقول لنفسي إن ما كان  
يخبئني وراء أبراج أجراس مارتفيل لا بد وأن يكون شيئاً شديداً بالجملة الجميلة، مادام  
قد ظهر في شكل كلمات امتعني، طلبت من الطيب ورقة وقلم، وألفت هذه القطعة  
الصفيرة التي عثرت عليها فيما بعد، رغم اهتزازات العربة، لأرسل ضمني وأهمل  
لحسامي، ولم أخضعها إلا لتغييرات طفيفة:

« ارتفع في السماء برجي أجراس مارتفيل، وحدهما. أرتفعاً فوق مستوى  
الوادي، كما لو كنا قد ضاعا في الأرض المتبسطة. وسرعان ما رأينا ثلاثة أبراج،  
إذ جاء برج أجراس فيوفيك متأخراً، ولحق بهما، واتخذ لنفسه مكاناً أمامهما بالتقانة  
جريئة. ومرت اللدقات، ومررنا مسرعين. ومع ذلك، ظلت الأبراج الثلاثة بعيدة  
أماناً، كأنها ثلاثة طيور حطت في الوادي، وهي بلا حراك. وتراها العين في الشمس.  
ثم ابتعد برج أجراس فيوفيك، وصارت بينه وبينهما مسافة، وظل برجي أجراس  
مارتفيل وحدهما، يضيئهما نور الغروب الذي أراه يلعب ويلبس عند منحدراتهما.  
كنا قد استغرقنا وقتاً طويلاً لكن تقرب منهما. لذا، أخذت أفكر في الوقت اللازم  
للوصول إليهما. وفجأة انعطفت العربة، ووجدنا أنفسنا تحتهما: كلنا قد ألقيا بنفسيهما

أمامها ، بطريقة مفاجئة للدرجة أننا توقفتنا قبل أن نصطدم بالمدخل بالحظة واحدة فقط .  
 واصلنا السير ، وكنا قد غادرنا مارتيفيل منذ قليل ، واختفت القرية بعد أن رافقتنا  
 بضع ثوان ، عندما أخذ برجى أجراسها وبرج فيوفيك ، الذين ظلوا وحيدين في الأفق  
 ينظرون إلينا ونحن نبتعد ، ويلوحون بقممهم المشمسة ليقولوا لنا وداعاً . وأحياناً ،  
 كان أحدهم يبتعد ، ليتمكن الاثنان الآخران من رؤيتنا لحظة أخرى . لكن الطريق  
 غير اتجاهه ، فداروا في الضوء كأنهم ثلاث مدارات ذهبية ، وغابوا عن نظري ،  
 وعندما اقتربنا من كومبريه ، بعد ذلك بقليل ، وكانت الشمس قد غربت ، ختمهم  
 مرة أخيرة من بعيد ، وكانوا مجرد زهور ثلاثة رسمت في السماء فوق خط الحقول  
 المنخفض ، مما جعلني أفكر في ثلاث فتيات تقول الأسطورة أنهن ضلوا في مكان  
 حل فيه الظلام . وبينما كنا نبتعد ، رأيهم يتحسنون طريقهم بجمل . وبعد أن تشر  
 ظلهم النثيل تشرأأ أخرق ، رأيهم يضمون صفوفهم ، ويتراق أحدهم وراء الآخر ،  
 ولا يكونون في السماء التي لا تزال وردية سوى شكلوا واحداً ، أسوداً ، ساحراً ، مستسلماً ،  
 ويغيبون في الليل .

لم أعاود التفكير أبداً في هذه الصفحة ، لكنني كنت سعيداً للغاية عندما انتهت  
 من كتابتها ، وأنا جالس في ركن المقعد الذي يضع فيه حوذى الطيب عادة سلة الطيور  
 التي اشتراها من سوق مارتيفيل ، وأحسست أنها خطبتي تماماً من أبراج الأجرام  
 هذه . وما تخفيه وراءها ، كما لو كنت دجاجة وضعت لتوها بيضة وأخذت تغني بصوت  
 عال .

استطعت خلال هذه التزهات أن أحلم طول اليوم بالمتعة التي قد أشعر بها إذا أصبحت  
 صديقاً لبوقة جرمونت ، واصطدت السمك ، وتزهت في مركب في القفون .  
 ولتعتشي إلى السعادة ، لم أطلب من الحياة في هذه اللحظات إلا أن تكون سلسلة من أيام  
 بعد الظهر السعيدة . لكن قلبي أخذ يدق فجأة ، عندما لحقت على الهمار ونحن في طريق  
 العودة ، مزرعة بعيدة إلى حد ما عن مزرعتين متقاربتين جداً ، ولم يكن عليتنا ، لكني  
 نلتحل كومبريه من المكان الذي تقع فيه هذه المزرعة ، إلا أن نملك عمراً من شجر  
 البلوط تحفه من جانبي مروج كل واحد منها ملك لـيستبان صغير ، وزرعت فيها ، على  
 مسافات متساوية ، أشجار تفاح تنقل إلها . رسم ظلاله الياباني ، إذا أعادتها الشمس  
 الغاربة . كنت أعلم أننا سنكون في منزلنا بعد نصف ساعة تقريباً ، فهانئاً سأل سالي إلى

غرفة النوم حالما انتهى من شرب الحساء، كما يحدث في الأيام التي تذهب فيها ناحية جرمونت، وتناول فيها وجبة العشاء في ساعة متأخرة. لن تصدق أبداً إن تقول لي « تصبح على خير » وأنا في السرير، وستضطر إلى البقاء في غرفة الطعام كما لو كان عندنا ضيوف على العشاء. وكانت منطقة الحزن التي دخلت فيها لتوى غتلفة عن المنطقة التي انطلقت فيها وأنا فرح، من لحظة، وهكذا يفصل في بعض السموات شريط وردي عن شريط أخضر أو أسود. يرى طائر في اللون الوردي، ويوشك أن يصل إلى آخره، ويكاد يمس اللون الأسود، ثم يدخل فيه. وكنت الآن خارج الرغبات التي أحاطت بي منذ قليل، رغبة الذهاب إلى جرمونت، والسفر، والسعادة، للدرجة أن إشباعها لن يولد في أية متعة. ولكم كنت أتمنى أن استبدل بكل هذا إمكانية البكاء طول الليل بين ذراعي أمي الرنجفت، ولم أبعد عيني القلقتين عن وجه أمي التي لن تظهر في الغرفة هذا المساء، حيث كنت أرى نفسي بُعين الخيال، وتمتيت للموت. كان يمكن أن يستمر هذا الحال حتى الغد، حتى تسند أشعة الصباح— كما يفعل البستاني — قضبانها إلى السائط الذي تكسوه زهور السليوت وتسلفه حتى نافلتق، كان يمكن أن أتزل من السرير، ثم إلى الحديقة، بسرعة، بدون أن أذكر أن المساء سيعود أبداً بساعة فراقى لأبى. وهكذا تعلمت، وأنا في ناحية جرمونت، كيف أفرق بين هذه الحالات التي تتتابع في نفسي، في فترات معينة، وتبلغ حد اقتسام كل نهار، وتعود إحداها لتطرد الأخرى في ساعة محددة، كالحمى. كانت هذه الحالات متجاورة، لكن كل منها كان منفصلاً عن الآخر، وتعلمت سبل الإتصال بينها، حتى أنني لم أعد أفهم أو حتى أتصور في إحداها ما رغبته فيه، أو خضت منه، أو أنجزته في الأخرى.

لذا، ظلت ناحية ميز جليز ناحية جرمونت مرتبطين في نظري بكثير من الأحداث الصغيرة، الخاصة بحياة من مختلف الحيوانات التي نحياها في خطوط متوازية، وهي أكثر امتلاء بالأحداث وغنى بالوقائع، وأقصد بها حياة للكبر. ولا شك أنها تنمو فينا بدون أن نشعر بها. كنا نعد من فترة طويلة، لكن بدون أن ندرى، اكتشاف الحقائق التي غيرت شكلها ومعناها، وفشت أماننا سبلا جديدة. ولا تؤرخ هذه الأحداث إلا ابتداء من اليوم والذيق التي نراها فيها، عندئذ، يرافق ذكرها المنظر الطبيعي الذي أحاط بظهورها، بوجهه اللا شعوري أو الشارد، وأزهاره التي كانت تلعب على الحشائش، ومائه الجارى تحت الشمس. وعندما كان المار المتواضع أو الطفل الحالم يتأمل طويلاً — كما يتأمل المورخ للواقف وسط الحشد ملكاً — هذا الركن من

الطبيعة أو ركن الحقيقة هذا ، كان هذان الآخران لا يدركان أنهما سيقيان على قيد الحياة ، غواصهما الزائلة ، بفضل هذا المار وهذا الطفل . ومع ذلك ، حمل حماسي عطر الزعرور الذي يجمع موثته بطول السور ، حيث سيستقبل بالنسرين بعد قليل ، وصوت خطوات لا صدى لها فوق حصي الممر ، والقفاعة التي كونها مياه التربة فوق نبات مائي وتفقاً في الحال ، وعبر بهم سنوات عديدة متتالية ، بينما انمحت الطرق حولهم ، ومات من وطووها بأقدامهم ، وماتت ذكراهم . وأحياناً ، تبرز قطعة من المنظر الطبيعي وصلت إلينا حتى اليوم ، وقد عزلت عن كل شيء ، حتى أنها تطفو مترددة في ذهني كأنها ديولوس مزدهرة ، بلون أن أتمكن من أن أقول من أي بلد ومن أي زمان — وربما من أي حلم بكل بساطة — أنت . لكن ، يجب أن أنظر إلى ناحيتي ميزجلير وجرمونت على أنهما بصفة خاصة مناج عميقة في تربة ذهني ، وأراضى صلبة اعتمد عليها حتى الآن . ولأنني أؤمن بالأشياء والكائنات ، وأنا أمر بها ، ظلت الأشياء والكائنات التي عرفت من خلالها ، الأشياء والكائنات الوحيدة التي أنظر إليها نظرة جادة ، وتبعث في الفرح حتى الآن . والأزهار التي أراها اليوم لأول مرة لا تبتو لي حقيقة ، إما لأن الإيمان الخلاق قد نضب فعينه في ، إما لأن الحقيقة لا تتشكل إلا في الذاكرة . فناحية ميزجلير بليكهأ ، وزعرورها ، وترنجانها ، ومتورها ، وتفايحها ، وناحية جرمونت بترعها ، حيث أفرخ الضفادع ، ونيلوفرها ، وبراعمها الذهبية ، مثلاً في نظري إلى الأبد وجه البلاد التي أتمنى أن أعيش فيها ، وأطالب فيها أولاً وقبل كل شيء بالذهاب للصيد ، والتزهة في القارب ، وروية أطلال القلاع الغوطية ، والعثور وسط القمح — هكذا كانت سانت أنلريه ديشون — على كنيسة ضخمة ، وبقية ، مذهبة كالرحى . وتتصل بقلبي مباشرة زهور الزعرور وأشجار التفاح التي قد التي بها في الحقول ، أثناء السفر ، لأنها توجد في نفس للعق ، في مستوى ماضى . ومع ذلك ، ولأن شيئاً فردياً يوجد في الأمكن ، لن تشبع رغبتى في رؤية ناحية جرمونت ، إذا استولت على ، إذا اقتادوني إلى شاطئ تربة يوجد فيه نيلوفر جميل كيلوفر التيفيون ، بل أجمل منه ، وإن أتمنى أن تأتي في المساء ، عندما أعود إلى المنزل — في تلك الساعة التي يستيقظ فيها في نفس ذلك القلق الذي يهاجر بعد ذلك إلى الحب ، وقد لا يفصل عنه أبداً — أم أجمل وأذكى من أي ، وتقول لي « تصبح على خير » . لا . كذلك ، كان ما يلزمي لكي أنام وأنا سعيد ، وأشعر بذلك السلام الذي لا تشوبه شائبة ، ولم أنعم به أبداً مع أية عشيقة ، ما دمتا نشك في المشيقة في نفس اللحظة التي نؤمن بها فيها ، ولا نمتلك قلبها أبداً ، في حين كنت أثلي قلب

أى كاملا في قبلة ، بلا تحفظ وبسلامة نية ، وبلا أثر لفكرة لا تتعلق في — كان مايلزنى هو أن تكون هى ، هو أن تبيل على ذلك الوجه ، حيث تحت العين عيب ، فيما يبدو ، عيب أحبته مع ذلك كما أحببت الوجه كله . كذلك ، فان ما أريد أن أراه ثانية ، هو ناحية جرمونت التى عرفتها ، والمزرعة البعيدة قليلا عن المزرعتين التاليتين المتجاورتين ، عند مدخل عمر البلوط ، هو هذه المراعى ، حيث ترسم أوراق شجر التفاح عندما تجعل الشمس منها سطحاً يعكس الضوء كالبحيرة ، هو ذلك المنظر الطيبى الذى تضمنى فرديته أحيانا ، فى ليل أحلامى ، بقوة شبه خيالية ، ولا أستطيع أن أجده ثانية عند استيقاظى . ولأننى جمعت فى نفسى إلى الأبد انطباعات متباينة ، بطريقة لا انفصام فيها ، عرضتى ناحية ميزجلينز كما عرضتى ناحية جرمونت ، فيما بعد ، لكثير من خيبة الأمل ، بل وكثير من الأخطاء ، لجرد أنهما جعلتا هذه الانطباعات تولد فى وقت واحد . كثيراً ما أردت أن أرى شخصاً معيناً مرة أخرى ، بدون أن أفطن بكل بساطة إلى أنه يذكرنى بسور من الزهور ، وبجرد الرغبة فى السفر جعلنى أصدق ، وأجعل الآخرين يصدقون أن الود قد عاد . لذلك ، ولأن التاحيتين كانتا حاضرتين فيما يمكن أن يرتبط بهما اليوم من انطباعات ، فهما تعطيان لهذه الانطباعات أساساً ، وعمقاً ، وبعداً (إضافياً) ، وتضيفان إليهما بهراً ، ومعنى لا يتركه إلا أنا . وعندما تزار السماء المتسقة كالوحش الكاسر فى أمسيات الصيف ويغضب الجميع من العاصفة ، أدين لناعية ميزجلينز ببقاى وحيداً فى حالة وجد ، وأشم ، من خلال صوت المطر التساقط ، رائحة ليلك ثابت لا يرى .

كثيرا ما كنت أفكر حتى الصباح فى زمن كومبريه ، وأمسياتى الحزينة الخالية من النوم ، وعديد من الأيام التى رد صورتها إلى مؤخرأ مذاق — وكان يمكن أن يسمى « نكهة » فى كومبريه — فنتجان من الشاى . ونتيجة لتوارد الخواطر ، كنت أفكر فيما عرفته بعد أن غادرت هذه المدينة الصغيرة بعلة أعوام ، عن قصة حب عاشها سوان قبل مولدى ، بكافة تفاصيلها النقية ، والحصول على هذه التفاصيل يكون أسهل أحيانا إذا كانت عن حياة أناس ماتوا من عدة قرون ، لا عن حياة آخر أصيقلنا ، يبدو مستحيلا — كما كان الحديث بين مدينة وأخرى يبدو مستحيلا — طالما كنا على جهل بالطريقة التى أمكن بها التحايل على هذه الاستحالة . وأصبحت هذه الذكريات التى أضفيت بعضها إلى البعض الآخر تكون كتلة واحدة ، ومع ذلك كان يمكن أن تبين فيها — بين أقدمها ، وأحدثها الذى ولد عن خطر أو رائحة ، والذكريات التى لم تكن سوى

ذكريات شخص آخر نقلت إلينا - شقوفاً ، إن لم تكن حقيقية ، فهي على الأقل تعريفات ، ومزيج من الألوان يكشف في بعض الصخور وبعض أنواع المرمر عن فارق الأصل ، والعمر ، والتكوين .

وعندما كان الصبح يقترب ، يكون شكى العابر في يقظتي قد تبدد من مدة طويلة . كنت أعرف في أى غرفة أوجد بالفعل . فلقد أعدت بناءها حولي في الظلمة - سواء وجهتي الذاكرة وحدها ، أم استعنت بنور خافت لمحة ووضعت تحته ستائر النافذة - ، أعدت بناءها بأكملها ، وأثنى كهندس معماري ومنجد يحفظان للابواب والنوافذ فنتائجهم الأصلية ، كنت قد أعدت المرايا إلى مكانها ، وأعدت الصوان إلى مكانه المعتاد . لكن ، لا يكاد للنهار - لا انعكاس جمرة أخيرة على عمود نحاس ظننته النهار - يرسم في للظلام ، بشيء أشبه بالطباشير ، أول خط أبيض تصحيحى ، حتى تنفصل النافذة وستائرهما عن إطار الباب ، حيث حددت مكانها خطأ ، بينما يهرب بأقصى سرعة المكتب الذى كانت ذاكرتى قد وضعتته هنا ، كيفما اتفق ، ليفسح للنافذة مكاناً ، يهرب وهو يدفع أمامه المدفأة ويبعد جائط المرمر المشترك . وسيطرت مساحة صغيرة على المكان الذى كانت غرفة المكتب تحمله من لحظة واحدة فقط . ولحق المسكن الذى أعدت بناءه في الظلام بالمساكن التى ترامت لى في دوامة البقطة ، بعد أن وات هاربة أمام العلامة للشاحبة التى خطها أصبح النهار المرفوع فوق الستائر .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة  
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/٤٠٣٨

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٠١٠ - ١٩٨٥ - ٢٤٦٥





